أفغانستان والجوار: السياسات والدلالات
(11سبتمبر 2001- 22 ديسمبر 2001)

تقديم:

انعقد اتفاق المراقبين للأحوال السياسية العالمية على أن العالم المعاصر بسبيله إلى تحولات كبري وعميقة إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 وعلى أن "**الإسلام وأمته** "سيكونان -بلا جدال- في قلب هذه التحولات... الأمر الذي يطرح تساؤل الوقت: في أي اتجاه تمضي هذه المستجدات بأمة الإسلام؟ وما هي معالم الطريق المترائي أمامها؟وإذا ما كانت الإجابة المنتظرة عن مثل هذا التساؤل الهائل تحتاج إلى تضافر جملة جهود بحثية، فإن هذا التقرير يثير هذا التساؤل في المكان والزمان اللذين قُدِّر لهما أن يكونا الأكثر اقتراباً من تداعيات الهجمات على نيويورك وواشنطن؛ أي في أفغانستان ودائرتيها: اللصيقة ذات الهوية الإسلامية من باكستان، طاجيكستان، أوزباكستان، تركمانستان، علاوة على قيرغيزستان وكازاخستان غير الحدوديتين، وشبه اللصيقة ذات الثقل الإقليمي وربما العالمي من روسيا، والصين، والهند، وكذلك في المدة بين الحادي عشر من سبتمبر والثاني والعشرين من ديسمبر للعام 2001 من حين وقعت الهجمات إلى أن تسلمت حكومة حميد كرزاي الانتقالية أعمالها في كابول عقب مؤتمر بون.

فعبر سنوات خمس، هيمنت خلالها "**الحركة الإسلامية لطلاب المدارس الدينية**"- طالبان على نحو تسعة أعشار الأرض الأفغانية، وكانت خلالها بمثابة فاعل ذي ظلٍ متدرج الكثافة -محلياً وإقليمياً- وذي إثارة للعالم من آونة لأخرى، **عبر ذلك تخلّق في أفغانستان وجواريها المباشر وغير المباشر واقع جيوستراتيجي جديد، تعاطت معه الدول والأنظمة وسائر الفواعل المحلية والإقليمية إيجابًا وسلبًا بما يمكن الزعم أنه أعدَّ المسرح لما وقع مباشرةً عقب –وليس في- الحادي عشر من سبتمبر 2001م.**

إن هذا اليوم وما تداعى وراءه لا يعدو أن يكون حلقة بارزة في مسلسل ممتد من التدافع الذي مثلت أفغانستان إحدى محطاته من قبل.

هذه هي المقولة الافتراضية الأساس التي يسعى هذا التقرير إلى اختبار مصداقيتها على اعتبار أنه من الضروري حقًا لهذه الأمة وأبنائها أن يدركوا جيدًا أن ما يفعلونه ويتعاطونه من خبرات حاضرة في عالمهم لم يعد بمنأى عن التأثير في الساحة العالمية برمتها والتأثر بها.

فيما يلي متابعة تتضمن ثلاث جولات من التداعيات المباشرة للحادي عشر من سبتمبر 2001 يسبقها تمهيد حول التجربة الطالبانية وأبعادها المحلية والإقليمية والدولية؛ بغية الوقوف على جذور التداعيات الراهنة.

تمهيد: أفغانستان والجوار ... مسيرة إقليمية نحو أزمة عالمية

إن التجربة الطالبانية وما علق بها من ممارسات جبهة العرب الأفغان الذين نُبذوا من قبل الأنظمة الحاكمة ببلدانهم منذ مطلع التسعينيات باسم "**العائدين**"[1]، والمُنابَذين من جهة الغرب والشرق باسم "**الأصولية والإرهاب والتطرف وخلافه...**"[2]، وكذلك طرائق تعاطي الأطراف المحلية والإقليمية مع هذه التجربة، تعد في التحليل الأخير مثالاً نموذجيًا علىمجمل الحالة الإسلامية التي تتعانق فيها أبعاد الدين والدنيا، والذات الإسلامية بأطيافها مع الآخر غير المسلم بأطيافه المقابلة.

وعليه، يشتمل هذا المبحث الأول على استعراض موجز لهذه التجربة الكثيفة على محورين متداخلين: بين الداخل الأفغاني (طالبان وسائر القوى الأفغانية والعرب

الأفغان) وبين الدائرة المحيطة بأفغانستان، والأيادي الممتدة من بعيد مكملة لعناصر التجربة الرئيسة.

المحور الأول– الداخل الأفغاني: طالبان بين المنطلقات والممارسات: إثارة أم تأثير؟

أثار الطالبان منذ ظهورهم وفي كل سكنة وحركة تعلقت بهم ردود فعل وتوجهات شتى على طول الخط بدءًا من الطريقة التي اندفعت بها الحركة من الحيز الديني الدراسي المهمَّش إلى الحلبة السياسية الأفغانية المائجة وما تردد حول ماهيتها وغاياتها وما ورائياتها ومرورًا بالكثير من محطات فعلها وتفاعلها مع واقعها المحيط.

وفي هذا، غلبت تفسيرات "**الصناعة الخارجية والأيادي الخفية**" على تحليلات الظهور الطالباني المفاجئ عام 1994م[3]، غير أن الملا محمد عمر مجاهد –الزعيم الديني والسياسي للحركة– كان يصف هذا الخروج بالعفوية ضمن التفاعل مع ظروف داخلية وخارجية آنية[4]، الأمر الذي ربما حسمَ الكثير من الجدل حوله مبكِّرًا تصريحُ طالبان بالأسس والمنطلقات الفكرية لحكمها عقب الاستيلاء على كابول 27 سبتمبر 1996م؛ إذ أعلنت الحركة قيام إمارة أفغانستان الإسلامية على غرار دولة الخلافة، تطبق أحكام الشريعة وحدودها، تحت مظلة العقيدة الماتريدية (نسبة إلى مذهب أبي منصور الماتريدي)، ووفق الفقه الحنفي على نهج المدرسة الديوبندية (ذات الأصل الهندي المسلم)، بأمانة العلماء وأهل الحل والعقد، وتحت ولاية "**أمير المؤمنين**" الذي تجب مبايعته على السمع والطاعة في غير معصية، ولا يحل عزله إلا لعجز أو لانحراف أو بوفاته[5].

رفضت طالبان مطلقًا كافة التقاليد السياسية الغربية في الحكم، وعلى رأسها الديموقراطية التي رأت الحركة أنها "**تسوي بين العالم والجاهل، وتجعل أمر الله – تعالى– وتشريعه بيد الشعب**"، وأصدر مجلس كبار العلماء بالحركة الفتاوى بذلك وبتحريم مشتقاته من التحزب والتعددية الحزبية وتداول السلطة ونظام الانتخابات على أساس أنها: "**تقاليد غير إسلامية**"[6].

لقد جاءت هذه المنطلقات والمبادئ والتصاريح بها لتصيغ الجزء الأكبر من إدراك الأطراف المعنية بالهم الأفغاني في الداخل والمحيط القريب، وتوجه الأنظار إلى الطالبان كجماعة سلفية –ربما بدت أكثر تقليدية– تضاف إلى عداد "**الحركة الإسلامية الأصولية**" المنساحة عبر هذه البقعة من وسط وشرق وجنوب آسيا، الأمر الذي أسفر عن سيطرة المخاوف والمحاذير على توجهات الجوار نحو طالبان في مستهل تجربتها السياسية. لقد تجلى ذلك مبكراً في تجنب أنظمة الجوارين الاعتراف بطالبان حكومة شرعية لأفغانستان حتى عقب تأكد سيطرتها على تسعين بالمائة من البلاد، فلم تلق ترحيباً يذكر سوى من دول ثلاث أقامت معها علاقات دبلوماسية متفاوتة الدرجة، هي باكستان والسعودية والإمارات العربية.

من خلال مسح فعاليات هذه التجربة الخماسية لطالبان، فإن أربع موجات رئيسة متداخلة من الإثارة الإقليمية والعالمية تتبدى على خلفية الممارسات الطالبانية المنبثقة بالأساس عن منطلقات فكرية وآليات وعي وسعي يمكن تبين دلالاتها على النحو التالي:

الموجة الأولى– فتاوى التعديل الاجتماعي: أهكذا تكون البداية؟

على أثر التمكين لطالبان في أفغانستان أواخر عام 1996م، راحت الحركة تضع اللبنات الأولى لمشروع دولتها الإسلامية، فأقامت الحركة نوعاًمن التنظيم الحكومي اتسم بخصائص الهيراركية الهرمية، والتلقائية الإدارية، فضلاً عن الصبغة الدينية.

فبطبيعة الحال، اصطبغ حكم طالبان في مرجعيته ومنطلقاته، ومبادئه وآلياته، اصطباغة دينية حاول البعض – إفراطاً في التعميم– وصمها بالثيوقراطية[7]، غاضًا الطرف عن الخصوصية السياسية الإسلامية؛ الأمر الذي لا يعني – من ناحية أخري– التفريط في التحفظ على التجربة

الطالبانية. إن تعددمجالس العلماء وهيئات الفتوى والشورى، وإقامة وزارة حسبة كوزارة سيادية، وشغل مواقع الصف الأول بالملالي، واشتراط العدالة الدينية في سائر شاغلي الجهاز الحكومي، كلها كانت تعبيرات موحية على هذه الروح المشربة والتي تجلت أكثر في آليات العمل. فاتساقاً مع الطبيعة الطالبانية، جاءت "**الفتوى**" كآلية شبه منفردة وأسلوب بديل لعملية "**اتخاذ القرار**" وفق تقاليد الدول القومية المعاصرة، لتكون الأداة الرئيسة للحركة في سعيها لإعادة تأهيل المجتمع الأفغاني وفق منطلقاتها ومرجعيتها، مشفوعة –غالبًا– بتظهير المااعمر.

وصدرت الفتاوى تباعاً بتحريم النحت والتصوير والموسيقي والغناء، وبإغلاق دور السينما والمسرح والإذاعات المرئية والمسموعة، فيما عدا إذاعة "**الشريعة**" لسان حال الحركة، جرمت الحركة حلق اللحى وعاقبت على تهذيبها، وحرمت التدخين سيما على موظفيها وعممت الحجاب على المرأة الأفغانية التي لم تكن –على كل حال– بعيدة عنه، وقصرت عمل وتعليم الأنثى على ما رأته من "**الضرورات**" كالتطبيب، كما أغلقت الأضرحة والمزارات التي كان الناس يؤمونها للتبرك أو للتوسل وسؤال الأولياء وخلافه[8].

صدرت كافة هذه الفتاوى في الفترة الأولى من حكم طالبان بين عامي 1996-1998، فيما يمكن تعريفه بمحاولة إرساء القواعد والإعلان عن الذات، مصحوبة بموجة "**الإثارة**" الأولى. وعلى الرغم من إمكان أن يغفل التعبير "**إثارة**"حالة التحفز المسبق من الخارج، فإن طالبان –أيضاً– لم تحاول الاستدراك على خطواتها المبدئية أو التخفيف من حدة آثارها.

وبعيداً عما أثارته موجة الفتاوى والممارسات الأولية من معارضات وتأويلات وإسقاطات، فلا يزال التساؤل مطروحًا ومشروعًا حول المشروع الطالباني بين المشروعية كمعيار يصدق على الإيمان بالوحي الإلهي، وحول الملاءمة كمعيار يأخذ بحسبانه التحليل المقاصدي وترجيح المصالح/المفاسد، واعتبار الواقع وفقهه... الأمر الذي تشكل الإجابة عنه أهمية كبيرة على صعيد البحث في المآلات المترائية للأمة.

الموجة الثانية– السياسة الطالبانية تجاه المعارضة الأفغانية: التحول المشدود

شهدت المرحلة الأولي من علاقات طالبان بالقوى الأفغانية (أكتوبر1994– أواخر1998) غلبة سياستين رئيسيتين: سياسة التحييد والاحتواء، وذلك في مواجهة الأطراف الثانوية من القبائل والفصائل التي أرهقت قواها دوامةُ العنف غير المحسوم من حين تهاوى نظام نجيب الله (أبريل 1992) والتي اندفعت لمطاوعة طالبان من تلقاء نفسها، وقبلما تعلن طالبان عن منطلقاتها وسياساتها. هذه الهرولة من الفصائل والقادة السابقين إلى مهادنة فمطاوعة الطالبان – سيما الحزب الإسلامي (محمد يونس خالص) الذي يكنّ له البشتون في الجنوب والوسط تقديراً خاصاً وكذلك جماعات "**العرب الأفغان**" التي قذفت بها الحرب الأهلية إلى بيشاور ومناطق الحدود مع باكستان، هذه الهرولة عززت ولاشك من طموح الطلاب الصاعدين، ومن ثم تماديهم في السياسة الثانية: سياسة الدحر والاكتساح العسكري إزاء القوى الأساسية الأخرى.

جاءت آلية الدحر هذه مع البدايات الأولي لخروج الطالبان، لتضفي على المشهد الأفغاني مزيداً من التعقيد والتشويش سيما إزاء طبيعة وقناعات وولاءات الحركة الصاعدة. فالانتصارات المتوالية في اتجاه كسر شوكة الحزب الإسلامي (حكمتيار) الذي تميز باستقطاب شبه منفرد لعداءات الغرب ودول الجوارين المباشر وغير المباشر، وحظي من ناحية أخري –بتأييد العرب الأفغان (قاتل في صفة 600 مقاتل عربي في بعض الإحصاءات) [9]، من شأن ذلك أن يورث تفاؤلاً لدى سائر المراقبين.. بيد أن مواصلة الطالبان لنفس النهج إزاء الطرف الثاني (رباني– مسعود–دوستم– الشيعة) بما آل إلى تقهقره سراعًا إلى

شريط حدودي بأقصى الشمال الشرقي (تخار وبدخشان) باسم "**الجبهة الإسلامية المتحدة لإنقاذ أفغانستان**"، أحال موقف الراصدين سيما الجوار إلى الحذر مجردًا عن "**التفاؤل**".

لكن سرعان ما تجمد الموقف عند حد التسعين بالمائة من الأراضي الأفغانية "**منذ منتصف العام 1998**"؛ الأمر الذي يُعزى إلى شبكة من المتغيرات، لعل أهمها على الإطلاق تحرك الأطراف الخارجية البعيدة والقريبة للحيلولة دون اكتمال الهيمنة الطالبانية، سيما بعد احتضان الحركة لتنظيمات الأصوليين وتواتر عدد من التقارير حول تبنيها للحركات الإسلامية في المنطقة، ثم إعلان أسامة بن لادن (فبراير 1998) قيام الجبهة الإسلامية المتحدة لقتال اليهود والصليبيين، وتصاعد الاتهامات الأمريكية لتنظيم القاعدة بتدبير عمليات تخريبية ضد أهداف أمريكية. وأيًا ما كانت درجة الدعم الباكستاني للطالبان في البداية، فإن المؤكد أن تعديلاً أجري على هذا التيار ساهم في تراجع معدل الزحف الطالباني، مع تزايد الضغوط الأمريكية بما تبدَّى في خطاب نواز شريف الرافض آنئذ لإيواء طالبان للأصوليين العرب والساعي لطردهم من بيشاور[10].

من ناحية أخرى، يلاحظ إزاء هذا الطور من التجربة الطالبانية أنه جاء ثمرة طبيعية وكاشفة لنمط من أنماط الاعوجاج السلوكي والخطابي الأفغاني إزاء المنطلقات والمرجعيات العامة المنتسبة للإسلام. فقد حركت طالبان وعيها وسعيها إزاء المعارضة بناء على مفهوم "**الأمير المتغلب**" الذي يدان كل من يعترض على حكمه أو ينازعه الأمر بـ"**البغي**" وتحل مقاتلته على ذلك حتى يفيء، ذات الموقف الذي لم تتجاوزه المعارضة الشمالية بترديد أنها "**الحكومة الشرعية المعترف بها من الدول**"[11].

في ظلال هذه النفسية المعبأة بركام الخلاف، المدشنة برؤى تصطنع لذاتها واقعاً غير هذا الذي يشير إليه الجميع، لم يكن ثم مجال للحديث عن مقاصد الشرع والأمور المعلومات منه بالضرورة من المشترك الإسلامي والمعاني القرآنية والنبوية: "**إنما المؤمنون إخوة..أمتكم أمة واحدة..الأعراض والدماء والأموال الحرام..الصلح خير..فأصلحوا بين أخويكم.. وأصلحوا ذات بينكم.. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**..." ذلك على حين لا يخجل كل طرف حين يمد يده السفلى صوب الأبعدين استجداء لوقود الفتنة... الأمر الذي لا تتواني فيه أي جهة ذات علاقة ما بالشأن الأفغاني [12].

إنه إذا ما عُدَّت طالبان عقاباً قدرياً لحكومة المجاهدين الألداء (28/يونيه/1992إلى26 سبتمبر 1996)، فإن القراءة السننية وخبرة التاريخ الإسلامي كانت تنذر بوضوح ببوادر بديل لن يكون سوى بوابة لسطوة الخارج على الداخل الإسلامي أو الأفغاني تحديداً فيما هاهنا[13].فمع نهاية العام 1998 ومع أن حالة العجز المتبادل أسفرت عن بوادر حوار وتفاوض فيما بين طالبان والمعارضة الداخلية، إلا إن إرهاصات ظهور البديل الثالث –متمثلاً في شخص الملك السابق محمد ظاهر شاه وأنصاره ثم زعماء الأحزاب غير ذات الأصالة– كان يؤْذِن بمزيد من تعقد شبكة القوي الضالعة في الشأن الأفغاني. أسفرت محاولة "**جس النبض**" من قبل الملك السابق حول عزمه الإسهام في حل مشكلات "**بلاده**" (ودعوته إلى عقد مجلس "**لويا جركه**" القبائلي الضخم) عن رفض خطابي من قبل أغلب الأطراف سواء الطالبان أوفصائل الشمال، غير أن أحدًا من هؤلاء لم يكن بمكنته اقتلاع هذه البذرة القدرية. إن هذا التردد بين مشهدي الداخل والخارج أبرز إلى أي مدي يلهو الداخليون سيما في ظل غياب المشروع المحدد، بينما لا يرعوي الخارجيون عن غايات مبيتة!

ففي المبتدأ تعثرت أوليات التفاوض الطالباني مع المعارضة لفقدان الطرف الشرط الضروري: الأمم المتحدة؛ إذ كانت قد سحبت طاقمها المكون من أربعين موظفاً من كابول منتصف عام 1998 إثر اغتيال ثلاثة من موظفيها.. بيد أنه مع مطلع العام 1999 عادت المنظمة مما أسفر –توًا– عن عقد محادثات عشق أباد الأولي (10–11/ فبراير 1999) والتي انفضت بلا شيء، ثم محادثات

عشق أباد الثانية (منتصف مارس 1999) والتي توصلت فيها طالبان والمعارضة إلى اتفاق غير متوقع على تقاسم السلطة على المستوي التنفيذي والتشريعي والقضائي، وتبادل الأسري [14]، الأمر الذي ذهب أدراج الرياح حين علقته طالبان على شرط **"عدم المساومة على نظام الإمارة الإسلامية، ومنصب أمير المؤمنين الملا محمد عمر"**، وهو ما أوله المراقبون بأنه يحيل ممثلي المعارضة إلى مجرد **"موظفين"** لدى الإمارة[15].. ذات الشيء الذي تكرر في مفاوضات جدة أول أغسطس 1999 بمبادرة ووساطة منظمة المؤتمر الإسلامي. أسفرت هذه التجربة بجلاء عن نمط التفاوض السياسي الداخلي أو البيني في الأمة الواحدة: نمط الخصم الألد، حين تعقد مفاوضات جدة -على سبيل المثال- في غرفتين منفصلتين يتنقل بينهما الوسطاء، اتباعاً لسنن السابقين: **(بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)**[16]. إن المعارك لم تتوقف في ظل مبادرات متعددة المصادر كثيرة الاشتراطات والتي تقرر من ذاتها مصيرها المعتاد: الفشل.

اتضح جلياً كذلك أن القوى الأفغانية - بما فيها حركة طالبان- لا تتحول بسهولة عن مواقفها المبدئية إلا حال عجزها المؤكد عن فرض حلولها الأحادية، أو يأسها من تبدل الظروف المحيطة.

في غضون ذلك، شرعت إيران في كيل الصاع لطالبان صاعين ردًا على مقتل دبلوماسييها الثمانية، حيث راحت المعونات العسكرية تتدفق على حزب الوحدة (وحدات- كريم خليلي) الشيعي ضمن التحالف الشمالي[17]، وألقت روسيا بثقلها وكذلك فرنسا وراء أحمد شاه مسعود ودوستم[18]، فيما راحت الولايات المتحدة تعلن نفاد صبرها تجاه الحركة وتمارس ضغوطاً معلنة على باكستان-نواز ثم برويز وعلى تركمانستان لقطع أي خطوط إمدادات، بل وأعلن المسئولون الأمريكان عن عزم إدارة كلينتون على فتح قنوات مع معارضي طالبان في الداخل.

وفي أثناء ذلك أيضاً، وفي قلب عام المفاوضات الداخلية (1999) رأس ظاهر شاه مؤتمرًا بعنوان **"المصالحة الوطنية"** لم يحضره سوى أنصاره وعلى رأسهم جيلاني ومجددي؛ حيث دعا في إطاره إلى كل ما عارضته طالبان من نظام جمهوري ديمقراطي حزبي تعددي... إلخ[19].

وإزاء العجز الجماعي عن الحسم، آثر الجميع التخندق خلف سياسة الانتظار، إلى أن يضيق الخناق الدولي حول الحركة؛ حيث بدا أن ذلك بسبيله إلى التحقق العاجل مع أواخر العام 1999حين دخلت عقوبات الأمم المتحدة ضد طالبان حيز التنفيذ (1999/11/15) وضج الإعلام بما جلبته طالبان على الشعب الأفغاني من بؤس لا مثيل له... الأمر الذي قابلته طالبان بخطاب يومي باللامبالاة والفشل في الالتحام بالشعب تحت شعار **"العقوبات تؤثر على الشعب لا علينا"**[20].

خلال العام 2000 تمكنت طالبان من فتح جبهات متعددة دون إغلاق إحداها سيما بعد تفجير المدمرة الأمريكية يو إس إس كول أمام سواحل عدن أكتوبر 2000 وتوجيه الولايات المتحدة -كالعادة- أصابع الاتهام نحو ابن لادن وقاعدته والذي تأبى طالبان بشدة تسليمه. سرعان ما راحت الأطراف الضد- طالبانية تمارس لعبتها المعتادة: الدخول إلى قلب أفغانستان عبر قنوات الأطراف الخارجية، و لم تنفع طالبان نداءاتها للأمة أو لمنظمة المؤتمر الإسلامي أو ما يسمى بالمجتمع الدولي أن يدفعوا عمليات التفاوض الداخلي للأمام وأن يرفع المتطفلون أيديهم عن أفغانستان [21].. فموجات الإثارة المتوالية كانت أعتى من أن تتحملها أو تدفعها الأمة الواهنة!

الموجة الثالثة- آثار باميان: فن إدارة الأزمات على الطريقة الطالبانية

إبان الشطر الثاني من حكمها خضعت طالبان لخطاب سياسي خارجي، يلقي بها إلى خندق الجماعات الأصولية -بالمفهوم الغربي المعولم- ويصوب الوعي نحوها كإحدى مناطق التهديد الإقليمي والدولي، وذلك عبر

مواقف متتالية عديدة الأبعاد: أمنياً وثقافياً واقتصاديا، استنفرت خلالها ردود فعل إقليمية ودولية أبانت عن درجة عالية من الترصد الجماعي تجاه كل بادرة طالبانية.. الأمر الذي اتسم بنوع من الانتقائية والازدواجية إزاء رصد المواقف وتشخيصها فيما بين الضجيج المتحامل والصمت المتغافل.

فمن ناحية، ضوضأت الدعاية في الخارج إزاء ما أطلق عليه "**ثالوث المحرمات**": انتهاكات حقوق الإنسان، المخدرات، الإرهاب الدولي [22]، وعلى صعيد النجاحات الطالبانية العديدة، تحركت عناصر التورية والإغفال، من قبيل الموقف من النجاح منقطع النظير في امتحانة "**المخدرات**" التي أوقعتها الدعاية العالمية فيها بين ناري الخارج والداخل [23] علاوة على ذلك تلاشت عبر الأثير النداءات المتوالية من طالبان بالإسهام الدولي في رفع المعاناة والحصار الأمريكي والدولي عن الشعب الأفغاني، وفى إعمار البلاد والتوقف عن إلهاب الحرب الداخلية بالتدفقات المالية والعسكرية على الجانب الآخر. أفضى هذا التحليل إلى تحميل طالبان ذات الأجل القصير الخطيئة كاملة.. الأمر الذي بلغ مداه مطلع العام 2001 حين أصدر الملا محمد عمر فتوى تدمير تمثالي "**بوذا**" الضخمين 27 فبراير 2001.

وفى وسط هذا الضجيج المثار بين إعلان الفتوى وتنفيذها(مارس2001) أعرض الخطاب السائد تماماً عن مرجعية طالبان التشريعية، وعن تكييفها للقضية، الأمر الذي أرجأ دور أهل الاختصاص عن البت في الأمر إلى التوظيف السياسي كوفدٍ ناقلٍ لخطاب "**الإثناء**" في الوقت الذي تمادت الأطراف الإقليمية والدولية في قطع خط الرجعة على طالبان، إذ اصطدمت الحركة بقرار تبنته روسيا والولايات المتحدة يقضي بتشديد العقوبات على أفغانستان جراء امتناع طالبان عن تسليم ابن لادن، ورفضها إغلاق مواقع الحركات الأصولية في أراضيها[24].

كشفت الأزمة المصطنعة حول آثار باميان عن عالم شديد الحساسية إزاء الحركة، على أتم الاستعداد لإحالة أي مخالفة منها للمناخ العام إلى أزمة دعائية ضاغطة، وفرصة لمزيد من تشديد الخناق عليها، كما كشفت هذه الأزمة – أيضًا– عن نمط "**إدارة الأزمات**" لدى أحد روافد الفاعلين في الأمة: الإسلاميين، وتحديداً الطالبان، بما يمكن إجماله في الملاحظات التالية.

- غلبت عقلية "**الصدام** "مع المحيط على طالبان، إذ ظهر ميلها إلى الهروب من جبهات خانقة بفتح جبهات أخرى مفاجئة، وفق تكتيكات سلبية انسحابية... لا ترقي إلى التفكير الاستراتيجي... إن الأزمات الفعلية للواقع الأفغاني، وضغوط الدعاية العالمية إزاءها، والاستعراض الإقليمي المؤازر للمعارضة، والإغلاق الدولي لنوافذ الدبلوماسية الطالبانية، ذلك وغيره لم يتمكن من إثناء عقلية المقاتلين اللامرحلية عن اختلاق الأزمات وراء أخواتها.

- يرتبط بذلك إحالة طالبان كافة الأمور إلى شأن ديني لا حظ فيها لشأن من "**شئون دنياكم**"[25] وفق آلية "**الفتوى**" المعممة، الأمر الذي من شأنه أن يخلق إيهامًا محتملاً بالقدسية، ويضيق من نطاقات المناورة إزاء واقع الاستضعاف الراهن.... لكن الملاحظ أنه فيما عدا أزمة آثار باميان فإن خطًا مختلفاً لوحظ على الخطاب الطالباني عقب فرض العقوبات الدولية عليها 1999/11/15 اتسم بتحريك نوعيٍّ لعناصر الواقع كما يطرحه سائر الفرقاء سيما في خطابي وزيري الخارجية والإعلام الطالبانيين [26].

بالطبع لا يمكن حصر البدائل والحسابات في معادلة واحدة بعينها.. لكن تجربة طالبان في إدارة الأزمات تؤكد –في التحليل الأخير– مسيس حاجة الأمة لمراجعة الذات، وضرورة السعي للربط الاستيعابي الجميل بين فقهي الوحي والواقع، والبصيرة في الزمان حتى لا يوقع المسلمون أنفسهم في الحرج ويحمِّلوا إسلامهم ما لا يطاق. وعامة، فالجمع بين أمانة الدين وقوة المراسة أمر أعيا السابقين [27]!!

الموجة الرابعة– طالبان والعرب الأفغان: ملاحان في قارب واحد .. إلى أين؟

حالَ الصراعُ بين فصائل المجاهدين الأفغان منذ عام 1992، وحالةُ التربص الغربي والعربي على خلفية موجة "**الإرهاب**" المنسوبة إلى "**العائدين**" من أفغانستان، دون إبراز الصورة الدقيقة لهؤلاء المجاهدين العرب –سابقاً –الذين نعتوا من قبل بنعوت النضال والبطولة و"**القتال من أجل الحرية**"، هؤلاء العرب الأفغان أو العرب المؤفغنون اللاجئين في بيشاور ومناطق الحدود بين أفغانستان وباكستان.. حال غبار الأحداث العنيفة الدائرة حولهم دون تبين حقيقة التحويرات الطارئه على منظومتهم، إلى أن فتحت حركة طالبان ذراعيها أمامهم، وأبدت تعاطفها الكبير تجاه العديد من زعمائهم، وعلى وجه الخصوص زعيم تنظيم "**القاعدة**" الشاب السعودي الموسر أسامة بن لادن.

لقد جاء التحول التلقائي إلى طالبان–عقب التحييد الإجباري لحزب إسلامي (حكمتيار) الذي انضم إليه معظم العرب أثناء الصراع نظراً للتقارب الفكري– تعبيراً عن حجم المعاناة التي عاشتها تنظيمات العرب الأفغان في أتون هذه الفترة العصيبة، فعلى حين عاد الكثيرون إلى بلدانهم، واندمج البعض في المجتمعات القريبة، فإن البعض الأخير حيل بينه –سواء لعوامل ذاتية أو لأخرى خارجة عن إرادته– وبين ذلك، ليشكل هذا البعض النواة لظاهرة "**العرب الأفغان**". قامت هذه التنظيمات بالأساس كامتدادات للجماعات القطرية من بلدان العالم العربي، والتي غلب عليها النهج الثوري أو الدامي، علاوة على متطوعين جري تجنيدهم في أثناء المعارك ضد السوفيت (1979--1989). وعليه، فقد اتسمت العلاقات البينية في نطاق هؤلاء العرب الأفغان بدرجات من المد والجزر ومحاولات التقارب أو الاندماج التي تنتهي عادة بشيء معتبر من التواصل الفكري والتنسيق الحركي دون التوحد، مع بقاء بعض من الخلافات الفكرية والتنظيمية الممتدة عبر خبرات هذه التنظيمات القطرية سابقاً [28]. وجدت بين العرب الأفغان خلايا طرفية مهمشة، لكن نخبة من القادة والجماعات التي تمثل –بالأساس التيار الثوري– هي التي حازت القدر الأكبر من الفاعلية والظهور على ساحة هذا التكوين المنفرط، ومن ثم كانت الممارسة الأكثر لفتاً للانتباه –بعيداً عن عمليات التأصيل والتواصل الفكري أو الحركي البينية– تدور حول إدارة صراعات قطرية عنيفة عن بُعد، ضد أنظمة الحكم في البلدان التي تنتسب إليها كل جماعة [29].

في هذا الإطار، صعدت على السطح صورة رجل كانت جهوده المشهودة في الجهاد بالمال والنفس ضمن الجهاد الأفغاني ضد السوفييت، وقيادته أو مشاركته في قيادة معارك بعينها مثل جلال أباد ومأسدة الأنصار[30]، ودوره في تجميع الشباب العربي المتوق إلى الجهاد في "**بيت الخدمات**" ثم في "**بيت الأنصار**" 1988[31]، سبيلاً ليصير ملء الأعين والأسماع بين الأفغان وبين العرب بل وبين الكثيرين من أثرياء الخليج وعلماء باكستان. إنه أسامة بن لادن الذي انطلق منذ منتصف الثمانينات لتقديم الخدمات المالية والمادية إلى مناطق التداعي الإسلامي بدء أفغانستان ثم الشيشان والبوسنة والهرسك وألبانيا وكشمير والسودان والفلبين. بيد أن ارتباط أسامة بالشباب المصري سيما أبا عبيدة البنشيري، ومحمد عاطف (أبا حفص) اللذين قادا معه معركة مأسدة الأنصار (رمضان 1407– مايو 1987) ثم أيمن الظواهري، الذي تسلم زمام ما يُعرف بتنظيم الجهاد المصري منذ عام 1985.. هذا الارتباط المبكر أحال ابن لادن ومؤسسته التي ستصبح شبكة أو جبهة القاعدة إلى الجانب الآخر: العنيف [32].

هذا، إلا إن ثمة عاملاً خاصًا أضاف على تحول ابن لادن إلى الثورية بعداً عالمياً، هذا العامل يتمثل في خصوصية تجربته القطرية. فعلى حين كان كل فصيل في العرب الأفغان معني في صراعه القطري، حكومة قطره. كان أسامة بن لادن معنياً بمنازلة القطب المتعاظم عقب تداعيات حرب الخليج الثانية واستفحال الوجود الأمريكي العسكري

في بلدان الخليج سيما وطنه، ومن هنا بدأ الطريق إلى "**الجبهة العالمية**". ففي البداية رأى أسامة بل وصرح فيما بعد في مقابلات تليفزيونية- أن القائمين بتفجير مركز التجارة العالمي بنيويورك عام 1993 "**نماذج تُحتذى**"، وحث أتباعه وكل مسلم على قتل الأمريكيين الذكور البالغين من الجنود ودافعي الضرائب[33].

وحتى العام 1996 كان بادياً أن ابن لادن يتحرك منفرداً من خلال تنظيمه (الذي كان مؤسسة): القاعدة، فنُسبت إليه عمليات من قتل 18 جندياً أمريكياً في الصومال (أكتوبر 1993)، ثم عمليات الخُبر والرياض بالعربية السعودية 1996 (عام إعلان الجهاد)[34]، والتي راح ضحيتها 19 عسكرياً من سلاح الجو الأمريكي. وفيما كانت الموجة العنيفة الصراعية على أشدها بين تنظيمات العرب الأفغان وأجهزة الأمن ببلدانهم، جرَّ أسامة بن لادن الآخرين إلى فكرة "**الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين**" لتوحيد فصائل العرب الأفغان فبراير 1998، والتي حمل البيان التأسيسي لها تظهير أسامة بن لادن، أيمن الظواهري، وجماعتين من باكستان، وأخرى من بنجلاديش، ومسئول شورى الجماعة الإسلامية المصرية الذي انسحب بعد ذلك لاعتراض قيادات جماعته بمصر، والتي كانت تعد خطًا جديدًا سلميًا يتبنى مبادرة وقف العنف منذ مارس 1999م[35].

وفي بحر هذا المسار توحي مؤشرات العلاقة بين طالبان والأفغان العرب باجتماع حالتي الاتصال والانفصال، والانفصال أظهر. فحرصت طالبان على أفغانية الجهاز الحكومي الطالباني، وعلى تحييد دور العرب الأفغان تجاه قضايا الداخل الأفغاني، اللهم إلا الحالات التي حاول فيها أسامة بن لادن إنهاء الخلافات بين أصدقاء الأمس وحلفاء اليوم[36]. وعلى حين يعلن ابن لادن انصياعه لقيادة أمير المؤمنين ولتعليمات الإمارة وأنه لا يعمل باستقلالية[37]، فإن مشاهد الأداء تبدو – دائمًا قاصرة على لاعب واحد دون الآخر، حتى في الاختبار العصيب الذي خاضته طالبان لثلاث سنوات كاملة، والذي أوقعتها فيه علاقتها بالعرب الأفغان عقب توجيه الاتهام إليهم -وبالتحديد ابن لادن- في تفجيرات السفارتين الأمريكيتين. إن هذه الضربة المزدوجة في السابع من أغسطس 1998 والرد الأمريكي بقصف منطقة خوست، أدخلت على التجربة الطالبانية عناصر إشكالية شغلت علاقات طالبان الخارجية إلى أن أوقف مسارها الحادي عشر من سبتمبر 2001.

فعلى حين افتقدت واشنطن استراتيجية واضحة إزاء التطورات الأخيرة على الساحة الأفغانية وتراوحت سياستها بين بدائل غير متوائمة تمتعت طالبان بميزة المبدأ الواضح، وإن حَصَرتَ فعالية سياستها في ابتكار البدائل المناورة لردود الفعل الأمريكية؛ وذلك على النحو التالي:

بالرفض البات واجهت طالبان المطلب الأمريكي بتسليم ابن لادن منذ أحداث الخبر والرياض 1996، مؤسسة هذا الموقف المبدئي عبر مسيرته على قاعدتين لا ثالث لهما: أنه لا يجوز الحكم على شخص مسلم أمام محكمة غير مسلمة "**ويحكمون عليه كما يريدون**"، كما أعلنه وزير الخارجية الطالبان آنئذ الملا محمد حسن خان[38]، وأنه يقيم في أفغانستان كضيف على الشعب الأفغاني وليس من عادة الأفغان أن يطردوا ضيوفهم من بيوتهم بالقوة، بما ردده كافة الطالبان[39]. وأمام هذا التحديد والتشديد الطالباني تراجعت الغاية الأمريكية تباعًا من مطلب "**التسليم العاجل**" بصيغة الأمر والإلزام إلى "**التسليم بعد محادثات وأدلة**" إلى مطلب "**الطرد أو الإبعاد**" إلى أن تم تحديد الحد الأدنى من المطالب الأمريكية على لسان المتحدث باسم الخارجية الأمريكية بعد نحو العام من بدء هذا الجدل بعبارة فضفاضة: "**إن تقديم أسامة بن لادن للعدالة هو الحد الأدنى لمطالب واشنطن لتسوية هذه المسألة**"[40].

ارتبط بهذا النجاح استغلال جيد من طالبان للتردد الأمريكي بفرض الشروط أو العوائق تلو الأخرى من قبيل: تقديم الأدلة وفق مهلة منحتها المحكمة العليا الطالبانية برأت

بعدها ساحة ابن لادن[41]، واشتراط تطبيع العلاقات والاعتراف الدولي بحكومة طالبان لكي يكون ثَـمَّ اتفاق على تبادل تسليم المتهمين[42]، إلى آخر العثرات التي ألقتها طالبان من حين لآخر أمام صانع السياسة الخارجية الأمريكي. آل هذا إلى تنازلات أمريكية فعلية؛ إذ صرحت واشنطن باستجابتها للشروط الطالبانية في تقديم الأدلة للمحكمة الطالبانية التي تجاهلتها على حد قول المتحدث الأمريكي[43]. تلا ذلك تصريح واشنطن أنها ليست ضد أي نظام معين في أفغانستان -في إشارة سافرة إلى طالبان، بل وتعلن الحرص الأمريكي على "**استمرار الحوار مع طالبان**"[44]. هذا، رغم أن كل ذلك لم يخلُ من التلويح الأمريكي بمشروطيات مضادة.

إلى نهاية العام 1999، بدا أن طالبان نجحت في إدارة وتبريد الأزمة، بما تجلي في بوادر التقارب مع أطراف عدة بمعاونة باكستان وتركمانيا للتعاطي الطبيعي مع الحركة، الأمر الذي لم يرق لبعض دول الجوار، فنسبت الهند إلى ابن لادن مؤامرة لتدمير البعثات الأمريكية بها[45]، بينما تبنت روسيا في مجلس الأمن قراراً بفرض عقوبات على طالبان، دخل حيز التنفيذ منذ منتصف نوفمبر 1999، مما أثار الحركة والشعبين الأفغاني والباكستاني، فتطايرت الانتقادات الحادة تجاه واشنطن والأمم المتحدة[46].

وعليه، فقد شهد العام 2000 -على أثر التحول الجاري في باكستان والانقلاب على نواز شريف الداعم الأكبر للحركة، ومجيء الجنرال مشرف بخطاب متحفظ على حالة "**الجماعات الدينية**" وعلى وجود العرب الأفغان، وساعٍ إلى التقارب مع الولايات المتحدة، والقفز على مسألة العقوبات الاقتصادية المفروضة على خلفية التفجيرات النووية مايو 1998م، بل وعلى ضوء التحركات الأمريكية في دول الجوار لدعم العمل ضد ما عرف "**بالإرهاب الدولي القادم من أفغانستان**"، منذ مطلع العام 2000- شهد دخول الموقف بين طالبان والأطراف المعنية نفقاً من الأشواك والصدام.

فعلى حين كانت طالبان ماضية في مناورات التبريد مع ما تحصده من تقدم في مواجهة تحالف الشمال منذ صيف العام 2000، جاء تفجير الفرقاطة كول (أكتوبر من نفس العام) ليعيد كرة التصعيد بلا تردد هذه المرة. تصاعدت لهجة الخطاب الأمريكي تجاه طالبان، وقادت روسيا مبادرة ثانية لتشديد العقوبات الدولية ضد الحركة (ديسمبر 2000) والتي حظرت توريد السلاح على الحركة دون غيرها وفرضت الحصار على الحدود الأفغانية وبالأخص مع باكستان، بما تبدى في تراجع قوات طالبان أمام المعارضة بحلول العام 2001 م.

وفيما لم يكن بد أمام الحركة إلا أن تكرر نفسها -في موقفها المبدئي الرافض لتسليم ابن لادن وفي تكتيكاتها- فإن الجانب الآخر تعرض لتغير عميق؛ إذ حلت إدارة أمريكية جمهورية، سعت لاستثمار التحركات الأخيرة للإدارة السابقة، فاستهلت حوارها مع الحركة بقطع الحوار وإعلان مكتب طالبان في نيويورك[47].

وهكذا ساق العرب الأفغان القارب الطالباني عبر موجات وشلالات وعرة، لم تتمكن طالبان إزاءها من تعديل الدفة أو تفادي صخرة إلصاق تهمة: "**التهديد الأول: الإرهاب القادم من أفغانستان**"؛ بما جعل من غير المستغرب تمامًا لدى أغلب الأطراف المتعاطية مع الشأن الأفغاني أن تُسلط تلقائيًا سهام الاتهام ثم الانتقام إلى هذه البقعة مع اصطدام الطائرات بمركز التجارة العالمي والبنتاجون يوم الحادي عشر من سبتمبر 2001.

المحور الثاني- أفغانستان وسياسات الجوار: الأصولية والحلف المضاد

منذ البروز الطالباني على الساحة في وسط وجنوب آسيا، راجت مقولة ترى أن أفغانستان صارت تمثل النموذج المثالي "**للحالة الإسلامية**" التي قام دعاة "**صدام الحضارات**" بالتنظير لها[48] إلا أن التحقيق ينبه إلى اختلافات

نوعية ربما تشْكِل على تعميمات الطرح الأصيل للصدام الحضاري والمنبثق عن دوائر غربية بالأساس، وإجمالاً يمكن القول إنه فيما عدا الحالتين الباكستانية والتركمانية، اجتمعت كلمة الجوارين الأفغانيين على اتخاذ "**الأصولية الإسلامية**" في نموذجها الطالباني وامتداداتها الإقليمية عدوًا أول تتضاءل أمام غاية مكافحته والقضاء عليه تناقضات المصالح والغايات الأخرى، الأمر الذي يسعى الرصد التالي إلى تبين الخطوط العريضة لآلياته، بما يؤسس لفهم أشمل للتجربة الطالبانية وما أحاط بها، وتمهيداً للفهم الأعمق لمواقف هذه الفواعل عقب الحادي عشر من سبتمبر 2001.

1) باكستان وتركمانستان: الاستثناء المضغوط

باكستان:

تزامنت مع نهاية الحرب الباردة انعطافات ألقت بإسلام أباد في معادلات مختلفة عن ذي قبل، تدور حول البحث عن دور جديد والحفاظ على البقاء في الحلبة، في ضوء تراجع الدعم الحميم من السنيد الأمريكي، وصعود القوى الإقليمية غير الحميمة بدءاً من إيران وروسيا وانتهاء بالخصم اللدود الهند، مروراً بالصين ودول آسيا الوسطى التي يبدو أنها لم تعد تعوِّل كثيراً على علاقات مع باكستان.

في هذا الإطار تجاوبت باكستان مع قضاياها الثلاث الأدنى: الداخل السياسي الذي تتنازعه مسارات أطراف ثلاثة كبرى: (الجيش القابع في الخلفية والقاطع للوتيرة كل حين، والأحزاب القومية سيما حزبي الشعب (بنازير بوتو) والرابطة الإسلامية (نواز شريف)، اللذين استمرءا لعبة الكراسي الموسيقية منذ اغتيال ضياء الحق أغسطس 1988، وأخيراً الجماعات الدينية المتواسعة والآخذة في سحب الشارع الباكستاني من تحت الأقدام). وفي الخارج اللصيق تقع القضيتان الأخريان: الصراع المصيري مع الهند حول إقليم جامو وكشمير، وأخيرًا أفغانستان.

ودون الخوض في أصول "**المسألة الأفغانية**" في السياسة الباكستانية، وبالتركيز على التجربة الطالبانية، نجد أن ثلاثة أنظمة تعاقبت على الحركة حكمتها ثوابت ومتغيرات للوقوف وراء الحركة والقيام بدور الظهير أو العرّاب حتى اللحظة الأخيرة، فيما يمكن متابعته على النحو التالي.

- حرصت إسلام أباد منذ البداية على تأمين جهتها الغربية والشمالية باعتبارها تمثل عمقاً استراتيجياً في مقابل الجبهة الكشميرية، الأمر الذي فشل قلب الدين حكمتيار في تحقيقه، مما أسقط في يد باكستان إلى أن سنحت فرصة الخروج العفوي لطلاب المدارس الدينية ذوي الارتباطات الوثيقة عرقياً وتعليمياً مع باكستان، فسارع نصير الدين بابور-وزير الداخلية البشتوني في حكومة بوتو- وأجهزة الاستخبارات العسكرية الباكستانية (**ISI**) المعنية بالملف الأفغاني (والمسيطر عليها عناصر بشتونية) بمؤازرة الحركة، الأمر الذي أخذ دفعة أكبر عقب تسلم نواز شريف السلطة عام 1997[49].

- عبر هذه السنوات الأولى جنت باكستان ثمار مؤازرتها للحركة؛ إذ ساهم الاستقرار المتنامي في فتح الطريق أمامها نحو آسيا الوسطى لتفعيل منظمة التعاون الاقتصادي (**ECO**) التي أسستها مع إيران وتركيا عام 1985، والتحقت بها الجمهوريات الإسلامية الستة المستقلة 1992. كذلك، فإن إسلام أباد أبدت حماساً للعب دور رئيسي في نقل تدفقات النفط والغاز الطبيعي والمواد الأولية التي أفصحت عنها المنطقة: بدلاً من المعبر الإيراني، الأمر الذي لم يكن مكفولاً قبل مجيء طالبان وضمانها للسلم والأمن[50].

- من جانب آخر قدمت الحركة عبر رسالتها وممارساتها ذات الطابع الأممي ظهيراً هاماً للموقف الباكستاني إزاء الهند، سواء على صعيد المسألة الكشميرية التي ألقت طالبان بثقلها فيها، أو على صعيد تنامي النزعة الهندوسية القومية عقب وصول حزب"**بهاريتا جاناتا**" إلى الحكم 1998.

ومع استفحال الدور الذي باتت تلعبه الجماعات الدينية على الساحة الداخلية في باكستان،سيما تلك المسئولة عن توفير التعليم الديني المجاني لعدد يصل إلى مئة ألف طالب باكستاني، وعلى رأسها جمعية علماء الإسلام (الملا فضل الرحمن محمود) ورافده المنشق 1993 (الملا سمع الحق) والجماعة الإسلامية الباكستانية وريثة المودودي بزعامة (الملا قاضي حسين أحمد) ودورهما في ترجيح كفة أحد الحزبين القوميين الكبيرين، ومع ارتباطات هذه الجمعيات العلمية والفكرية والإثنية بالطالبان البشتون، لم يكن بد أمام الحكومات الثلاث المتعاقبة (بناظير، شريف، مشرف) من التغاضي عن قناعاتها المتمايزة عن توجهات الحركة، بل قامت هذه الحكومات خاصة حكومتي شريف ومشرَّف بالدفاع مراراً عن خصوصية تجربة الحركة وإسداء النصح للآخرين للاعتراف بنظامها وإنجازاتها[51] .

وتعد الفترة النوّازية أشد فترات الدعم الباكستاني للحركة؛ إذ واجهت طالبان عقوبات أمريكية منذ يونيو 1997 لم تلبث إسلام أباد أن شاركتها مثلها عقب التفجيرات النووية وولادة ما عرفه الإعلام الغربي بـ **"القنبلة النووية الإسلامية"** مايو 1998. والمعروف أن المسافات كانت بسبيلها إلى التماهي بين كابول وإسلام أباد على خليفة انتهاج فواز شريف سبل التحدي والتقشف والاعتماد على الذات، ورفضه سياسة التركيع الأمريكية؛ بما وجد هوي لدى الجماعات الدينية والتي تقدمت خطوات بإعلان مطالبات باحتذاء النموذج الطالباني في تطبيق الشريعة؛ الأمر الذي كاد يستجيب شريف لشيء منه فعلاً إلى أن اقتلعه انقلاب 12 أكتوبر 1999 لينقطع الخيط.

وعليه، لم يجر الجنرال مشرف – عبر عامي تجربته مع المسألة الأفغانية تحويرات ذات بال على سابقيه، اللهم إلا في مساع تخص الوضع الباكستاني الخاص بالدرجة الأولى، من قبيل السعي لتحسين الصورة والعلاقات مع الغرب وبالأخص الولايات المتحدة، الأمر الذي تمفصل مع المساعي الثلاث الأخرى في: التواصل أولاً مع الجانب الهندي، والسعي للإغلاق السلمي للملف الكشميري، والحد من دعم فصائل المجاهدين هناك، وفي السعي ثانيًا لتحجيم دور الجماعات الدينية رغم التنويه بإيجابياتها، وثالثًا في طرد العرب الأفغان عام 2000 من منطقة الحدود تحت ضغوط دولهم والأنظمة الإقليمية، والذين تراوح عددهم بين عشرين وثلاثين ألفًا برواية وزير الخارجية عبد الستار عزيز [52]، ولاشك أن آثاراً غير مباشرة لحقت بالعلاقة مع طالبان ترتبت على هذه المساعي.

وخلاصة القول: إنه

عبر التسعينيات تضافرت عوامل الداخل والخارج لتربط باكستان بالمسألة الأفغانية والطالبانية ربطاً وثيقاً في خطين: خط من المؤازرة بلغ منتهاه إبان وزارة نواز شريف، وخط من التحفظ ضمن الاحتفاظ بحق التدخل الدائم بلغ حده الأعلى منذ مطلع العام 2001، ومع تزايد الضغوط الإقليمية والدولية وتجديد العقوبات الدولية (يناير 2001) ضد الحركة بما تبدى في تقديم حكومة الجنرال مشرف طلبًا بالانضمام لمجموعة شنغهاي المناوئة للأصولية سيما القادمة من أفغانستان.

تركمانستان:

في أمور عديدة تعد تركمانستان أو تركمانيا استثناء نسبياً على القواعد والحقائق الحاكمة لجمهوريات آسيا الوسطى؛ فهي الأكبر مساحة بعد قازاقستان والأقل سكاناً بين الجمهوريات الخمس، والأكثر استقراراً على الساحة الداخلية، والمتفردة في سياستها الخارجية إلى حد كبير. فنتيجة لهيمنة أبي الأمة التركمانية (تركمان باتشي) الرئيس صابر مراد نيازوف بحزبه الديمقراطي (الشيوعي سابقاً) على تفاصيل الحياة السياسية دون معارضة تذكر، فإن سياسات الرفاه الاجتماعي كانت هي المعادل السياسي لشرعية النظام، والتي تمثلت بالأساس في تقديم الخدمات الأساسية للشعب بأسعار زهيدة. والحقيقة أن هذه البرامج

لم ترتبط بإصلاحات اقتصادية على نمط النمور الآسيوية أو غيرها، إنما اعتمدت بالأساس على رصيد هائل من ثروات الغاز الطبيعي كرابع دولة في احتياطيه بعد الولايات المتحدة وروسيا وكذا [53]، ومثلما كان الغاز محدداً رئيساً للسياسة الداخلية لتركمانيا، فإنه أيضًا كان المحرك الأساسي للتوجهات الخارجية لنيازوف؛ إذ سعت عشق أباد للوصول إلى الأسواق العالمية – لعدم فاعلية التبادل مع دول رابطة الكومنولث –بإقامة شبكة من خطوط الأنابيب عبر دول الجوار. كانت إيران أولى الدول جذباً لهذه الفرصة إلا أن ارتفاع تكلفة خط تركمانيا –إيران تركيا، والخلافات الأمريكية الإيرانية حالتا دون استمرار التعاون الجدي في هذا الاتجاه؛ الأمر الذي أبرز المعبر الأفغاني إلى باكستان كأفضل البدائل. وبناء عليه فقد أبدت تركمانيا حماسًا ملحوظًا للتعاون مع نظام طالبان الذي تمكن من إرساء قاعدة من الأمن والاستقرار في أفغانستان، فبادرت بتوقيع مذكرة تجارية مع باكستان (أبريل 1995) لتصدير الغاز بقيمة ثلاثة مليارات دولار، والعمل لمد خط أنابيب يربط باكستان بآسيا الوسطى عبر أفغانستان وتركمانيا، كما أبرمت الأخيرة مع حركة طالبان اتفاقاً لتزويدها بإمدادات الطاقة. وطوال الدوام الطالباني كان صراع شركات الطاقة الأمريكية والأوربية والصينية والخليجية والأرجنتينية على مد مثل هذه الخطوط، موجهاً رئيسيًا لسياسة تركمانيا تجاه الجنوب الأفغاني.

اضطلعت عشق أباد بدور مزدوج –كعرَّاب ثانٍ بعد باكستان– لصالح طالبان؛ فاستضافت منذ مطلع 1999 محادثات المصالحة بين القوى الأفغانية لأكثر من مرة، وسعت حثيثًا لحسم هذا الصراع السلبي بالنسبة لها.

ومن ناحية أخري حاولت القيام بدور الوسيط فيما بين طالبان ودول آسيا؛ إذ حمل شيخ بوريس مرادف المبعوث الخاص للرئيس التركماني وزير الخارجية (السابق) إلى دول الجوار الكبرى والمتوسطة رسالة مفادها أن طالبان أصبحت حقيقة سياسية لا يمكن تجاوزها، وذلك منذ سبتمبر2000 [54] حققت هذه التحركات مردوداً إيجابياً؛ إذ انتقل الموقف الأوزبكي المتشدد –على سبيل المثال– من جانب التهديد بشن غارات جوية بالتعاون مع روسيا ضد أهداف في أفغانستان (صيف نفس العام) إلى جانبٍ يصرح فيه الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف بأن أوزباكستان لم تعد تنظر إلى طالبان على أنها مصدر تهديد وقلق، وأنها تتطلع إلى تعاون تجاري في المنطقة[55]. بل إن الدولتين – ترتيباً على ذلك– تعمدتا الغياب عن قمة روسيا ودول وسط آسيا (أكتوبر 2000) والتي سعت إلى اتخاذ استراتيجية أمنية موحدة ضد الأخطار التي قد تنجم عن اكتمال الهيمنة الطالبانية على أفغانستان، والبحث في طرق مكافحة الإرهاب القادم من أفغانستان –حسب بيان القمة[56].

وإجمالاً، فإن باكستان وتركمانستان مثَّلتا حالتين من **"الاستثناء"** على مسار وتوجهات المحيط الأفغاني في التفاعل الإيجابي مع التجربة الطالبانية، بل الترويج لإيجابيات التعاطي معها، واحترام خصوصيتها.. إلا إن هذا الاستثناء ظل **"مضغوطاً"** من جانبين: من جانب حدود قدرات الدولتين على مساندة الحركة، وارتباطات كل منهما بدول الجوار وبالولايات المتحدة، الأمر الذي علق هذا التجاوب على ميزان المصلحة وبدائلها بالمفهوم البراجماتي، ومضغوطًا من جانب موجات الإثارة الطالبانية التي أورثت الدولتين هاجساً من احتمال الانكفاء على الظهر أمام إشكاليات التنامي الإسلامي وظاهرة العرب الأفغان والتحركات المضادة التي تتزايد حدتها باطراد.. فهل قرأ الطالبان والعرب الأفغان هذه الرسالة أو كانت لهم أي مساع لاستثمار بوادر المساندة هذه؟!

2) الرهاب الإسلامي: هلال شنغهاي– موسكو الإقليمي والتعبئة الدولية ضد أممية طالبان

قبيل وقائع الـ 11 سبتمبر 2001 بنحو الخمسين يوماً كتب الجنرال المتقاعد الرئيس السابق لدائرة الشرق الأوسط بجهاز الـ كي جي بي ألكسندر كوليك يقول:

"إن إدارة الرئيس جورج بوش الابن تستثمر ما أنجزته إدارة بل كلينتون ووزيرة الخارجية أولبرايت، وصارت لدى الإدارة الحالية قاعدة جدية لاستثمار الوضع القائم في العالم، وفي آسيا الوسطى ومن حول أفغانستان تحديداً" [57].

بإضافة هذه الملاحظة إلى حقيقة تفاقم الصحوة الإسلامية في هذه المنطقة المحيطة بأفغانستان شرقاً وشمالاً وغرباً، سواء في مواجهة أنظمة الحكم في جمهوريات طاجيكستان وأوزباكستان (المتاخمتين) أو قيرغيزيا وقازاقستان، أو ضد أنظمة غير مسلحة يراها البعض حكومات احتلال، كما هو الحال في الصين وروسيا والهند يتبين تضافر شبكة من العوامل الذاتية (الإقليمية) والخارجية (الدولية): المفردة والمركبة، دفعت باتجاه حصار طالبان، والسعي للقضاء على فاعليتها وامتداداتها عبر المنطقة

فعلى صعيد **التجارب الذاتية المفردة** شهدت الجمهوريات الأربع في آسيا الوسطى المذكورة آنفاً دوامة عاصفة من الصراع العنيف مع التيار الإسلامي الثوري، الأمر الذي تباينت درجته من حالة إلى أخرى. ففي **طاجيكستان** تزامنت التجربة الطالبانية إبان رسوها مع تراجع رحمانوف وحلفائه (العسكريين الروس) أمام تقدم الحركة الإسلامية الطاجيكية عقب حرب طاحنة دامت ست سنوات بإبرام **"وفاق وطني"** مع حزب النهضة الإسلامية بزعامة سعيد عبد الله نوري (صيف 1997) في ذات العام الذي بلغ التوجه الإسلامي أشده أمام إسلام كريموف؛ إذ شنت **"الحركة الإسلامية" في أوزباكستان (IMU) هجماتها المسلحة ضد الحزب الشيوعي الحاكم رداً على محاولات حظر الحجاب ومنع أذان الصلاة**[58].

ومن الجدير بالملاحظة أن هاتين الدولتين المشتعلتين تقعان على الحدود المباشرة لأفغانستان؛ ومن ثم كانتا الأكثر مناوأة للحركة عبر كيل التهم بمؤازرة المعارضة الداخلية بكل منهما، وعن طريق توفيرهما الدعم للمعارضة الأفغانية الشمالية (أحمد شاه مسعود الطاجيكي ودوستم الأوزبكي سواء بالأصالة، أو بالنيابة عن روسيا.

على الجانب الآخر، تبدو **كازاخستان وقيرغيزيا** أقل حدة، في ضوء مشاغل الداخل من تداعيات الموازييك الديمغرافي في الأولى، والسعي لضبط وتيرة التحول الديمقراطي في الثانية، وفي ضوء محاولات تحدي النفوذ الروسي سيما من قبل الرئيس القازاقي نور سلطان نزار بابيف، ومع ذلك فإن الدولتين لم تعدما دوراً دعائياً تمويلياً إزاء الخطر الإسلامي في وادي **"فرغانة"**، ومن ثم ركوب موجة توجيه الاتهامات لطالبان والمقاتلين الشيشان بالوقوف وراء التنامي الإسلامي عبر الحدود[59]، بل كانت الدولتان الأكثر ضلوعاً في الترتيبات **الجماعية** ضد الإسلاميين.

وتواصلاً مع التجارب **الذاتية المفردة**، واجهت القوى الإقليمية الكبرى الثلاث تحديات إسلامية مقاربة مع الفارق؛ ففي **الصين**، تمكن الإيجور المسلمون في سينكيانج أو تركستان الشرقية من تجاوز موقف الممانعة الثقافية ضد عمليات السلخ وإعادة التوطين إلى الدخول في صدام مسلح مع الحكم الصيني، ومواجهة عمليات الاغتيال والإعدام بالجملة من قبل الشرطة (مائتا قيادي وخمسة عام 1999)، مستفيدين من الخط الحدودي مع طالبان (70-100ميل) والتي رفضت تسليم اللائذين منهم بناء على طلب الحكومة الصينية، متذرعة بضرورة تقديم الأدلة على تورطهم في أعمال غير قانونية[60].

يكتمل الهلال الإقليمي الأمني المضاد لطالبان والمد الإسلامي بدولتين هما الأشد عداوة وضراوة؛ إذ تشتمل كل منهما على أقلية مسلمة ذات بال وصراع عنيف، ممتد على مناطق تزعم كل منهما أحقيتها بها دون مسلميها. في كلتا الحالتين **الروسية والهندية** أعلنت طالبان مناصرتها للمقاتلين الاستقلاليين في داغستان والشيشان وفي كشمير، لتمتد جبهة المواجهة بالدعم المتبادل للمعارضين.

ففي وقت مبكر يعلن الملا محمد قاسم (مسئول حركة طالبان في الجزء الكشميري المحكوم من **الهند**) أن حكومة طالبان في كابول **"موجودة"** في المنطقة لنصرة الثوار

المسلمين الاستقلاليين في "**تكثيف**" حرب العصابات ضد القوات الهندية للاستيلاء على عموم وادي كشمير، في تأكيد للاتهام الهندي الرائج ساعتها[61]. ومن ثم، لم تتوانَ حكومة نيودلهي عن دعم قوات المعارضة الشمالية في أفغانستان سياسياً وعسكرياً، بل إن هذا البعد تجلى في مطلع العام 2001 بتجمع ثلاثين حزباً وجماعة إسلامية في باكستان في مؤتمر دعا فيه "**حافظ محمد سعيد**" زعيم جماعة (العسكر الطيبة) الكشميرية إلى الجهاد "**لمواجهة العقوبات المفروضة على أفغانستان**"، وذلك في أتون أزمة تماثيل بوذا السابقة الإشارة إليها.

تتصور الإدارة **الروسية** طالبان والإسلاميين "**عفريتاً أطلق من القمقم**" على حد تعبر فيكتور بوسوفاليوك نائب وزير الخارجية الروسي. وبأنها "**تنغمر في لجة التعصب والغلو وإراقة الدماء والعداء الإثني**"[62]، فقد حملت روسيا على عاتقها قيادة "**التجربة الجماعية**" من خلال اشتراكها في مجموعة شنغهاي وعلاقاتها الثنائية مع بقية **الهلال**، وبالتحديد **الهند وإيران**.

وأثراً عن هذه التجارب **المفردة** تشكل مع مطلع التجربة الطالبانية تركيب إقليمي عرف بـ "**خماسي شنغهاي Shanghai Five**" عام 1996، ثم أضحى -عقب انضمام أوزباكستان بصفة رقيب- يعرف بمنظمة شنغهاي المتحدة **(sco)**، ضاماً كافة الدول الست السابقة (عدا إيران والهند)، مصرحًا بأن مهمته الرئيسة تنصب على تعزيز إجراءات الثقة في المناطق الحدودية خاصة مع الصين، وتوثيق التعاون الاقتصادي، ثم مواجهة الأخطار المشتركة، الأمر الذي لم يلبث أن طغى عليه المحور الأخير (**الأمن**)، إبان الصعود الطالباني الأخير والتصعيد الأمريكي ضد الحركة وضيوفها على خلفية تفجير السفارتين (أغسطس 98) إلى جرى عقد اتفاق بين دول المنظمة يحدد "**العدو والخطر**" في ثالوث الشر: (**الإرهاب الدولي، التطرف الديني، النزعات الانفصالية**)؛ وذلك خلال القمة الرابعة في "**بيتشكيك**" عاصمة قيرغيزيا (أغسطس 1999) بما أسفر عن تشكيل هيكل إقليمي – عبارة عن قوة مجهزة متعددة الأطراف بمكافحة الإرهاب– وذلك تزامنًا أيضاً مع التهاب الموقف في الإيجور وداغستان والشيشان ووادي "**فرغانة**"[63].

ومن خلال تحليل البيانين الختاميين لمؤتمري القمة لمنتدى شنغهاي (دوشانبه 2000/7/5، وشنغهاي 2001/6/15) يمكن ملاحظة التطورات التالية[64]:

-جلاء الموقف المتشدد الذي يتزعمه الرئيس الروسي بوتين، وإشادته بانصراف المنتدى للاهتمام بالقضية الأمنية، ودعوته الآخرين للانضمام إليه، "**ضد الذين يستغلون شعار الدفاع عن الدين**".

- التأكيد على وحدة الأراضي الصينية (صين واحدة) ودعم الجهود الروسية في حل المسألة الشيشانية، المشار إليها بـ"**الإرهاب**"؛ الأمر الذي يحقق للدولتين الكبريين دعماً مزدوجاً، إزاء الحركات الانفصالية، وإزاء الضغوط الغربية، وبالأخص الأمريكية باسم حقوق الإنسان.

- تشديد لهجة الخطاب الموجه إلى طالبان، واعتبار الوضع الأفغاني يمثل تهديداً حقيقياً للأمن الإقليمي والعالمي.

- وأثناء مراسم التوقيع على البيان لختامي لقمة (شنغهاي 2001/6/15) حرص الرئيس القازاقي على التحذير من القوى الشريرة الثلاث (الإرهاب – التطرف– الانفصاليين) التي تصدر بالأساس عن أفغانستان.

- حرص الرئيس الصيني (زيمين) والروسي (بوتين) – والرفاق من بعد- على التعبير عن أن المشاكل الداخلية لبلدان المنتدى هي جزء لا يتجزأ من "**شبكة الإرهاب الدولي المتجذر كله في أفغانستان**".

ومما هو جدير بالذكر أن فشل الكريملين في تفعيل "**كومنولث الدول المستقلة** "كان أحد عوامل السعي لتضخيم

الأخطار، وإبراز عدو مشترك يهدد أمن آسيا الوسطى، وينذر بحروب وصراعات وبسيادة فواعل ظلامية متطرفة بما يمكِّن موسكو من لم شتات الدول المتمردة على نفوذها، وإذابة جبل الجليد بين روسيا الجديدة وبين القوي الكبرى كالصين والهند وإيران، وكذلك العمل لكسب ود الولايات المتحدة.

ومن هذه الزاوية جاء التحرك **الروسي** على جبهتي الهند وإيران، سعيًا وراء تضييق الخناق على طالبان، الأمر الذي أبرزته زيارة بوتين للهند (2 أكتوبر 2000) على رأس وفد ضخم ليوقع معاهدة الشراكة الاستراتيجية مع الهند متضمنة اتفاق تعاون استراتيجي سياسي– عسكري لمكافحة الإرهاب الذي أشار بوتين إلى أفغانستان كتجسيد له. لقد كان هذا العنصر الأكثر حيوية ضمن (14-16) معاهدة؛ إذ سرعان ما تشكلت "**مجموعة عمل**" عقدت اجتماعها الأول (2000/11/23) في نيودلهي، ولوحت بإمكانية تشديد نظام الحصار المفروض على أفغانستان [65].

لقد حال العداء التاريخي بين الصين والهند، دون ضم الأخيرة إلى منظمة شنغهاي المتحدة،ومن ثم اكتفت الدول بالضم غير المباشر للهند عبر روسيا، الأمر الذي لم يستوِ على سوقه إلا بالدور الخارجي المتمثل في اليد الأمريكية واليد الإسرائيلية في بناء الجدار المرصوص المناهض للأصولية الأممية الإسلامية.

وعلى الرغم من مساحات التقاطع التي قد تسفر عنها المقارنة الأولية بين النظامين الإيراني والطالباني سيما البادية في مظاهر الأصولية الإسلامية والخلاف الأمريكي المشترك ووصمة دعم الإرهاب، فقد غلب الخلاف السني-الشيعي على علاقات النظامين إلى الدرجة التي كادت تنشب فيها حرب بينهما على خلفية قتل الدبلوماسيين الإيرانيين في مزار الشريف، عقب استيلاء طالبان عليها (أغسطس 1998)، وادعاءات إيران حول مذابح طالبان في حق الطائفة الشيعية، الأمر الذي دأبت طالبان على نفيه كما أسلفنا. وعلى الرغم من حرص طهران على أن تبدو متمايزة في مناوأتها لطالبان (وهي تضخ السلاح والرجال في صمت نحو المعارضة الشمالية)، فإن روسيا (عرَّاب التحالف المناهض لطالبان) نجحت في اللعب بأوراق الخلاف الأمريكي الإيراني وإمدادات السلاح الروسي – بالأخص مفاعل "**بوشهر**" النووي الذي بدأت روسيا العمل فيه منذ العام 1996– وغير ذلك من الأوراق التي تبدو إيران دافعة –أكثر من كونها مدفوعة.

في غمار ذلك بدا أن **روسيا** نجحت في الضم غير المباشر لإيران إلى التحالف الهلالي المرتكز بالأساس في مجموعة شنغهاي؛ فيما عبرت عنه تصريحات الطرفين بتفاهمهما حول "**ضرورة مكافحة الإرهاب وتجارة المخدرات القادمة من أفغانستان**"، بل إن التقارب وصل إلى حد إعلان وزير الخارجية الإيراني (كمال خرازي) المحسوب على الجناح المحافظ ضمن النظام الإيراني أن إيران لا تندد بما تفعله القوات الحكومية الروسية في جمهورية الشيشان"[66].

والخلاصة أن رهابًا إسلامياً تربع في المدركات السياسية لدول الجوارين المباشر وغير المباشر المحيطة بأفغانستان، استنفر حشد جهود القوى الإقليمية الكبرى ضمن خطي "**منتدي شنغهاي**"والتربيطات الروسية ليتشكل حول طالبان هلال أو قوس إقليمي مناوئ عبرنا عنه بـ "**هلال شنغهاي– موسكو**" أعد الأرضية جيداً لمواقف هذه الدول إثر أحداث11 سبتمبر 2001.

إلا أن الإشارة إلى فاعليْن أساسييْن في دفع وتنشيط حبات العقد الإقليمي تعد ضرورة لاستكمال المشهد، خاصة إذا كان أحدهما يتمثل في **الولايات المتحدة** الفاعل الأول والأكبر في تداعيات الحادي عشر من سبتمبر، والثاني هو **إسرائيل** وامتداداتها اليهودية والتي تمثل –في خاصة رأي الباحث– ملاط الجدار المرصوص، ووقود المعركة التي اشتعلت مبكراً في مواجهة الأمة الإسلامية.

3) التحرك الأمريكي والإسرائيلي حول أفغانستان: تحالف مستور ضد أممية أصولية إسلامية

جرى استخلاص فكرتين في طيات البحث الآنف فيما يتعلق **بالتحرك الأمريكي**؛ إذ لوحظ تأرجح السياسة الأمريكية بين تضييق الخناق على طالبان وبين محاولات فتح قنوات التفاوض معها، على حين أشارت عبارة ألكسندر كوليك السالفة إلى إنجاز هذه الإدارة لقاعدة جدية من العمل في المنطقة وحول أفغانستان تحديداً. إن الجمع بين هاتين الخلاصتين على ما قد يبدو بينهما من تعارض ظاهري لا يعني سوى أن واشنطن -ومثلها إسرائيل- قد آثرت العمل من خلال الآخرين عملاً بالحكمة الأمريكية القديمة: **"دع الآسيويين يروضون الآسيويين"!**

ومما لا خلاف عليه أن الترتيبات الحصارية الإقليمية التي جرت حول أفغانستان والسابق الحديث عنها، حظيت بضوءٍ أخضر أمريكي؛ ففي أعقاب زيارة تمهيدية قام بها جورج تينيت مدير الـ **CIA** ولويس فريه مدير الـ **FBI** إلى قيرغيزيا وأوزباكستان وكازاخستان (نوفمبر 1999)، لا حاجة لبيان طبيعتها، جاءت زيارة وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت (أبريل 2000) إلى ذات الدول الثلاث، لتعلن بكل محطة عن تقديم الولايات المتحدة للدعم المالي والأمني لتعزيز قدرات هذه الدول في مواجهة **"الإرهاب"** وإيقاف مد **"الإسلام السياسي في المنطقة، مفتتحة مكتبًا للمباحث الفيدرالية في كازاخستان بحيث يخدم دول آسيا الوسطى"**[67].

يلاحظ أن هذه التحركات جاءت في أعقاب التصعيد بين واشنطن وطالبان على خلفية قضية ضرب السفارتين.. إلا إن الإدارة الكلنتية أخذت دفعة شديدة لتفعيل التحالف الإقليمي القائم إثر تفجير الفرقاطة **"كول"** في مياه عدن أكتوبر 2000؛ إذ اتفق الرئيسان الأمريكي والروسي -خلال اجتماعات، منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادي منتصف نوفمبر 2000 – على تكثيف الجهود لمواجهة الأصولية الإسلامية في آسيا الوسطى، وقطع مصادر التمويل عن طالبان وأسامة بن لادن، بل إن زيارة كلينتون إلى كل من الهند وباكستان مارس 2000 عُنون لها لم بعنوان **"الأمن قبل كل شئ"**[68].

إذا كانت الكثير من الحساسيات حَجَمت من كثافة الدور الأمريكي، فإن إسرائيل الحليف الاستراتيجي -وبطرائق خاصة- كانت أكثر نفاذاً وتنفيذاً للغايات المضادة للمد الإسلامي في المنطقة. فلا يخفي أن إسرائيل سعت مبكرًا إلى ولوج المنطقة عبر تركيا، إلا إن خطها المباشر غير الضوضائي كان أكثر فعالية بالنظر إلى امتداداتها اليهودية المنتشرة هناك، وقدرتها على اللعب بورقة **"المعبر"** إلى الدفء الأمريكي، علاوة على صلاتها الشخصية الظاهرة والمورَّاة بأكثر القيادات في هذه المنطقة.

التفاصيل يضيق بها هذا المجال؛ إذ تتعدد أوجه النشاط الإسرائيلي وآليات التحرك في كسب الولاءات واختراق الصفوف، والقفز على المحاور المختلفة وتشكيل الجبهات ضد الخصوم.. فيما يعرف باستراتيجية **"شد الأطراف"** التي أسسها ابن جوريون منذ الخمسينيات. ومن ثم يمكن رصد إشارات دالة حول الدور الإسرائيلي في تثبيت دعائم الهلال المذكور كما يلي:

- ففي روسيا وبالنظر إلى حاشية الرئيس بوتين ورجال الأعمال المحيطين به، يمكن فهم تصاعد النزعة المعادية للإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الروسية (الحكومية والخاصة) التي يستحوذ اليهود عليها، وحرصها الدائم على مطابقة الحالتين الشيشانية والفلسطينية أو ما سماه البعض بـ**"رش الملح على الجرح الشيشاني"**، حتى صار الكثيرون من المسئولين الروس يرددون صراحة أن **"خندقاً واحداً"** يضمهم والإسرائيليين في مواجهة **"التطرف الإسلامي"**[69].

وفي حديثه إلى قناة **O.R.T** من تل أبيب (القناة الأولى الروسية التي يمولها النائب البرلماني والملياردير اليهودي بوريس بيروزوفسكي) يؤكد وزير الداخلية الروسي فلاديمير روشايلو (2000/6/6) إمكانية القيام بعمليات

مشتركة بين الاستخبارات الروسية والموساد "**لمكافحة الإرهاب**"، والاستفادة من "**الخبرة الإسرائيلية الطويلة وإنشاء بنك معلومات وتبادل الخبرات ضد الجماعات الإرهابية**"[70].وأخيراً يلقي أفيجدور ليبرمان –رئيس حزب "**إسرائيل بيتا**" الجامع ليهود روسيا في إسرائيل– أثناء حوار له في موسكو (نوفمبر 200)، يلقي الضوء على مشروع إقامة "**ائتلاف**" يضم إسرائيل وروسيا وتركيا والهند –وربما الصين– لمواجهة أممية أصولية إسلامية، الأمر الذي صادق عليه رئيس الوزراء الروسي السابق يفجيني بريماكوف، إذ يدعو إلى "**استنفار جهود عالمية**" لمواجهة مثلث التطرف الذي تقع رؤوسه في أفغانستان والشيشان وكوسوفا [71].

وعلى الصعيد الصيني، فإن متانة العلاقات العسكرية والأمنية بين بكين وتل أبيب، والأنباء عن الدور الإسرائيلي في تعزيز الأمن الصيني تجاه مسلمي الإيجور، لم يعد خافياً.. بل إن التحذيرات الأمريكية راحت أدراج الرياح أمام الإصرار الإسرائيلي على بيع الصين تكنولوجيا عسكرية أمريكية متطورة؛ الأمر الذي تجلي بخصوص طائرة الاستطلاع طراز "**فالكون**" خلال النصف الأول من العام 2000[72]. إلا أن الطفرة الحقيقية تمثلت في الدرجة التي ارتقت إليها العلاقات الهندية الإسرائيلية. فالارتباط قديم بين الهندوس القوميين والصهانية، وإلحاحهم على إقامة علاقات مباشرة منذ الخمسينيات؛ الأمر الذي تحقق منذ العام 1992. هذا الارتباط أخذ دفعة قوية بوصول حزب بهارتيا جاناتا بزعامة فاجباي المعروف بميله الشديد لإسرائيل إلى الحكم عام 1998. ومن ثم لم يكن مستغرباً مد إسرائيل الهند باحتياجاتها من السلاح والخبرة إبان أزمة كارجيل صيف 1999، في ذات الوقت الذي ورد فيه أن خمسمائة يهودي هندي تم تهجيرهم إلى فلسطين[73]. إلا أن العامين 2000، 2001 شهدا تناميًا مطرداً غير مسبوق في علاقات الدولتين على المحور الأمني؛ إذ شكلتا "**مجموعة عمل لمحاربة الإرهاب**" عقب زيارة وزير الداخلية الهندي "**لال كيشان أدواني**" لتل أبيب مايو 2000، الشيء الذي جرى الإعلان عنه رسمياً في زيارة لاحقة لوزير الخارجية الهندي "**جاسوانت سينج**" لإسرائيل مطلع يوليو 2000؛ إذ دعا نظيره الإسرائيلي للتعاون الاستخباري والنووي "**لقيادة العالم في محاربة الإرهاب**"[74]، هذا إلى جانب التعاون المتواسع بين الدولتين في سائر المجالات حتى صارت إسرائيل تاسع مستثمر في الهند[75].

– وأخيراً، فقد كانت إسرائيل أسرع القافزين إلى دول آسيا الوسطى، لنقل علماء الاتحاد السوفيتي السابق إلى مصانعها العسكرية، والحيلولة دون وصول اليورانيوم المخصب الذي تمتلك قيرغيزيا وكازاخستان وطاجيكستان وأوزباكستان كميات غير قليلة منه وإمكانيات إنتاجه، دون وصوله إلى إيران أو باكستان أو العراق أو أي أيد مسلمة. وعليه نشطت إسرائيل – عبر الموساد والشركات والصلات الشخصية، ويهودها المنفرطين في هذه الجمهوريات– إلى احتواء المسارات المستقبلية لها عبر المشروعات المشتركة في كافة المجالات، بما أفضي إلى "**شراكات**"ثنائية لحصار الظاهرة الإسلامية والتهييج ضدها[76].

الخلاصة:

في مختتم هذا التمهيد، تتأكد المقولة الاستهلالية من أن التجربة الطالبانية وتعاطي دول الجوارين المباشر وغير المباشر معها إيجابا وسلباً كانت بمثابة إعداد المسرح لحادث جلل أو لانعطافة وعرة، وهذا ما كشفت عنه وقائع اليوم الأمريكي وتداعياته!!

أفغانستان والجوار وأزمة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001

السياسات.. الانعكاسات. الدلالات

بمجرد إعلان الإدارة الأمريكية أسامة بن لادن المشتبه به الأول فيما وقع صباح الثلاثاء 11 سبتمبر 2001، تحولت أنظار العالم كله من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، وانتقلت أفغانستان وجواراها المباشر وغير المباشر إلي بؤرة الاهتمام العالمى، وتبارت محاولات التفتيش

البحثي داخل خريطة القوى الفاعلة في المنطقة والمحددات والخلفيات الحاكمة لردود الأفعال، والانعكاسات المحتملة للتعاطي مع الأزمة. وترادفت السؤالات في أعقاب بعضها البعض كلما تقدمت الولايات المتحدة خطوة، بدءاً من السؤال: "**من؟**" الذي انقشع بالتحديد الأمريكي إلى السؤال: "**لماذا؟**" الذي استحال بكائية في بلدان الجنوب غشي عليها هدير الطائرات والمدمرات المتحركة.. إلى السؤال الذي بقي يتجدد ولا يتبدد: "**إلى أين؟ ماذا بعد؟**"

والحقيقة أن التحليل السابق -الذي هو أدنى إلى التذكرة وتجديد الوعي- أبان عن حالة على وشك الانفجار، وعلى استعداد للتحرك باتجاه مسمى لا يشتمل على الكثير من التنويعات المتمايزة، أو التحفظات ذات الأثر. وهذه هي الخلاصة التي نسعى لاختبارها برصد مواقف أو بالأحرى سياسات الأطراف الضالعة عبر الأزمة ومستجداتها؟ وانعكاسات هذه السياسات على الأزمة بنفسها وتطوراتها -ودلالات كل ذلك على المنطقة ومآلاتها.

ومن ثم يتخذ هذا المبحث منحىً تطورياً، يتابع المنطقة عبر مراحل ثلاث متتالية، تغطي الفترة من الحادي عشر من سبتمبر إلى الثاني والعشرين من ديسمبر للعام 2001

الجولة الأولي- من الترصد الإقليمي إلي مظاهرة التحالف الدولي

(9/11 - 2001/10/7)

جاء الانقلاب إلي الأمة الإسلامية - بعامة - وأفغانستان ودائرتيها المباشرة وغير المباشر مبكراً جداً ومتصاعد الحركة من يوم لآخر. فعشية وقوع الانفجارات في نيويورك واشنطن لوحظت أولى مساعي "**الإحالة**" التلقائية الممتزجة بنبرات الحفز والتهييج ضمن الخطاب اليهودي للمواساة والتضامن، سواء من شخصيات إسرائيلية أو أمريكية، وفي هذا تزامن أول تلويح من الرئيس الأمريكي بوش بذكر أفغانستان ابن لادن كمتهم محتمل (9/12) مع دعوة هنري كسينجر -وزير الخارجية الأمريكي الأسبق- إلى ضرب أفغانستان ابن لادن على غرار الرد الأمريكي على حادث بيرل هاربور 1941م.

تلك الإشارات والتلويحات استحالت تأكيدات رسمية وإرهاصات تحرك نحو المنطقة سراعاً؛ إذ صرح جون أشكروفت -وزير العدل الأمريكي- لمحطة **CNN** أن الأدلة "**الأكثر جدية**" تقود إلى أسامة بن لادن الذي يعيش في أفغانستان، للشيء الذي صادق عليه وزير الخارجية كولين باول ذات اليوم (9/13) مضيفاً أن محادثات أمريكية مع باكستان تجرى بشأن "**الرجل**" الذي ترى فيه واشنطن عدوها الأول في عالم ما بعد الحرب الباردة.

وهكذا، وعبر قفزات واسعة شهدت الأيام القلائل عقب الحادي عشر من سبتمبر انتقال مجرى الأمور ومدار الجدل العالمي من استهوال ما وقع إلى استشراف ما سيقع، فيما عرَّفته واشنطن بـ"**الحرب**" على عدو هلامي الذات فضفاض الصفات ذي تسميات متعددة انتهت إلى اصطلاح "**الإرهاب**" الذي جرى تغليب استعماله لما يحتمله من بُعد عنيف يتواءم مع غاية الرد العسكري التي اعتمدتها الإدارة الأمريكية منذ اليوم الأول. وعليه، فإن حشوداً متتابعة من الرسائل الخطابية، وحزماً من القرارات والخطط والتحركات الفعلية المتنوعة نيط بها إعداد أرضية موائمة للتعاطي الاستراتيجي مع ما بدا عالماً جديداً، غلب على جمهور المراقبين تعريفة بـ "**عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر**"، والذي تعد هذه الجولة بسياساتها وانعكاساتها حجر الأساس في تشكيل هيكله وآلياته وعملياته وفواعله وقضاياه، وفي الكشف عن حقيقة مستجداته سيما فيما يتعلق بموضع الأمة الإسلامية منه!

ومن ثم، يدور هذا الجزء من التقرير حول سؤال "**الكيفية**" التي رتبت بها الأطراف المعنية في الداخل الأفغاني والجوارين أوراقها وحساباتها للإجابة عن السؤال البلاء: أين تقف؟ أو على النحو الذي فرضه به الرئيس الأمريكي: "**معنا أم مع الإرهاب**"؟ وما وراء هذا السؤال هو رصد الطريقة التي تتفاعل بها أطراف الداخل الإسلامي وأطراف الخارج مع قضايا الأمة التي تبدو مصيرية.

أولاً– الداخل الأفغاني: طالبان والمعارضة الأفغانية

1. طالبان: بين إباء المبدإ ومحاولات إرجاء الحرب

لاشك أن لحظة الإدراك الطالباني الأولى للموقف تجاذبتها قوتان متعارضتان: قوة سكونية –أو قل: قوة سَكينة– تدفع باتجاه الاستماتة علي المبدأ المشهر منذ بدء التجربة الطالبانية 1996في وجه المطالب الأمريكية بتسليم ابن لادن، والتي ترتكن علي سبق التردد الأمريكي المشار إليه من قبل. وقوة أخرى حراكية تدفع نحو مزيد من التحفز والتعبير عن قدر كبير من الجدية، وربما الإشفاق من التورط في معركة غير محسوبة العواقب، يتعرض فيها وجود الحركة ومصيرها لاحتمالات الزوال. لقد تبدى ذلك عاجلاً في نفي سفير الحركة بباكستان –عبد السلام ضعيف– في ذات اليوم المشهود (9/11) لأي صلة للحركة وابن لادن بالأحداث متعللاً بأن الأخير مقيد الحركة والاتصالات، وأنه والحركة ليسا بهذا المستوي، حتى لو أرادا ذلك[77].

وفي ضوء الحصار الذي تعرضت له الحركة على مدار الفترة السالفة واقتصار تعاملاتها الدبلوماسية والاقتصادية على باكستان من الناحية ذات الاعتبار، فإن آليات تعاطي الحركة مع الأزمة المتصاعدة تكاد تكون اقتصرت على أداة "**الخطاب**" الذي بدا مأزوماً مشدوداً بين تبريرات المبدأ الذي تستميت الحركة عليه، والسابق التنويه به، وبين محاولات تجنب الآثار السلبية لما حسبته في المبتدأ "**ضربة عابرة**" ثم استبانت عن قرب أنه "**حرب شاملة طويلة**..."، وفيما بين هذين الطرفين اشتمل الخطاب على جمل ردع للكافة في الداخل والخارج. على الجانب الآخر غير الخطابي وعلي ضوء الإيماءات المرسلة وتظاهر أكثر الأطراف الإقليمية لتشييد التحالف ضد الحركة، جرت تحركات ضئيلة إلى أن انقطع خيط وصل الحركة مع باكستان، فلم يعد سوى التحركات العسكرية في الداخل استعداداً لأمر بات مقدوراً.

كذا يلاحظ أن الخطاب الطالباني على الرغم من سمة التردد فيه والممازجة بين الحدة والتجاوب النسبي، فإن جرعة التشدد والتحدي وعبارات الردع فيه تزايدت كلما تكشفت أبعاد النوايا الحقيقية لواشنطن، والتي تدرجت بدورها من مطلب التسليم المنصب فقط علي ابن لادن إلى طلب إغلاق المعسكرات؛ فإرهاصات ثم تأكيدات مسعى إسقاط الحركة نفسها وإحلال نظام "**موائم**" محلها.

فخلال الأسبوع الأول، تجلت هذه الحالة المترددة من خلال موجة تحد وردع تلقائية؛ إذ هدد ضعيف في

اليوم التالي لتصريحه المتبرئ (9/12) بأن أي تفكير أمريكي في توجيه ضربات سيكون خطئًا تتحمل واشنطن عواقبه. ويتوعد متحدث باسم الملا عمر في اليوم الثالث بـ"**الانتقام**"، ثم يصدر الملا عمر نفسه بيانًا في الوكالة الأفغانية (9/15) -رداً على إعلان بوش أن ابن لادن هو المشتبه الأول، وتصريح برويز مشرف بموافقة جيشه على استخدام الأمريكان للمجال الجوي الباكستاني- فيعلن عمر رفضه البات تسليم ابن لادن، وأنه سيقاتل "**حتى الموت**"، داعياً العالم الإسلامي إلى تحالف مضاد للتحالف الدولي الآخذ في التشكل[78].

وفيما يبدو فإن مسئولي طالبان تلقوا دفعة معنوية للمضي في مسار التحدي والإباء على خلفية اندلاع التظاهرات المتضامنة مع موقفهم، وتلك الرافضة للحرب عامة والتي شهدتها معظم دول العالم بما فيها أوروبا والولايات المتحدة، والتي بدأت في باكستان مبكرة عقب صلاة الجمعة (9/14). فقد راح الملا عمر في بيان لاحق يذكّر الولايات المتحدة ويتوعدها بأنها ستكون "**الإمبراطورية الثالثة**" التي تنكسر علي الأعتاب الأفغانية بعد بريطانيا والسوفيت، بل وتوعد دول الجوار برد عنيف في حالة إعانة الأمريكان على الحرب ضد نظامه[79].

إلا أن موجة التحدي التلقائية هذه أعقبتها في نهاية الأسبوع الأول إضافة عنصر "**التبرير**" و"**الحوارية**" على الخطاب الطالباني، بالتساؤل حول "**الأدلة**"، وتعليل الرفض بالتقاليد الأفغانية والإسلامية، وأن تسليم المتهمين لا يكون بمجرد "**الاشتباه الأمريكي**"، بل أتاحت الحركة -في خضم ذلك- لابن لادن أن يصدر بياناً (9/16) ينفي فيه أي صلة له بالتفجيرات، مشيراً إلى كثرة أعداء الولايات المتحدة: "**إنني أعيش في إمارة أفغانستان الإسلامية، وقد بايعت أمير المؤمنين على السمع والطاعة في جميع الأمور، وهو لا يأذن لي بالقيام بمثل هذه الأعمال من أفغانستان**"[80]. شهد الأسبوع التالي مزيداً من تدفق القوات والأسلحة والمدمرات، وبدايات تأسيس القواعد الجوية الأمريكية بدول الجوار، وتحول الدفة عن "**ابن لادن**" منفردًا إلى طالبان أيضًا على ما جاء في تحذير الرئيس الأمريكي (9/17): "**إن طالبان ستعتبر مسئولة عن توفير ملاذ آمن لابن لادن،.. إنه يجب أن تأخذ طالبان هذا التحذير علي محمل الجد**"[81]، ثم توقيع بوش قرار الحربً (9/19) وسط تصريحات رسمية متكاثرة بأن الحرب ستستهدف الدولة التي تؤوي ابن لادن. هذا الأسبوع شهد كذلك تحولاً نوعياً على السياسة الطالبانية، تمثل في وضوح حالة الحرص على تفادي أو إرجاء الخطر المحدِّق.

ففي نبرة جديدة فعلاً، أعلنت طالبان عن استعدادها للتفاوض حول تسليم ابن لادن، وأنها لا تستبعد احتمال تورطه. وجاء على لسان وزير الإعلام -قدرة الله جمال- (9/19) أن "**أي شخص مسئول عن ارتكاب هذا العمل فإن طالبان لن تدافع عنه، كان هذا الشخص أسامة أم غيره**"، الأمر الذي صادق عليه بيان للملا عمر في ذات اليوم؛ مصرحاً باستعداده لإجراء مثل هذه المفاوضات في الحال[82].

وعلى الرغم من مواجهة واشنطن لهذا التحول بحائط صد عليه شعار بوش "**إن الوقت قد حان للتحرك وليس للتفاوض**"[83]، فإن طالبان واصلت تفعيلها لمحاولات التبريد هذه، فوافق الملا عمر على استقبال وفد باكستاني يحمل رسالة تحذير وإثناء من قبل الجنرال مشرف، فيما يبدو أنه كان يكرر المطالب الأمريكية و لم يلتفت إلى المبدأ الطالباني وتبريراته، فعاد الوفد (9/20) كما ذهب.

إلا أنه ما كاد يُعلن عن فشل مهمة الوفد الباكستاني، حتى أقدمت طالبان على خطوة عاجلة ذات مرام؛ إذ دعا زعيم الحركة إلى عقد ما أطلق عليه "**مجلس علماء أفغانستان**" لاتخاذ قرار بشأن المسألة الراهنة. قصدت هذه الخطوة -من جانب- إلى التصديق على موقف الحركة أمام سائر صفوفها، وإلى تعبئة قوى الداخل المترددة خلفها من جانب ثان، علاوة على التواصل مع فتاوى وتظاهرات الخارج الإسلامي التي دعا بعضها للجهاد إلى

جوار الحركة؛ الأمر الذي انتهي بإلقاء الكرة في ملعب ابن لادن: "**غادر أفغانستان بإرادتك إن شئت**"، ثم حسمه الملا عمر بإعلان تمسكه المبدئي بالرجل: "**إن ابن لادن سيكون آخر شخص يغادر أفغانستان حياً أو ميتاً**"[84].

وسعياً نحو استكمال صفها السياسي أعادت طالبان مناشدة منظمة المؤتمر الإسلامي والبلدان الإسلامية مساعدتها حال تعرضها للهجوم؛ حيث طالب الملا عمر باستراتيجية مشتركة: "**إننا يجب أن نتحد ضد أعدائنا الذين يريدون أن يسحقونا لأننا مسلمون**"[85]، الأمر الذي لم يلقَ أي صدي؛ إذ كان الجميع منشغلين بتحرير إجاباتهم عن السؤال البلاء الذي أعلنه بوش في خطابه (9/21):"**إما أن تكونوا معنا أو مع الإرهاب**".. بما يعني أن الخطاب الأمريكي نجح في جذب الآذان والأذهان –كعادته أو كعادة متلقيه!

وكما جاء التحذير الأمريكي المباشر لطالبان (9/17) بداية لخط التهدئة في السياسة الطالبانية؛ فقد جاء خطاب بوش أمام الجلسة المشتركة لمجلسي الكونجرس الأمريكي (9/21) دافعاً لخط آخر موازٍ – وليس بديلاً – من إبداء التحدي؛ إذ اشتمل خطاب بوش على مراسيم كبرى حادة منها:

* ضرورة تسليم طالبان – ليس لابن لادن وحده– إنما لكافة المنظمات (الإرهابية) التي تنطلق من أرضها.

* تحذير حكومات العالم بالشعار المذكور أعلاه: "**معنا أو...**"

* ألها مطالب غير قابلة للتعارض أو المناقشة.

* إعلان الحرب الجديدة التي تُلاحَق فيها أي أمة أو دولة تقدم دعماً للإرهابيين.

* إعطاء "**الإسلام**" نفسه تأويلاً يبدو فيه الإرهابيون –كما يعرفهم بوش– "**خونة يريدون اختطاف الإسلام**"[86].

ترجمت طالبان هذا الخطاب بأنه تحول إلى الإصرار الأمريكي الذي لا رجعة فيه عن خوض الحرب؛ فأزاحت خطاب المهادنة شيئاً ما أو شاكلت عليه؛ ليعلن عبد السلام ضعيف استعداد الحركة لإعلان الجهاد على كل من يهين الإسلام، معتبراً أن تسليم ابن لادن إهانة للإسلام والشريعة[87]. ومن الواضح أن غاية "**إسقاط طالبان وإحلال نظام آخر محلها**" لم يكن قد استقر الرأي عليها في ترتيبات الإدارة الأمريكية، الأمر الذي تواترت التلميحات والتصريحات من المسئولين الأمريكيين والأوربيين عليه: فبوش يريد ابن لادن حياً أو ميتاً، "**وأن لا تفكير لدى إدارته بشأن نظام الحكم في أفغانستان**"، ويؤكد وزير دفاعه نفس الأمر، بل ويقترح كولين باول عشية خطاب بوش الأخير محاكمة ابن لادن خارج الولايات المتحدة[88]، لكن نهاية الأسبوع الثاني حملت بوادر هذا الفكر خاصة عبر الاتصالات الأمريكية والأوربية والإقليمية الواصلة بين أجنحة المعارضة الأفغانية في الداخل والخارج.

إزاء ذلك تحركت طالبان، فأعلنت حظراً جوياً علي أثره أسقطت طائرة تجسس أمريكية في إقليم سمنجان الشمالي (9/22)، ودفعت نحو (25-30) ألف مقاتل إلى الجبهة الشرقية؛ حيث حدودها مع باكستان التي مضت في سبيل دعم التحرك الأمريكي، ونحو الشمال؛ حيث خط المواجهة مع المعارضة الشمالية سيما على حدودها الأوزبكية، وانطلق خطابها التحذيري إلى كافة أطراف المنطقة.

وجه وكيل أحمد متوكل –وزير الخارجية– رسالة تحذير قاسية إلي نظيره الأوزبكي فيها على اتخاذ "**قرار حكيم**" لصالح المنطقة؛ محذراً من "**أن الشعب الأوزبكي سوف يخبر حكومته لكي تنأى بنفسها عن مثل هذه الحرب التي لن يكون من السهل عليها الخروج منها.. لقد أُسقطتَ الطائرة الأمريكية، وسوف يكون هذا هو قدر كل المعتدين**"[89]؛ حيث كانت الطائرة قد خرجت من الأجواء الأوزبكية. وبالمثل راح الملا عمر يرسل النداءات متعددة الوجهات: لطمأنة الداخل ودعوة الأفغان للعودة إلى بيوتهم وأن يمارسوا حياتهم الطبيعية، ولردع الخارج والتأثير فيه حين حذر الشعب الأمريكي بأنه لن يكون بمنأى عن النار التي تسعرها إدارته،

ثم راح يسلط جام غضبه على المعارضة سيما "**الملك**" الذي يحلم بالعودة على "**أسنة رماح الأمريكان**" على حد قوله محذراً إياه من نفس مصير الشيوعيين من قبل[90].

وأمام تزايد الضغوط علي الحركة جراء بدء تحرك المعارضة الشمالية منذ نهاية الأسبوع الأول، ثم قطع الإمارات علاقاتها الدبلوماسية مع الحركة اعتبارًا من السبت (9/22) على أساس عدم تجاوب الحركة مع مطالب المجتمع الدولي ممثلاً في مجلس الأمن، كررت طالبان نفسها بخطاب يمزج التحدي بمحاولات تفادي الحرب؛ إذ تتابعت نداءات وزارة الخارجية الطالبانية إلى الأمين العام بالأمم المتحدة وإلى البلدان الإسلامية لإيقاف الإرهاب الأمريكي، وإلي الشعب الأمريكي على النحو السابقة الإشارة إليه.

وإذ أدركت الحركة أن هدف إسقاطها أضحى موثوقاً منه، سعت إلى تدويل قضيتها وإظهارها حرباً على الإسلام نفسه؛ لإبعاد الدقة عنها وفصم نفسها عن ابن لادن، أو سحب آخرين إلى معركتها؛ إذ صدر بيان نسب إلى الملا محمد عمر يتضمن شروطاً تعجيزية لقبول الحركة تسليم قيادات تنظيم القاعدة، ومنها: سحب الولايات المتحدة قواتها من الخليج، ووضع حد لانحيازها الواضح لإسرائيل، ووقف تدخلها في شئون الإسلام، "**إذا لم يفعل الأمريكيون ذلك فإنهم سيتورطون في حرب دامية ستحرقهم هم وغيرهم دون جدوى**"؛ معرباً عن إدراك الحركة مقصود التحالف من إزالة النظام الإسلامي ووضع حكومة موالية في أفغانستان [91]

ودون أن تقطع وتيرة المزاوجة بين خطابي الإباء والإرجاء، ومحاولة إبقاء كافة النوافذ مفتوحة أمامها، مضت طالبان تعزز من دفاعاتها حول المدن الرئيسة وعلى الجبهات المختلفة، معلنة قيامها بإعداد وتسليح أكثر من مائة ألف شخص، وأن أربعين ألفاً بايعوا القائد الأعلى للحركة على الموت جهاداً ودفاعاً عن "**إيمانهم**" [92]؛ بما يعبر عن تحول الحركة إلى حالة التعبئة الحقيقية للحرب واستنفار وحشد كل قواها التي تتمثل أساساً في "**الأفراد المتحمّسين**"؛ وبما يعني كذلك ارتكاز الاستراتيجية العسكرية لطالبان على الحرب البرية بالأساس، وحرب المشاة والجبال بصفة أكثر تحديداً.

جاء الأسبوع الثالث بمزيد من تعقيد الموقف وتأزيمه أمام طالبان، فقد بدت محاولاتها الواهنة للردع أو الإرجاء تذروها الرياح في ظل تعاقب إعلانات كافة دول الجوار المباشر وغير المباشر بقبولها- وأحياناً بحماس زائد إلى درجة الطلب والاستعجال- للتعاون مع الولايات المتحدة والناتو في العملية العسكرية التي باتت وشيكة؛ الأمر الذي انعكس عاجلاً في إعلان قوات التحالف الأفغاني في الشمال عن تحقيقها نجاحات على الأرض، وفي تزاحم الأنباء والتحركات والتصريحات سيما في الجناح الخارجي السياسي المناهض للحركة من مركزه في روما حول "**البديل**"، والاتصالات السرية والمعلنة بين الجناحين والمدعومة من الكافة والتي تكللت بالتقاء وفدين من الجانبين في روما (9/23،24) ثم باجتماع رباني مع الأمريكيين في طاجيكستان في نفس الوقت بما أعطى تقديراً بأن كافة الغرماء السابقين قد اجتمعت كلمتهم- لأول مرة وبصورة غير مسبوقة-على شئ واحد هو الإطاحة بطالبان!!

وفي حين راح أعداء الحركة يتكاثرون ويتحازبون ويتواصون ويتحركون ضدها، فإن البقية شرعت تتبرأ منها وتهرول بعيداً عنها وتوصد أمامها آخر أبواب الارتباط الرسمي بالخارج. فلحاقاً بالتخلي الإماراتي (9/22) المشار إليه عالياً، أعلنت العربية السعودية (9/25) قطع كافة علاقاتها بطالبان على أساس أنها جعلت "**أرض أفغانستان مركزاً لاستقطاب وتدريب المغرر بهم خاصة من مواطني السعودية نفسها مع استمرار رفضها تسليم هؤلاء المجرمين للعدالة**" [93]!! لتأتي الضربة الأشد بإغلاق باكستان سفارتها في كابول وقنصلياتها في سائر المدن الأفغانية وإن أعلنت أنها مجرد تدابير احتياطية وليست قطعاً للعلاقات الدبلوماسية، الأمر

الذي علق البعض عليه بأنه يعني أن إسلام أباد علمت بتوقيت الهجوم الأمريكي على أفغانستان [94].

في ظلال هذه الأجواء الملبَّدة بالغيوم، بدا أن الاستجابة الطالبانية الخطابية بالأساس كانت في سبيلها للتململ، إلا أن الحركة حرصت على استمرار الإعلان عن موقفها وإن كان بلهجة أقل مثلاً إلى صحيفة الأمة الباكستانية (9/28) إجابات نسبت لأسامة بن لادن نفى فيها أي علاقة له بتفجيرات (9/11) محولاً الاتهام إلى الداخل الأمريكي وإلى الاستخبارات الأمريكية أو المنظمات اليهودية المتطرفة التي تبغي إيقاع الفتنة بين الإسلام والمسيحية: "**أنا لا أكذب، فلم أكن على علم بهذه الانفجارات، ولا أؤيد قتل الأبرياء، وربما كانت تلك الهجمات نتيجة لعنة صبَّها الله على أمريكا بعدما ارتكبته بحق الرجال والنساء والأطفال من ديانات أخرى، خاصة المسلمين..نحن لسنا أعداء للمواطنين الأمريكيين أو الولايات المتحدة نفسها، ولكننا أعداء هذا النظام الذي جعل الدول الصغرى تحت عبودية أمريكا..هذا النظام الذي يديره اليهود ويمتثل إليه الأمريكيون دون وعي منهم..في الحقيقة كان يجب أن تكون هذه الانفجارات ضد إسرائيل وليس أمريكا**"، بل إن ابن لادن ألمح إلى عدم استيائه من موقف الدول الإسلامية الداعم لشن هجوم أمريكي على أفغانستان باعتبارها "**مجبرة**" على الإذعان..[95].

لم يقف الأمر عند الحد الذي يقدم فيه أسامة بن لادن هذه الرؤية المخالفة صراحة لما سبق أن أعلنه في بيانات الجهاد-سيما أنه منذ العام 1998 أبان تشكيل الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين- بما يشير إلى محاولة شبة أخيرة لتحريك الموقف المأزوم في أي اتجاه أياً ما كان، بل إنه في الوقت الذي جاءت فيه تصريحات الرئيس الأمريكي حول وجود قوات أمريكية تطارد الإرهابيين داخل أفغانستان وتكرار رفضه أي تفاوض مع طالبان:"**لقد سمعوا ما قلته وعليهم التحرك الآن**" مشيراً إلى تعاظم هدفه فوق مجرد القبض على ابن لادن[96]، ومع الإدراك الطالباني لذلك،حين نوهت الحركة بالمشاورات الدائرة بين وزارة الدفاع الأمريكية وتحالف الشمال المعارض للإطاحة بها والارتقاء بسقف التعاون من مجرد النصح ومناقشة الخطط إلى بدء عملية التسليح الفعلية عبر دول الجوار الأفغاني سيما روسيا التي صرَّح رئيسها بذلك فعلاً [97]، على الرغم من ذلك جاء رد الملا عمر على النوايا الأمريكية المشار إليها هادئاً مستبعداً قيام الولايات المتحدة بهجوم في جملة غير واضحة المغزى: "**لأن الولايات المتحدة لا تمتلك أي سبب الهجوم**" مع استمرار توجيه التحذير بشدة للقوى التي تساعد أمريكا من الداخل والخارج بأنه سيعتبرها "**دولاً عدوّة**"[98].

وتواصلاً مع محاولات التعلق بأي قشة، اعتقلت الحركة (9/28) صحافية بريطانية تدعى إيفون ريدلي تعمل بصحيفة الصنداي إكسبريس على بعد (15) كم من الحدود الباكستانية وهي ترتدي الشادور (البرقع الأفغاني)، وإذ نشرت وسائل الإعلام أن الصحافية هذه متزوجة من إيلان هرموش اليهودي الإسرائيلي- العراقي الأصل- العامل بالجيش الإسرائيلي وجدت الحركة الفرصة في محاولة دس أنف إسرائيل في الأمر مما دفع كولن باول إلى إعلان أنه لا وجود لأي مشاركة إسرائيلية في حملة تكوين التحالف الدولي لمكافحة الإرهاب حتى لا تقع النظم الإسلامية في "**الحرج البالغ**" إذا وجدت نفسها مع إسرائيل في خندق واحد-على حد تعبيره [99].

وكما سبق أن أشرنا، فإن الولايات المتحدة ودول الجوار الساعية لاقتناص الفرصة نجحت في تسعير حرب إشغال مبكرة ضد طالبان منذ نهاية الأسبوع الأول التالي لأحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ الأمر الذي بلغ مدى عالياً مع نهاية الأسبوع الثالث حين لاحت بوادر تحول بعض القادة الميدانيين من الدرجة الثالثة أو الأقل إلى المعارضة، الأمر الذي صدقت الحركة على بعضه بأرقام متدنية منذ أواخر سبتمبر. ومن ثم فإنه مع مطلع أكتوبر كانت الحركة قد شرعت في القتال فعلاً**!** فأمارات التمرد

في بعض المدن والمقاطعات تتبدى مع قيام إسماعيل خان- القائد الشيعي الهارب من سجون طالبان أوائل عام 2001-بقيادة مجموعة من المتمردين من الجهة الشمالية الغربية تحت مظلة دعم إيراني له جذوره، وتحت معاونة أمريكية من الجو بقوات الكوماندوز لاستطلاع مواقع طالبان الأمامية، فيما كانت الحركة على الجبهة الأخرى ترسل أرتالها في ظل تقدم محدود لقوات الجبهة المتحدة.

إذن فقد بدأت المعركة ولما تطلق الولايات المتحدة قذيفة واحدة؛ الأمر الذي أجبر طالبان على التخلي عن تشديد عمليات التمويه وتأمين القتال، واللجوء إلى نشر قواتها على جبهات متعددة في آن واحد وتحريك دفاعاتها الضئيلة نحو مواقع لم تكن تعدها رئيسية، فيما يعد محاولة لتعرية الصدر الطالباني مبكراً أمام السهم الأمريكي الوشيك.

وفي الثالث من أكتوبر صرحت دوائر أمريكية باكتمال الاستعداد الأمريكي لشن الحرب "**المختلفة**" على طالبان والقاعدة؛ الأمر الذي دعا صحفًا عالمية مثل "**الأوبزرفر**" البريطانية إلى توقع الحرب خلال ساعات فيما أكده أحد قادة المعارضة الشمالية من أن "**هجومهم-أي المعارضة-سيكون بعد يومين مدعوماً بهجوم جوي أمريكي**"[100]. وبالفعل بدأ الكشف الصريح عن النشر الفعلي للقوات الأمريكية في طاجيكستان وأوزباكستان الحدوديتين في وضع الاستعداد للهجوم، وأعلنت باكستان (10/4) إغلاقها المجال الجوي أمام أي طائرة غير مدنية قادمة من خارج البلاد معلنة أن الأدلة التي قدمتها الولايات المتحدة لباكستان بشأن تورط ابن لادن في انفجارات (9/11) تمثل "**أساساً كافياً لتوجيه الاتهام رسمياً**".[101]

إزاء هذه الحلقة المحكمة والجبهات الآخذة في الانفجار والوضع الأشبه بالعد التنازلي قبل انفجار القنبلة، تضاءلت مساحة الخطاب الطالباني بالنسبة إلى التحركات والإعدادات العسكرية، بإنشاء الخطوط الدفاعية وحفر الخنادق وتجنيد المواطنين وتسليحهم ونصب الصواريخ فوق المرتفعات، وتعزيز القوات على جبهتي الشرق والشمال بأعداد من المتدربين الجدد الذين قدروا بعشرات الألوف، وتعهدت الحركة بشن "**حرب عصابات من الجبال**" في حالة القيام بالعمل العسكري ضدها. وقد كان لهذا التعهد دلالاته في كشف أبعاد الإدراك الطالباني لموازين القوى ولاحتمالات تطور الموقف؛ فإعلان عزم الحركة على خوض حرب عصابات يعني عدة أمور:

أولاً- أن الحركة أدركت فعلاً أن هذا الحشد الأمريكي الهائل لن يتفرق دون أن يضرب ضربته، وأنها لن تكون ضربات عابرة على غرار ما وقع أغسطس 1998، وأن الحشد الجوي والبري والبحري ينبئ عن نية مبيتة ومكشوفة "**للغزو**"، وأنه لن يمكن ذلك دون لقاء بري، فيما بدا أنها ركزت فكرها عليه.

ثانياً- أن الحركة أدركت أنها لن تتمكن من صد هجوم جوي أو قصف بحري إذا استمسكت بالأرض والمدن، وأنه في هذه الحالة ليس لها ملاذ سوى الجبال التي نصبت عليها صواريخها وحركت إليها قدراً غير ضئيل من أسلحتها، وأن هذه الحرب الطويلة لا تكافئها سوى مقاومة طويلة من هذا النوع المعروف بحرب المستضعفين أو حرب العصابات، فيما يعد إعلاناً مبكراً عن الاستعداد للتخلي عن الحكم دون التفريط في المبدأ والالتحام الكامل بفريق ابن لادن.

وعلى الجانب الآخر سعت طالبان إلى الدعم الداخلي-بعد فقدانها أي فرصة في الخارج-من خلال عقد الجلسات مع زعماء القبائل سيما قبائل الباشتون، وفتح باب المفاوضات مع الزعيم البشتوني قلب الدين حكمتيار المقيم في طهران، والذي كان الأوحد في إعلان تضامنه مع الحركة إذا شنت الولايات المتحدة هجوماً عليها، مرسلاً خطابات التهديد المتواترة إلى واشنطن، وإنذارها من أنها ستوحد الجميع وراء طالبان، وأن رجالها في الداخل وفي روما منبوذون من قبل الشعب الأفغاني[102]، كذلك سعت طالبان إلى المزيد من إثارة الجماعات والأحزاب الإسلامية

الباكستانية للضغط على حكومة مشرف، والتي كانت تواجه مظاهرات يومية في بيشاور وكراتشي وإسلام أباد تندد بالتوجه الذي انتهجه مشرف.

في هذا الآن وصل الخطاب الطالباني المتضائل إلى آخر مطافه رداً على بيان بوش (10/6): "**إن الوقت يضيق أمام طالبان وستدفع الثمن ومعها المنظمات الإرهابية**"[103]، فقد جاء رد الملا عمر نفس اليوم طارحاً خط التحدي السابق بعيداً في دعوته واشنطن إلى إغلاق ملف التحقيق ومن ثم الحرب؛ "**لأن الذين فعلوها قتلوا أنفسهم وأن لا أحد ينتحر بأمر من آخر ومن أجل آخرين**"[104].

كان هذا الخطاب آخر المطاف؛ ففي اليوم التالي بدأت الجولة الثانية حين نزل اللاعب الأمريكي إلى حلبة الصراع العسكري الدائر فعلاً، وذلك مع طلائع القذائف الأمريكية على كابول مساء السابع من أكتوبر 2001.

وفي ختام متابعة الموقف الطالباني خلال هذه الفترة العصيبة يتبين فعاليات هذه السياسة الطالبانية انعكست على تطورات الموقف انعكاساً ضئيلاً؛ إذ لم يبد أن أحداً من الأطراف المعنية قد استمع جيداً إلى خطابها أو اهتم بردود أفعالها اهتماماً مؤثراً؛ فقد أبان التحرك الأمريكي المبكر نحو أفغانستان عن غاية أمريكية وعي الجميع مغزاها المباشر والقريب، وتصرف على أساس التعاطي معها دون النظر في أبعاد موقف الطرف المقابل..

هذه السياسة وانعكاساتها الخافتة إن دلت على شئ فإنما تدل على حقيقة هامة فيما يخص التجربة الطالبانية تحديداً والأمة الإسلامية بعامة: مفادها أن تعدد الرؤوس المتزعمة في كيان أو نظامٍ ما يسهم بلا شك في إفقاده القدرة على انتهاج سياسة ذات أهداف وخطوط وأدوات محددة، بما تبدي في التحالف الطالباني مع الأفغان العرب منذ مطلع تجربة الحركة في الحكم..فقد تحملت الحركة مغبة ونتائج المعركة الموقدة بين ابن لادن وجماعته وبين الغرب سيما الولايات المتحدة الأمريكية، ونتائج عمليات-فيما يبدو- لم تكن موضوعة ضمن استراتيجية معدة تشتمل على ردود أفعال مكافئة لاحتمال تحركات الأطراف المناوئة. وعليه فإن طالبان تتحمل تبعة تضارب غايتها بين بناء الدولة والسعي للحصول على الاعتراف الدولي وفرض هيمنتها على سائر الأراضي الأفغانية والتخلص من أعباء الحصار الاستراتيجي المتظاهر على رميها عن قوس واحدة من جانب، وبين غاية الاستمساك بتحالف مع جماعات تصدر البيانات وتشكل الجبهات للتورط في حرب لا طاقة لها بها. إن صورة تلك الحقيقة انعكست بجلاء على مرآة الخطاب الطالباني على نحو ما سبق إيضاحه.

وعلى الجانب الآخر يتحمل فقه الأفغان العرب- حتى لو لم يكونوا وراء الأحداث الأخيرة-مسئولية العجلة التي حذر الشرع الحنيف من الانزلاق إليها، وسيما في سبيل العلاقة مع المناوئين من غير المسلمين حال استضعاف وذلة المؤمنين على النحو الذي لا يختلف عليه اثنان حالياً، وذلك كقوله-سبحانه وتعالى- (**فلا تعجل عليهم**) (مريم:84)، (**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**) (آل عمران:200)، فالأمر بالصبر يشتمل على نهي عن العجلة، والصبر نصف الإيمان، وهو فضيلة يعاني المسلمون الأمرين لقاء عدم التقائهم عليها، ولا يحسبن أحد أنها أخلاقيات وقيم غريبة عن السلوك السياسي، فهي في الصميم منه، سيما في فهم الأزمات وآليات إدارتها.

فالاستعجال والتهور كالجبن والتردد كلاهما آفة النصر والإنجاز، ومن تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، وهذا الأمر نستدل عليه من النص المبين في هذه الحال وهو قوله -تعالى: [**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم...**] (الأنفال:60)، فعناصر الإعداد والاستطاعة تجلي قيمة الصبر وأن الجهاد يسقط للعجز على نحو ما أجمع عليه السلف، وأن العلماء ذكروا أيضاً أنه "**إذا لم تقع النكاية في العدو وجب الانهزام لما في الثبوت في فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام، قد صار**

الثبوت هنا مفسدة محققة ليس في طيها مصلحة "على ما نقله البوطي في (فقه السيرة) عن العز بن عبد السلام، وعلى ما يفهم من فقه سيرة رسول الله ε.

هذا، وقد أوردت هذه الدلالة هاهنا وقبيل متابعة الجولة الثانية البادئة بالحرب، مع تساوي الاحتمال عندي بوقوع الهجمات من قبل رجال أسامة بن لادن وبعدم هذا؛ وذلك أنه بعد أن يقع القدر يبطل اللوم، ويكون قول المؤمنين إذ ذاك "**قدَّر اللهُ وما شاءَ فَعَل**" والسعي إلى إصلاح ما فسد بالحكمة والموعظة الحسنة وبالذود عن حياض المسلمين، وليس بالوقوف عند حدود التأنيب المثبِّط وإعانة شياطين القنوط والإحباط على المسلمين..وهذا من فقه النصيحة المهجور والذي يجب الالتفات إليه، وخاصة في ظل الهرولة الطائشة إلى "**التبرؤ من المسلمين**" بما يعني في الأصول "**تكفيرهم وإخراجهم من الملة**" بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير، وذلك ضمن حملة نابعة من بين ظهراني الأمة للاعتذار للآخرين، في حين أن السُّنَّة في هذا الحال هي: الاعتذار إلى الله Y -لا إلى غيره- مما "**فَعَلَ المسلمون من معصية لله**"، وأن تكون البراءة من الفِعْل دون التبرؤ من الفاعل المسلم.

وأخيراً فإن التقويم النهائي للتجربة الطالبانية علاوة على ما يتطلبه من تجرد هو جد عسير، فإنه لابد أن ينبني على أساس ومعايير تأخذ في اعتبارها قبل أي شئ أن ثمة مرجعية إسلامية تكتنف معياري الشرعية والمواءمة، وهي الأولى بالنظر والرعاية.

أفغانستان الأخرى: بأيدينا لا بأيدي الأمريكان:

بالرغم من الظلال الطالبانية الكثيفة المرسلة على خلفية المشهد الأفغاني إبان تداعي الأزمة الأمريكية المعولمة، فإن تعقيدات الواقع الأفغاني من كافة زواياه أسفرت عن أكثر من أفغانستان أخرى، عبر عن كل منها فصيل ما أو عدة فصائل. ففيما عدا موقف القبائل التي بدت من قبل قانعة بما آل إليه الوضع تحت إمرة طالبان وأحزاب الانضواء التي سبقت الإشارة إليها، والتي عدت نفسها جزءاً من الشعب الذي سيقع عليه أكثر الضرر دون جريرة أو رأوا ضرورة مساندة طالبان، فإن الضفة الأخرى المناوئة للحركة من قبل والتي شهدت تحولات ذات بال عبر السنوات الخمس الماضية كانت بلا جدال الأكثر فاعلية ومن ثم الأولى بالمتابعة والاهتمام.

ففي حين آل موقف قلب الدين حكمتيار وحزبه (حزب إسلامي) وكثير ممن عُرفوا بـ"**لوردات الحرب**" إلى الحياد والكمون ومراقبة التطورات، فإن المناهضة الحقيقية للحركة تواصلت من جهتين: من معسكر تحالف المعارضة الشمالية ذي الأجنحة الخمسة، والذي انضم إليها مؤخراً إسماعيل خان على ما أشير إليه عاليه، والذي تميز بنهج المواجهة العسكرية، ومن فريق عاودته الروح من قريب وبقوة على ضوء الأزمة الطالبانية-الأمريكية منذ 1996، وهو الفريق الملتف حول محمد ظاهر شاه الملك الأفغاني الأخير المستقر في روما منذ أن جرى خلعه للفعل داخل أفغانستان، هذا في حين بقيت بعض مجموعات أخيرة مذبذبة بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فيما عُرف بـ"**أحزاب بيشاور**" بزعامة أمثال صبغة الله مجددي-أول رئيس لحكومة المجاهدين المؤقتة عام 1992-وسيد أحمد جيلاني... والتي بدت أكثر ميلاً إلى معارضة طالبان والسعي للاندساس في صفوف سائر الباحثين عن أي دور أياً كان.

وللوهلة الأولى، فقد عبرت أكثر الفصائل الفاعلة عن إدراكها للأزمة الراهنة على أنه فرصة وإن تفاوتوا في درجات نعتها بالمواءمة، وخاصة مع تصاعد الأمر نحو احتمالات الغزو الأمريكي الشامل لأفغانستان. فالكافة رأت في المأزق الطالباني "**فرصة**" للضغط على الحركة من أجل مكاسب معينة، غير أن تمايزاتها فيما بعد ذلك تراوحت بها-على مستوى المبادئ-بين ثلاث اتجاهات لم تلبث أن هيمن عليها اتجاه واحد مضى لا يرعوى باتجاه قنص الفرصة.

ففي جانب بدا الأكثر اقتراباً من مؤازرة طالبان جاء خطاب حكمتيار شديد التحفظ على السعي الأمريكي، رافضاً تماماً كافة صور التدخل الأجنبي، ومحذراً من عواقب قيام واشنطن بمهاجمة أفغانستان على نحو ما أشير إليه أعلاه، بينما على الجانب الآخر جاء خطاب ظاهر شاه وأنصاره معرباً عن رغبة عارمة لاقتناص الفرصة المواتية وهرولة تلقائية جامحة للانطباق مع التوجه الأمريكي بل وتقديم ذاته كبديل أول يبشر بالنهاية الطالبانية في القريب العاجل؛ الأمر الذي تضافر على تعزيزه كافة الفرقاء الغربيين سيما الناتو والأمم المتحدة وممثلي الاتحاد الأوروبي الذين تحركوا نحو هذا الفريق منذ اللحظة الأولى.

فيما بين هذين الطرفين المتباعدين جاء الموقف المبدئي لتحالف الشمال الأفغاني شديد التوتر على خلفية احتوائه على توجيهات متباينة: بين حرس قديم ذي ماضٍ يمثله رباني وعبد رب الرسول سياف، وبين جيل صاعد تربي في كنف أحمد شاه مسعود وورث عنه توجيه البراجماتي المعروف وهو الجيل الذي قاده بعد مصرع مسعود ثلاثي (فهيم-عبد الله-قانوني). وفيما بدا الأخيرون أكثر تحديداً وحدة في الاقتراب من معسكر روما بزعامة ظاهر شاه، فإن موقف الرئيس المخلوع بدا شديد التضارب كثير التراجع: فيبدأ برفض تام للنوايا الأمريكية المعلنة ثم لا يلبث أن يعرب عن تأييده التام لها، وينفي وجود أي اتصالات لفريقه مع الأمريكان، وإذا به تواً يعقد اجتماعاً عسكرياً مع وفد أمريكي في طاجيكستان، ويشدد على إنكاره تلقي أي مساعدات من أي طرف خارجي ثم هو لا يستحيي أن يطلبها علانية في اليوم التالي ضمن إعلان رئاسي عقب اللقاء الثلاثي الذي جمعه والرئيسين الروسي والطاجيكي في دوشانبة [105].

حقاً، إذا كان أكثر مجاهدي الماضي قد خسروا أمام طالبان وأمام آفاقهم الضيقة خسراناً بسيطاً آل بهم إلى الخارج قليلاً عن دائرة الضوء والتأثير، فإن الرئيس الذي أزاحته طالبان آثر إلا أن يخسر خسراناً مركباً يمضي به في سبيل الأفول التام والتلاشي.

وفي هذا السياق فإن الجزء الأول من الجولة- وحيث لم تكن الأهداف الغربية قد اتضحت تماماً-شهد تصاعدي الارتكاز على فريق روما بشكل شديد الكثافة. وإذا كان دور هذا الفريق ولاقته **"عودة الملك السابق"** فيما قبل الأزمة الراهنة كان بمثابة ورقة ضغط وتهديد غربية ضد طالبان لا أكثر، إلا أنه عقب الحادي عشر من سبتمبر فإن هذا الدور أخذ منحي أكثر جدية وخطورة. ففي وقت مبكر تكشف صحيفة **"نيو إنترناشيونال"** الباكستانية (9/16) عن مشاورات تجرى بين الناتو وبين ظاهر شاه وأعوانه لتنفيذ مخطط يهدف إلى عودة الأخير كملك أو كحاكم -بأي صفة- عقب إسقاط نظام طالبان وذلك تحت شارة **"إنقاذ الشعب الأفغاني من المعاناه المستديمة التي تعرض لها على يد الشيوعيين سابقاً وحركة طالبان حالياً"**..الأمر الذي تكاثرت التعليقات الأولية على أنه ينذر بحرب أهلية في ضوء عدم تمتع ظاهر شاه وأنصاره بشعبية ما، سواء بين الباشتون الذين ينحدر شاه منهم أو بين سائر العرقيات، بما حدا بأنصاره إلى التراجع الإعلامي المؤقت بأنه:**"إن كان الملك المخلوع دور فسيكون كمنظم لاجتماع كبار الزعماء القبليين: لويا جركا، والذي سبق أن دعا لانعقاده منذ العام 1996"**[106].

بيد أن التحالفات الفرعية في إطار التحالف الدولي بزعامة واشنطن كانت بسبيلها للتشكل سراً وجهراً، فيصرح فرانسيس فيندريل-مبعوث الأمم المتحدة الخاص بأفغانستان عقب اجتماع مع ظاهر شاه(9/23) بأن الأخير قد يقوم بدور **"رئيسي"** في تشكيل حكومة محتملة، فيما جاء مردوده عاجلاً بلقاء ظاهر شاه ووفد عن تحالف الشمال في ذات الأسبوع يرأسه محمد يونس قانوني-وزير داخلية حكومة رباني-حيث دار الحوار حول الكلمتين اللتين صارتا عنوان المسيرة: **"العودة"** و**"الحكومة الائتلافية"**. ومن الجدير بالذكر أن رباني كان قد صرح قبيل

هذا اللقاء مباشرة برفضه البات للبديل الظاهري بكل وضوح:"**يعود كمواطن**..."، إلا أنه ما لبث أن صدق بنفس الدرجة من الوضوح والحماس على ما انتهى إليه القادة الجدد، فيما يقدم مؤشراً قوياً على تحول معارضي الداخل إلى التوحد مع التيار الاقتناص الذي اطمأن إلى أن لا طاقة به لإنجاز شئ يذكر إذا ما بقى متردداً أو متحفظاً على المطاوعة لغايات التحالف الأمريكي.

عدة سيناريوهات طرحت على أطراف حديث هذه العودة أبانت عن جدية هذا التحول وعن قدر كبير من الثقة في القدرة الأمريكية على الإسراع بإزاحة طالبان والتخلص منها ربما أكثر بكثير مما بدا من الأمريكان أنفسهم، الأمر الذي لم يخل بدوره من طرافة من طرائف الواقع الأفغاني ومخازيه سيما في مشهد "**المذبذبين**"...إذ نرى سيد أحمد جيلاني-زعيم الجبهة القومية الأفغانية وأحد كبار مؤيدي ظاهر شاه-يشدد على أن الأخير لن يدخل كابول على أكتاف الأمريكان "**حتى لا يستفز مشاعر الشعب**"؛ معتبراً أن "**أكتاف الأمريكان**"-هاهنا-هي أن يدخل الملك السابق في طائرة أمريكية، على حين يأخذ على رباني أخذة شديدة بحجة أنه من العار على رباني الوصول إلى الحكم عن طريق قانونية"[107].

هكذا يقرأ الأفغان واقعهم وتتحكم بالسراة منهم الأهواء والظنون، إلا أنه مما يزيد الأمر طرافة أن يعقب ذلك بأيام ثلاثة تصريح لظاهر شاه (9/23) بقبوله التدخل الخارجي الذي "**ليس هو الأمر الهين، ولكن يمكن قبوله لفترة مؤقتة من أجل مصلحة الشعب الأفغاني**"، وذلك في خضم تحركات ما عرف بـ"**مجلس شورى التفاهم الأفغاني**" المنبثق عن مكتب روما لدفع جهود المصالحة بين مناوئي طالبان، والذي علق رئيسه حيات الله بغير مواربة:"**إننا نعمل مع المجتمع الدولي للقضاء على الإرهاب وإيجاد حكومة موسعة تضمن حقوق الشعب**"[108].

وبعيداً عن الطرافات المدهشات، فقد اضطلع هذا النفر بأشد المهام الفارقة في هذا الهم الأفغاني الإسلامي،ألا وهي التطوع لإسباغ "**الشرعية الأفغانية**" على الغزوة الأمريكية المزمع القيام بها والتهييج ضد الطالبان ليسهل الانتقام الأمريكي منها بنفس الدعاوى التي أطلقها الغرب ضد الحركة من قبيل التطرف والإرهاب، وأسر الشعب الأفغاني وراء قضبان التشدد والأصولية، وذلك دون تحفظ ذي بال يتجاوز الإطار الاستدراكي العام الذي استوت فيه كافة الأطراف. غير أنه من ناحية أخرى فإن استدراكات المعارضة الأفغانية بدت ذات أهمية من نوع خاص؛ إذ جاءت في الأغلب كنصائح ترسم الطريقة المثلى التي ينبغي لواشنطن وحلفائها أن تتبعها للإجهاز على العدو الطالباني، وذلك على النحو الذي أطلقه ظاهر شاه نفسه "**بأيدينا لا بالأمريكان**" مؤكداً أنه أمر تم الاتفاق عليه بين فصائل المعارضة الأفغانية [109].

وعليه لم يكد سبتمبر ينقضي حتى تكشفت التحركات الأمريكية الجادة باتجاه فصيلي المعارضة هذين اللذين ذهبا يعرضان خدماتهما بحماس كبير حتى بدا الأمر وكأن الولايات المتحدة قد ارتدت قفازين أفغانيين: أحدهما للقتال المسلح بالوكالة، والآخر لترتيب الأوضاع السياسية للضغط على طالبان أو إزالتها والإعداد لشغل الفراغ من بعدها. فمن ناحيته شد ظاهر شاه وفريقه على أيدي الأمريكان في لقاءاته المتكررة بممثليهم، كاجتماعية بالقنصل الأمريكي لدى إيطاليا-وليام بوب-الذي أكد على ضرورة عودة الملك "**للمساهمة في خلق الأجواء المناسبة نحو استعادة الديمقراطية ولإحلال السلام والاستقرار**"، ثم استقباله (9/29) لوفد أمريكي لذات الغرض الذي أعرب عنه رئيس الوفد-آل سانتولي، مستشار الأمن القومي في الكونجرس الأمريكي-بالسعي إلى "**تكوين حكومة وحدة وطنية لكي يتم القضاء على شبكات الإرهاب**"[110].

بدا هذا الجزء الأول من هذه الجولة الفاصلة أو بالأحرى الواصلة بين اليومين: الأمريكي والأفغاني، أكثر مواتاة لفصيل روما، إلا أنه على الناحية الأخرى سريعاً ما أفاق تحالف الشمال من الهزة السياسية والعسكرية التي

أصابته إثر اغتيال متزعمه العسكري وربما الفعلي أحمد شاه مسعود (9/9)، ليندفع تيار "**ابتهال الفرصة**" يؤجج الجبهة القتالية منذ نهاية الأسبوع الأول عقب الحادي عشر من سبتمبر، موسعاً من تحركاته الدبلوماسية نحو كافة الأطراف في الجوار وفي الغرب. بل وقبل أن تتراءى أبعاد وحقائق الموقف الأمريكي بشأن التعاون مع هذا الفصيل، فإن وزير خارجيته-عبد الله عبد الله-يبادر (9/21) بأشد عبارات الموالاة للأمريكان فجاجة وفظاظة بالإعراب عن "**استعداد الجبهة للتعاون مع الولايات المتحدة في الحرب ضد طالبان..**" بل "**ووضع كافة إمكانياتهم من مقاتلين وخبرات عسكرية في الأراضي الأفغانية تحت تصرف القوات الأمريكية**"، على حين يبدي البعض ضمن هذا الفصيل تخوفاته من احتمالات ألا تكتفي واشنطن بمجرد التعاون معهم، وأن تسعى لاستغلالهم كـ"**ناقلة**" لغزو أمريكي تلمح إليه الحشود المتوالية حول أفغانستان [111].

حقاً، لقد عبر هذا المشهد عن أبشع انعكاسات الحادي عشر من سبتمبر على الأمة المسلمة؛ حيث يشفق نفر من المنتسبين إلى الإسلام وأمته ألا يلتفت إليهم الغازي المعتد بتفوقه حين يمدون هم إليه يد الصداقة والموالاة والمعاونة ضد آخرين منسوبين-أو على الأقل- محسوبين على الملة والأمة، في الوقت الذي يبقى من خارج الأمة من ينتفر وينتفض يومياً للدفاع عن الأخيرين على أساس أنهم لم يتعدوا-في أسوأ الحالات-كونهم: "**مهتمين بغير دليل فعلي معلن، وضعفاء معدمين عرضة للانتقام الأعمى**"!!!

وهكذا تدفقت المسعِّرات العسكرية والمؤازرات المعنوية من قبل دول الجوار الكبرى سيما روسيا ومن الجوار الإسلامي المباشر وخاصة طاجيكستان ذات الارتباط الإثني والجغرافي بهذه الفئة، وبطريق غير مباشرة من الكافة، سيما القيادة الباكستانية التي وإن مثلت أكثر المتحفظين على دور هذا الفصيل ظاهراً؛ فإنها كانت على مستوى الفعل الداعمَ الحقيقيَّ له منذ إعلان مشرف سماح حكومته وجيشه باستخدام الطيران الأمريكي للأجواء الباكستانية مما دفع طالبان إلى إعادة نشر وتوزيع قواتها لتتخلخل العديد من خطوط دفاعاتها ونقاط تمركزها؛ الأمر الذي صب في صالح هذا الفصيل فتوالت بيانات قادة أجنحته سيما دوستم وفهيم عن تقدمهم قواتهم وتمكنها من الاستيلاء على قطاعات وممرات استراتيجية هامة ومصادرة كميات كبيرة من الأسلحة إضافة إلى أعداد من الأسرى الطالبان... [112]

ومع مطلع أكتوبر بدا للكافة أن فكرة القفازين باتت حقيقة ماثلة وفاعلة؛ إذ نشبت المعارك المبعثرة في شمال ووسط وشرق وغرب أفغانستان؛ لتجد طالبان نفسها منساقة مبكراً إلى حرب أهلية-دولية متعددة المحاور تعرِّض استراتيجيتها-القائمة على الرهاب الأمريكي من بر أفغانستان-لضربة قاصمة..في حين تجد الولايات المتحدة من الأفغان أنفسهم أكثر وأسرع مما كانت تحلم به لإحداث تمرد داخلي ضد طالبان!!

الكل ضد طالبان، أو طالبان في مواجهة الجميع. لم يكن ثمة استثناء يذكر على الصعيد الأفغاني سوى ما مثله موقف قلب الدين حكمتيار الذي توعد بالتعاضد مع طالبان حال وقوع الغزو الأمريكي، الشيء الذي أرجعه بعض المراقبين إلى ما هو معروف عن قناعات الرجل الفكرية والمتقاطعة كثيراً مع نهج طالبان والأفغان العرب، والمرتبطة بعدائه المتبادل والجذري تجاه واشنطن، في حين عزاه آخرون إلى سعي حكمتيار لاستعادة شعبيته البشتونية واهتبال الفرصة للعب دور في ترتيبات ما بعد طالبان [113].

وإجمالاً، فإن اتجاه ميزان هذه القوى رجّح كفة القفازيْن اللذين اندفعا بكل طاقتيهما في رهان غير محسوب العواقب تحت لافتة:"**من يخطف أفغانستان؟**" الأمر الذي كانت انعكاساته هي الأشد وطأة-إضافة إلى الموقف الرسمي الباكستاني-وكانت دلالاته هي الأهم عبر الجولة برمتها، إلا إن الدلالة الكبرى لهذا الجانب من التعاطي الأفغاني والمحسوب على أمة الإسلام برزت في مدى خطورة وجسامة تغييب المرجعية والأبعاد العقدية والأممية

وموجبات الولاء والبراء وحدودهما، والتخلي المتعمد وعدم الاكتراث بفقه الضرورات (الأزمات) وكيف تقدر بقدرها، وفقه المآلات وارتباطاته بتراتبية المقاصد العليا؛ جرياً وراء منافع عاجلة تعلوها مضار هائلة، وثارات تنم عن عقلية الانفعال والجمود والوهن..نعم إن طالبان تخشبت إزاء ما رأته مبدءاً إلى آخر المطاف معززة حجتها بما قال به عقلاء الغرب نفسه من حرمه العقاب الجماعي أو المؤاخذة بغير بينة، دون البحث عن بدائل استدراكية، إلا إن تذبذبات ثم اندفاع المعارضين في الاتجاه الآخر بهذه الصورة الارتجالية أشبههم والأمة من بعدهم بطفل يعبث على طاولة الكبار!

باكستان: المأزق الأخطر والخاسر الأكبر

إذا لم يكن طرف ما قد سلم من الحرج والحيرة، فإن باكستان بلا جدال كانت الأكثر من غيرها تعرضاً لمأزق رهيب: مأزق خيارات تتنافس في درجات الصعوبة والإحراج، سيما عقب إظهار واشنطن توجهها الواضح والعاجل لتنفيذ ضربة عسكرية مؤثرة ضد حركة طالبان بالاعتماد بصفة أساسية على التعاون مع باكستان. وإذا ما كان هذا التوجه قد تحدد أمام العالم في نهاية الأسبوع الأول من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، فإن الحقيقة أن اليوم التالي للحدث شهد أولى تلميحات كولن باول الجادة إلى المحادثات مع باكستان على نحو ما سبق ذكره، ثم ما لبث التوجه الأمريكي أن استحال قراراً لا يضع أمام إسلام أباد سوى خيارات محدودة جداً زادتها طبيعة الداخل الباكستاني محدودية، بما أوقف كافة الفرقاء الباكستان على المحك الأخضر من نوعه!

وعلى حين نوعت سائر الدول في ردودها على السؤال الأمريكي-البلاء:"**معنا أم مع الإرهاب؟**" بما وازن بين القيادات والقواعد الشعبية، فإن باكستان آثرت على صعيد الأطراف الفاعلة أن تنقسم على نفسها بين الطرفين البعيدين.

ففي ناحية قاصية وقفت السلطة الحاكمة برئاسة الجنرال برويز مشرف الذي أكد منذ اليوم الثالث(9/14) على "**التزام بلاده بتقديم التعاون الكامل**" لواشنطن، ثم أكده باسم الجيش(9/15) بالموافقة على طلبات أمريكية محددة كإغلاق حدود باكستان مع أفغانستان، وقطع إمدادات الوقود عن طالبان، والسماح باستخدام الأجواء الباكستانية، ومشاركة الولايات المتحدة في المعلومات الاستخبارية..الأمر الذي عزاه البعض إلى أن الولايات المتحدة لم تقدم رسمياً على طلب المساعدة من أحد قبل باكستان حتى حلف الناتو، علاوة على أن طلباتها من باكستان كانت أكثر حدة وتحديداً.

وعلى الجانب الآخر تراوحت المواقف غير الرسمية بين الهدوء الحذر والهياج الرافض؛ إذ أدرك الجميع أنها لحظة فارقة، فراح القوميون في أحزابهم والنخبة المثقفة عبر الصحف يحثون الجنرال مشرف على الحذر في إعادة رسم السياسة الخارجية لباكستان، خاصة بعد أن حذرته طالبان من مغبة معاونة الولايات المتحدة، بينما اندفعت الأحزاب الدينية إلى الطرف الآخر البعيد: الجهاد إلى جانب طالبان لرد العدوان الأمريكي إذا وقع!

قديم باكستان وماضيها القريب يزيدان الأمر تعقيداً سيما فيما يتعلق بالنظام الحاكم والمتمحور حول شخصية الجنرال مشرف. فالحكومة الحالية جاءت عبر انقلاب ضد حكومة نواز شريف (12 أكتوبر1999) على ضوء اتفاقه مع الولايات المتحدة للانسحاب من كارجيل ودراس في قسم كشمير الواقع تحت سيطرة الهند. إذ ذاك طفت على السطح صورة وشخصية رئيس أركان الجيش الباكستاني (الجنرال برويز مشرف) الذي انضم إلى شريف إبان محاولته السيطرة على تداعيات الأزمة، باذلاً جهداً واضحاً لإسكات التململ في الأوساط العسكرية بعد أحداث كارجيل. في هذا الآن أصدرت الولايات المتحدة (1999/9/22) تقريراً بادي الانحياز إلى نواز شريف؛ إذ يتضمن التحذير الصريح من التفكير في إزاحة حكومته

المنتخبة، في إشارة ظاهرة لمعارضتها قيام انقلاب عسكري صد نواز شريف، إلا أنه سرعان ما حسم الجنرال الموقف مرة ثانية لكن في الاتجاه المضاد.

وعلى الرغم من معارضة الولايات المتحدة الأولية البادية للعيان للانقلاب ومسارعتها بفرض عقوبات جديدة على باكستان (1999/10/15) إلا أنها كانت في الحقيقة إجراءات رمزية؛ إذ شملت مساعدات لا تتجاوز (5.2) مليون دولار سنوياً فيما لا يشمل المساعدات الإنسانية وقروض المصارف الأمريكية إلى الحكومة الباكستانية. ومع التحولات المتوالية التي أبانت بالأساس عن قناعات السلطة الجديدة التي بدت متوائمة مع المزاج الأمريكي نسبياً سيما في قضية كشمير والعلاقات مع الهند من جهة، والتوجه نحو الأصولية الإسلامية وأحزابها من جهة أخرى..شرعت واشنطن في التجاوب مع الحكم العسكري لباكستان مخففة من نبرة معارضتها المبدئية له أو الضغط عليه اللهم إلا فيما يتعلق بمسألة طالبان وأسامة بن لادن التي ظلت الحائل الأكبر أمام استواء هذه العلاقات؛ إذ ترددت إسلام أباد في التعاون مع واشنطن في هذا الصدد منذ العام 1998 عقب حادث السفارتين وإلى أن وقعت الأحداث الأخيرة.

كانت باكستان أولى الدول التي شهدت تصاعد التظاهرات الواسعة في مختلف المدن والمقاطعات تعبيراً عن معارضة التوجهات الأمريكية نحو أفغانستان، الأمر الذي يعني اشتعال المواجهة مبكراً بين النظام الحاكم والشارع الباكستاني الذي استحوذت عليه الأحزاب الدينية، وذلك منذ الرابع عشر من سبتمبر فصاعداً. إن اختيار مشرف التجاوب الكامل بلا أي تحفظ ذي بال مع واشنطن في محاربة ما سُمي بالإرهاب كان يعني فتح النيران عليه من كل اتجاه: من جانب طالبان والأصولية الممتدة عبر المنطقة، ومن قبل ثوار كشمير على خلفية ذهاب مشرف إلى الوقوف مع الهند في خندق واحد وفيما بدا ميله إليه من قبل، ومن قبل الجماعات الإسلامية في الداخل والتي تتميز بروابط مفصلية مع الجميع: مع طالبان والتي تعد تلميذة وربيبة هذه الجمعيات، ومع المجاهدين الكشميريين، ومع الشارع الباكستاني من خلال آليات الدعوة والتعليم الديني ومدارسه، ومع قطاع لا بأس به من العسكريين سيما في نطاق المخابرات العسكرية الباكستانية ظهير طالبان على نحو ما سبقت الإشارة إليه، وأخيراً جاءت المعارضة أيضاً من قبل الأحزاب السياسية غير الدينية التي سنحت لها فرصة إثارة قضية ضرورة عودة الحكم المدني والتي بدا موقفها أيضاً في حرج ما بين المعارضة الإسلامية التي تنبذ الكثير من سياقاتها وبين معارضتها المختلفة للعسكريين الحاكمين، وما بين موقفها المشكل من الحملة الأمريكية ضد ما عرف بالإرهاب.

استجاب الجنرال مشرف للتهديدات الأمريكية المحتملة وعلى رأسها التهديد بالاستعانة ببدائل أخرى في حالة الرفض من قبيل الهند وإسرائيل، وما أعرب عنه الجنرال مشرف نفسه من مخاوفه أن تلجأ أي من هاتين القوتين المعاديتين إلى ضرب المنشآت النووية الباكستانية في خضم فوضى الحرب المنتظرة[114]، كما انجذب أيضاً وبحماس معلن للإغراءات سيما في رفع العقوبات عن الاقتصاد الباكستاني المترهل والوعد الأمريكي بفتح صفحة جديدة في العلاقات معه، في الوقت الذي واجه التهديدات الطالبانية بضرب أي دولة تسخر أراضيها أو أجواءها في مهاجمة أفغانستان، واجهها بإنذارات حادة وجمل ردع عبر أجهزة الإعلام على نحو ما ورد في "**المهلة**" التي أعلنها للحركة (9/16) لتسليم ابن لادن خلال ثلاثة أيام[115].

في هذا الوقت جاءت ردود الأفعال على خيارات برويز في الداخل عنيفة في خطابها وبوادر وتطوراتها، إذ جرت عملية توحيد من قبل الأحزاب الفاعلة على شاكلتين: توحيد الموقف المضاد من خلال مؤتمر لاهور (9/16) الذي ضم-على حد قول المحلل السياسي عبد الغفار عزيز-كل الأحزاب الدينية والسياسية، مؤكداً أن المؤتمر لا يعبر عن موقف الأحزاب الدينية فحسب[116]،

علاوة على توحيد الخطاب السياسي الذي انتهى إلى التخريب الثنائي العالمي المتنامي؛ إذ طابق خطاب الجماعات الأحزاب إذ ذاك بين واشنطن والسلطة الباكستانية في كفة كمناوئين أو كما عبَّر زعيم الجماعة الإسلامية الباكستانية الكبرى قاضي حسين أحمد:"**إن سلطات إسلام أباد وواشنطن ينبغي لهما أن يتجنبا سبيلاً أدى في الماضي إلى هزيمة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان. إن الغطرسة الأمريكية وألاعيب السلطة الباكستانية لن تقود إلا إلى الدمار**"[117]، في حين يتطابق خطابها هذا مبدئياً وبدرجة كبيرة مع الخطاب الطالباني.

كان لذلك مردوده الفوري على سياسة النظام الباكستاني على صعيدي الداخل والخارج؛ إذ سارع مشرف بإرسال وفد من العلماء والزعماء المقربين منه إلى طالبان (9/17)، وإعلان استثناء المشاركة الأرضية أو بقوات ضمن العمليات الأمريكية المرتقبة، ثم راح ومسئولو حكومته يجتمعون بزعماء المناطق والقبائل والنخب سيما مسئولي الصحف الوطنية وزعماء بعض الأحزاب السياسية لإيقافهم –وخاصة منذ منتصف الأسبوع الثاني – على زوايا رؤية النظام للموقف بين المخاطر التي سوف تتعرض لها باكستان في حالة معارضتها التعاون في أمرله بدائل أخرى غير باكستان والمنافع الاقتصادية والسياسية التي سوف تجنيها باكستان من هذا الموقف، سيما على صعيد الحياة اليومية للشعب. ومن ثم توالت عقب ذلك المؤتمرات الصحفية التي يعقدها وجوه الحكومة وعلى الأخص وزير الخارجية عبد الستار خان؛ لشرح كل خطوة تقدم عليها السلطة أو حلفاؤها في الخارج، مع السعي للظهور بمظهر الناصح الأمين المتعقل الراغب في الحفاظ على نظام طالبان سالمًا بمواصلة إنذار الحركة من مغبة إصرارها على التمسك بأسامة بن لادن.

جاء الأسبوع الثاني ليكشف عن ارتقاء سقف التنسيق والتعاضد بين الحكومة الباكستانية والولايات المتحدة، فبينما كان تليفزيون الـ**CNN** يذيع أن الإدارة الأمريكية لم تستقر بعد على الوضع النهائي لطالبان في الحملة الراهنة أو حتى على "**نوع**" العمل العسكري المفترض، أذاع التليفزيون الباكستاني (9/19) خطاباً لمشرَّف يصرح فيه أن نظام طالبان يشكل هدفاً رئيساً من أهداف الحملة الأمريكية [118]، الأمر الذي حد من سخونة الشارع الباكستاني، فراحت الولايات المتحدة تقدم أولى إشارات دعم موقف مشرف فيما كشفت عنه تصريحات وزير التجارة الأمريكي دونالد إيفانز والممثل التجاري والأمريكي روبرت زوليك عن المنح المنتظرة للمتعاونين علاوة على ترسانة العقوبات الاقتصادية والسياسية والأمنية التي تنتظر غير الراغبين في التعاون [119]. وكان كولين باول قد ألمح في الأسبوع الأول بعد الضربات إلى سعي بلاده لتخفيف العقوبات المفروضة على إسلام أباد منذ 1998 على خلفية التفجيرات النووية، والتي كانت تشمل حظر "**المعونات الاقتصادية والمبيعات العسكرية والقروض الحكومية**"[120].

بناء على ذلك أخذ الصراع الداخلي يتصاعد بين السلطة والأحزاب الدينية–سيما الجماعة الإسلامية وجمعية علماء الإسلام–والتي بدت للمراقبين مع الأسبوع الثاني وكأنها تسحب البساط من تحت أقدام النظام؛ حيث وقعت المصادمات الدامية وصُرع وجرح الكثيرون ضمن تظاهرات "**تحالف الأحزاب الدينية**" الذي ضم العشرات منها. كان العنف هو جديد هذا الأسبوع في مظاهر متصاعدة الخطورة من إلقاء للحجارة على السيارات والمركبات العامة، وإحراق الإطارات في طرقات المدن، ودفع المصالح التجارية إلى إغلاق أبوابها، والسير في تجمعات حاشدة ترفع شعارات "**الموت لأمريكا**" وتحرق دمي لجورج بوش، وتهتف بعبارات التأييد لابن لادن وطالبان والتنديد بالسياسة الحكومية..الخ.

على الجانب الآخر، واصلت حكومة مشرف حملتها المكثفة لإقناع الشعب الباكستاني بموقفها على ما أشير إليه، ففضلاً عن أحاديث الوزراء والمسئولين المحليين في الأقاليم البعيدة، تكاثرت الاجتماعات مع زعماء القبائل

والأحزاب وكبار رجال الدين-سيما من وصفوا بالاعتدال-وجرى تحريك وسائل الإعلام الرسمية والصحف المستقلة لنفس الوجهة من خلال إبراز التنديد الشائع بتجربة طالبان بعامة والأخذ بخاصة على إيوائها ابن لادن، إلى الحد الذي تطرقت فيه الصحف الباكستانية وتصريحات المسئولين إلى الدعوة الغربية المدعومة من المعارضة الأفغانية باسم **"إعادة البناء"** انطلاقاً من تشكيل حكومة ائتلافية في أفغانستان [121] لقد تجلت بذلك أولى الإشارات الجادة لبوادر التحويرات الاستراتيجية في السياسة الخارجية الباكستانية نحو الربيب الأفغاني **"طالبان"** والقوى الأخرى التي طالما راهن الجميع على الخلاف الجذري بينها وبين الخط الباكستاني المائل للبشتون وبالتحديد حكمتيار فطالبان، الأمر الذي طرح تلقائياً تساؤل الوقت الأهم: **ماذا بعد طالبان من وجهة النظر الباكستانية؟** ألا يتعلق هذا السؤال بالمصلحة القومية العليا بل وبالأمن القومي الباكستاني على نحو ما هو معلوم عن محدداته؟

عامة، لم تمهل الأحداث المتداعية الجنرال مشرف لتحرير الإجابة عن تساؤل الوقت المفروض، إذ انجذب ورجاله إلى عملية تعبئة مضادة خطابية وسياسية جراء تحركات الجماعات الدينية التي راحت تنذر بعواقب داخلية وخيمة، وتزعم اجتماع كلمة الشعب الباكستاني وراءها، وتتهم الموقت الحكومي بالعمالة والنفاق السياسي وتعريض مصالح ومستقبل الشعب الباكستاني والأفغاني لمخاطر جسيمة، الأمر الذي في طيه طرحت قضية الحكم بالشريعة طرحاً مخفياً لمعارضيها. ومن ثم حرص مسئولو الحكومة على التطمين-بصفة دائمة-بأن هذه الجماعات والأحزاب لا تحظى سوى بشعبية محدودة للغاية، متهمين إياها بـ**"الغوغائية"** [122] مع التنويه بتعهد زعماء القبائل في إقليمي بلوشستان وفرحد المتاخمين لأفغانستان وذوى الأصول البشتونية بتأييد جميع "الإجراءات التي يتخذها الجنرال مشرف حيث نسب مسئول حكومي إليهم أنهم مدركون لخطورة **"الانسياق"** وراء مشاعر تأييد طالبان، دون أن ينسى الإشارة إلى أن المساعدات الأمريكية بسبيلها إلى العودة للضخ في إسلام أباد[123].

والحقيقة أن باكستان كانت تتلقى الثمن فعلاً بدءاً من قرار واشنطن إعادة جدولة ديونها المستحقة (600مليون دولار) ووعود الدول المشاركة مالياً في التحالف بنفس الشيء، كتصريح اليابان بخطط لصرف منحة طارئة لباكستان (40مليون دولار) علاوة على تصريحات البنك الدولي وصندوق النقد والدوائر الأوربية السائرة في ذات الاتجاه.. إلا أن إسقاط العقوبات الأمريكية كان له مغزاه الخاص؛ حيث أصدر الرئيس الأمريكي (9/22) قراراً برفع العقوبات المفروضة على باكستان والهند كمكافأة للدولتين، رأى المراقبون أنها قد تخفف من حدة معارضة الرأي العام الداخلي لموقف الحكومة التعاوني مع الولايات المتحدة، بيد أن مجلس الدفاع الباكستاني الأفغاني الذي شكلته الأحزاب الدينية أجهض هذه التوقعات، فأعلن قادة جمعية علماء الإسلام أن تحركات للمجاهدين التابعين لها بدأت الأحد 9/23 نحو الحدود الباكستانية-الأفغانية للتصدي للهجوم الأمريكي المتوقع، بل إن الأمر تطور للسعي نحو إقامة سوار المجاهدين حول القواعد العسكرية في باكستان في محاولة لمنع القوات الأمريكية من استخدامها وقال زعيم الجمعية في بلوشستان الحدودية: **"إن مجاهدينا سيحاصرون جميع القواعد العسكرية في باكستان، فالحرب الأمريكية ليست ضد أفغانستان فحسب، بل ضد العالم الإسلامي بأكمله"**[124].

وعلى هامش هذا الموقف وعلى خلفية التهديدات الأمريكية للجماعات الباكستانية نفسها بضمها في لائحة المنظمات الإرهابية، أكد المسئولون الدينيون الباكستانيون على الاختلاف بين المدارس الدينية في باكستان وتلك التي في أفغانستان، فهناك نحو عشرة آلاف مدرسة دينية موزعة في جميع أنحاء باكستان قامت بتدريب ناشطين إسلاميين لا مقاتلين، وشدد مولانا فضل الرحمن-أحد قائدي جمعية علماء الإسلام إلى جانب مولانا سميع الحق- على **"أن**

مدارس باكستان لا تتولى تدريب مقاتلين على الرغم من أن الجهاد يشكل جزءاً من التعليم الإسلامي، لكن المدارس الباكستانية تكتفي بإعداد المسلمين إعداداً جيداً، ثم تترك الحرية للطلاب لكي يختاروا الحياة التي يرغبونها بعد انتهاء الدراسة" [125] ذلك بينما يصرح مسئول طالباني بأن آلاف المدارس في أفغانستان تخرج نحو (1.2) مليون طالب، من بينها (35) مدرسة فقط تعتبر مدارس لإعداد المجاهدين، وغالبية طلابها من الأفغان ومن بعض الدول الإسلامية، الشئ الذي أكده أيضاً رحمة الله كازادة قنصل طالبان في كراتشي[126].

بدأ الأسبوع الثالث بقرار استدعاء القائم الدبلوماسي الباكستاني من أفغانستان وإغلاق السفارة في كابول والقنصليات في سائر المدن(9/25) تحت دعوى الضرورة الأمنية، وأصدرت الخارجية الباكستانية بياناً أوضح أن باكستان لم تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع أفغانستان كما فعلت الإمارات العربية السعودية، إنما فقط تم اتخاذ تدابير احتياطية حفاظاً على حياة الدبلوماسيين في ظل احتمالات الحرب المتصاعدة، الأمر الذي علق عليه البعض بأن باكستان علمت بتوقيت الهجوم الأمريكي[127].

وعلى الرغم من مضاء هذا القرار قدماً فيما انتهجته السياسية الباكستانية منذ البداية إلا إن أعراض الحيرة والاضطراب ظهرت من جديد إزاء عدد من القضايا التي أفرزها تداعي الأحداث، وعلى رأسها وضوح الدعم الأمريكي عسكرياً للمعارضة الأفغانية (جبهة الشمال المتحدة) مباشرة أو عن طريق أطراف أخرى، ومسألة عودة الملك واحتمالات أن يكون بديل طالبان المروَّج له من ذوى الماضي السيئ مع باكستان، وتنامي حقيقة استهداف الولايات المتحدة لبعض الجماعات الإسلامية في باكستان بزعم دعمها لطالبان والأفغان العرب، وضم جماعات كشيميرية مجاهدة ضمن قائمة المنظمات الإرهابية التي تصدرها الخارجية الأمريكية، كما قامت واشنطن بحظر جميع المعاملات المالية لجمعيتي "**الرشيد ترست**" و"**حركة المجاهدين**" الباكستانيتين على أساس الاشتباه في ارتباطهما بتنظيم القاعدة، علاوة على رفض الولايات المتحدة الاستجابة للطلب الباكستاني بالعمل-ولو شكلياً-تحت مظلة الأمم المتحدة، وكذلك إحجام سائر الدول الإسلامية والعربية عن المشاركة في تحالف بوش بشئ أكثر من الكلام والتعاون الإداري غير الملموس.

وعليه، فقد صرح مسئولون باكستانيون لصحيفة نيوز إنترناشيونال الباكستانية (9/26) أن الرئيس مشرف يرغب في أن يقتصر التعاون العسكري الباكستاني الأمريكي فقط على القضاء على أسامة بن لادن وتنظيمه داخل أفغانستان، وعدم منح المعارضة الفرصة لتولي الحكم في كابول[128]. لقد جاءت هذه التصريحات عقب تأكيد مسئولين أمريكان أنهم سيقومون بدعم المعارضة-وإن بدت الإدارة الأمريكية أيضاً قلقة بخصوص المعارضة الشمالية وفصائلها الإسلامية وأكثر ميلاً إلى بديل غير إسلامي التوجه ألبتة على غرار ظاهر شاة وأنصاره، ومن ثم وصفت موقفها الراهن من المعارضة الأفغانية الشمالية "**بالدعم المحدود**"[129]،.. عبرت الحكومة الباكستانية عن مخاوفها إزاء كافة هذه العقبات التي ظهر شبه اتفاق بين المراقبين على أنها تسبب قلاقل على المدى القريب في الداخل والمحيط الباكستاني، إلا أن ذلك لم يحَّول من الخط الحكومي قيد أنملة.

فقد جاءت تطورات نهاية الأسبوع الثالث لتؤكد أن ثمة خطاً سرياً انطلقت فيه باكستان منذ الخميس (9/13) أي عقب الحادي عشر من سبتمبر2001 بيومين، حين استقبلت بتكتم شديد قوات كوماندوز أمريكية بدأت في التحرك إلى أفغانستان لإثبات أو قتل أو إخراج أسامة بن لادن من مكمنه، الشيء الذي أفصح عنه بوش أثناء استقباله عاهل الأردن عبد الله بن الحسين (9/28) والأمر الذي يكشف بدوره عن انفصال كبير بين الخطاب الذي لا يخلو مطلقاً من تحفظات ومطالبات

وإشعار بالتحرج، وبين الممارسات التي تمضي مبكراً جداً وفي صمت متعمد نحو هدف دقيق وغايات مبيتة.

وهكذا فإنه فيما بين وقائع الحدث الأمريكي ووقوع الحدث الأفغاني أثارت ردود أفعال الداخل الباكستاني عدداً من القضايا والمعضلات والتساؤلات التي تتوجه بالأساس نحو المستقبل القريب لباكستان في الداخل وعلى صعيد المنطقة من قبيل:

- إلى أي حد ستكون القناعات المتضاربة والخاصة بالفواعل السياسية المتكاثرة في باكستان والمتصلة والمتصارعة مع فواعل الجوار والقمة العالمية... إلى أي حد ستكون بارزة ومستحكمة في العملية السياسية الباكستانية؟ وما هو العامل الذي يمكن أن يكون المرجح بينها على مستويي التفاعل: الخطابي الفكري
- من جهة، والمراسي الصراعي من الجهة الأخرى؟
- وإلى أي حد سيتواصل هذا الخلاف المتواسع على ما لا يجوز الاختلاف فيه من حقيقة ومضمون وعناصر وأسس ومحددات الأمن القومي الباكستاني والتهديدات الحقيقية التي تحيق به؟ وهل تحولت القوة النووية من السلاح باليد إلى أن تمثل عبئاً وخطراً على حائزها على النحو الذي عبرت عنه مخاوف الجنرال مشرف صراحة؟
- وإلى أي حد يمكن التعويل على الأساس الاقتصادي منفرداً في انتهاج التوجهات الكبرى؟ وبأي معنى يمكن تفسير تبريرات الموقف الرسمي من الهجوم على شعب مسلم بأشياء من قبيل رفع العقوبات الأمريكية والإشارة إلى الأموال التي سيعاد ضخها؟ وهل يصح أن تتماشى دولة ما أياً كانت خفة وزنها مع القول بأنها تحت عقاب من دولة أخرى، بل وتجوز للأخيرة معاداة ومعاقبة أطراف أخرى من الداخل؟
- إذا جاز أن يتغاضى النظام الحاكم عن تدخلات خارجية كادت أن تصير أمراً معتاداً، فإلام ستذهب بدايات التدخل الأمريكي والغربي الأخيرة في شئون تعد من صميم الهوية والعقيدة والشرعة الإسلامية في أبواب التعليم الديني ومدارسه، وجمعيات العمل الخيري الإسلامي، والسعي لإعادة تحرير المفاهيم الإسلامية الأصلية من قبيل النصرة والأمة الواحدة وتوجيهات التصدق والزكاة والجهاد بكافة وسائله... سيما في ظل الصمت أو التمويه أو الانضغاط الذي يبدو مطبقاً على أولي الأمر في هذا الشأن؟

وعامة، لقد جاءت هذه الجولة لتكشف عن حقيقة كبيرة حول المستقبل القريب لباكستان، إن جزءًا كبيرًا من نضوحات هذا المستقبل يقع في يد الجنرال الذي جعل من أتاتورك مثلاً أعلى له على حد قوله، وقال عن نفسه إنه وضع خططاً لتوجيه باكستان وجهة جديدة منذ اللحظة التي تولى فيها سدة الرئاسة، وأنه كان يوجهها نحو تلك الوجهة ببطء حين وقعت أحداث 11سبتمبر.فيكفي أنه خلال بضعة أسابيع من وقوع هذه الأحداث قام باستبعاد مؤيدي طالبان الكبار في الحكومة الباكستانية بمن في ذلك خمسة من أكبر جنرالاته الـ13. تقول النيوزويك:"**إن مشرف الذي كان قد رفض بازدراء كدكتاتور عسكري، سرعان ما بات صديقاً قيماً للغرب**"، إلا إن أحد معاوني بوش يقول عنه:"**لقد اتخذ القرارات الصعبة لكن ما زال هناك الكثير مما ينبغي عمله، والمشكلات مازالت هائلة**"، الأمر الذي يطرح التساؤل من قبل المجلة: "**هل يستطيع مشرف الحفاظ على نوع الاحترام الذي يحظى به خارجياً في داخل باكستان؟**"[130]

وهكذا فإن هذا التحليل الغربي المحفز للجنرال على الاستمرار والصمود في وجه العقابات، لا ينفي حقيقة أن أشياء جديدة ذات بال قد تخلقت لا تعد فقط من قبيل "**العقبات**" أمام الجنرال، بل من قبيل الفواعل الجديدة التي تخترق أجنداتها المتنوعة الحدود الباكستانية. نعم من الواضح أن مشرف كان قد بسط هيمنته فعلاً على المؤسسات الهامة والفاعلة في باكستان في سبيله إلى الهيمنة على سائر فعاليات الداخل الباكستاني، فقام بالعزل،والتعيين، والاستبعاد والتقريب دون أدنى معارضة فعلية فيما يبدو،

وألقى خطاباً تهديدياً صارماً إزاء الأحزاب الدينية والمناوئين في انتظار فرصة سانحة للتعامل معهم جدِّياً، إذ إنه أمام التداعي الجهادي على أفغانستان بعشرات الألوف من الشباب الباكستاني لم يكن الوقت مناسباً للقمع العام، إلا إن كثيرين يرون إنه أذا كان ممكناً أن يسكت الجنرال أصواتها حتى لا تعلو فوق صوت المعركة، فإنه من المستبعد بدرجة كبيرة أن يتمكن من إعادتها إلى مكامنها تارة أخرى.

وأخيراً، فإن الكثير من انعكاسات ودلالات مثل هذا الحدث الكبير على الحالة الباكستانية على وجه الخصوص أكبر من أن تتراءى كلياً أو جزئياً خلال هذه الفترة القلقة الحالية!.

دول آسيا الوسطى: من التحالف الإقليمي إلى المطاوعة ضمن تحالف دولي

أبان القسم الأول من هذا التقرير عن عدة محددات رئيسة تحكم العلاقات الخارجية الإقليمية لجمهوريات أسيا الوسطى سيما فيما يتعلق بالشأن الأفغاني، والذي لاشك أن له صداه الممتد مع بوادر الأزمة الناجمة عن تداعيات وقائع الحادي عشر من سبتمبر 2001، وبالتحديد عقب التصريح الأمريكي في صيغة السؤال الحرج: "**معنا أم الإرهاب؟**" ويمكن الإشارة في هذا إلى أهم هذه المحددات كالآتي:

- التوجه الداخلي: فأمام رد الفعل الشعبي المباشر الذي اجتاح مناطق عديدة من العالم الإسلامي وبالتحديد المنطقة المحيطة، كان على الموقف المفصل لهذه الجمهوريات ألا يتعجل إثارة ما تحت الرماد، سيما في طاجيكستان وأوزباكستان وتركمانستان الواقعة على الحدود الأفغانية، والتي تشهد الأوليان منها حركة إسلامية ذات بال وذات ارتباط ما بطالبان.
- أن أنظمة الحكم بهذه الدول كانت على مرِّ تجربتها منذ الاستقلال في مواجهة حركة إسلامية متنامية وممتدة في الداخل وعبر الحدود: تهدد وجودها في السدة، وتجمع بين المواجهة المجتمعية والسياسية وبين الحرب الأهلية على غرار الوضع في طاجيكستان (1992-1997)، وأنه قد جرى اعتماد الربط المنهجي بين التوجهات الإسلامية لحركة طالبان وبين هذه الجماعات تحت تسميات "**الإرهاب الدولي القادم من أفغانستان**"، والتطرف الإسلامي الممتد، و"**الأممية الأصولية الإسلامية**" وغيرها.
- أنه جرت خطوات إقليمية مدفوعة من هذه المواجهة انتظمت في ترتيبات مجموعة شنغهاي ومحور موسكو-الهند-إيران، معلنة موقفها المناوئ لطالبان والأفغان العرب، ضمن توجه عام ذكر فيما سبق باسم "**الرهاب الإسلامي**" كهاجس إقليمي حيوي سيطر على سياسات هذه الدول تجاه أفغانستان.
- أنه في ذات الوقت لوحظت حالة من الهرولة من قبل أنظمة هذه الجمهوريات الخمس نحو الغرب سيما الولايات المتحدة وإسرائيل.. ومن ثم فإن احتمالات الرد على السؤال المطروح تتبدى مقدماً، إلا أن فعاليات هذه الردود التي تشكل موقف كل منها من الأزمة الراهنة، خضعت بدرجات متفاوتة لمحددات أخرى أكثر جزئية وخصوصية من قبيل:
- التوجه الروسي: إذ بدت حالة من الانتظار المتبادل في صياغة تفاصيل الموقف من قبل هذه الجمهوريات من جانب ومن قبل موسكو على الجانب الآخر، في إطار نظر البعض إلى بقايا الماضي التنافس بين وريثة القطب الشرقي من جهة وبين الولايات المتحدة والغرب من الجهة الأخرى.. لقد بدا الجانبان في انتظار الضوء الأخضر لتأييد متبادل أو لترتيب مواقف متوائمة من الأزمة الراهنة.
- التوجه الأمريكي نفسه: في مراميه البعيدة ومطالبه المحدودة وآثاره القريبة المحتملة، في ظل ما يشار-منذ مطلع التسعينيات-حول مخططات غربية بزعامة واشنطن

للانقضاض على ثروات بحر قزوين والقوقاز وللاقتراب الاستراتيجي من حديقة الكريملين وسور الصين ومن سائر "الدول المارقة" في الشرق كإيران وكوريا الشمالية وإلى حد ما غير الحميمة جداً كالهند، هذا التوجه الأمريكي ذو الأبعاد المتراكبة مثّل لهذه الجمهوريات عنصر قلق بارزاً، سيما مع حقيقة متاخمتها لأفغانستان، وإرهاصات السعي الأمريكي لاستخدام أراضيها وأجوائها في شن هجمات على أفغانستان، بما يعني أن هذه الدول كانت في موقف شديد الإحراج من جهة مقاربة لتلك التي أصابت باكستان؛ إذ يطرح عليها تساؤل أكثر خطورة وتحديداً: **"معنا في الحرب العسكرية أم مع الإرهاب في الحرب أيضاً"؟**

وعليه فقد جاء الموقف المبدئي لهذه الجمهوريات- سيما الثلاث التي نعني بها-غير مختلف جوهرياً عن رد الفعل الرسمي عالمياً، في إعلان "**التضامن والتجاوب**" مع الجهود الأمريكية ضد الإرهاب، دون تحديد لمعنى أو نوعية أي شئ سواء من مفهوم الإرهاب أو من يقع تحته أو الأعمال التي يمكن اتخاذها ضده، الأمر الذي ترتب عليه وبناء على المحددات السابقة استغراق الأسبوع الأول من الجولة الأولى لأزمة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر فيما يشبه التردد أو التريث أو محاولة التقاط الأنفاس عقب الصدمة، إلا أن الأسبوع الثاني شهد الفصام المعتاد والمنتظر بين خطابات التحفظ وممارسات المطاوعة التي توالت مع استقبال طلائع القوات الأمريكية البرية والجوية سيما في طاجيكستان وأوزباكستان، على حين جاء الأسبوع الثالث والرابع كاشفين عن انتصار القناعات الذاتية لمفاتيح السياسة الخارجية لهذه الدول في الانطباق شبه القائم مع التحالف الدولي. وفيما يلي نتبين هذا تطور عبر الجمهوريات الثلاث الأكثر اقتراباً من التداعيات على النحو التالي:

طاجيكستان:

في رد فعل تلقائي على المطلب الأمريكي لاستخدام المجال الجوي الطاجيكي في حملة ضد أفغانستان يعكس أثر المحددات السابقة بوضوح، وأثر انعدام دور المبدأ الحاكم في ظل عليه النهج البراجماتي على القيادة الطاجيكية ومع عدم تبين الرؤية الأولية للموقف أمامها، صرح رئيس الوزراء "**كاليكوف**" (9/15) أن بلاده لا ترغب في استخدام مجالها الجوي لتوجيه ضربه عسكرية لأي دولة مجاورة؛ "**لأنها تخشى رد فعل الدول الأخرى المجاورة لها، كما أنها تخشى أيضاً رد فعل المجتمع الطاجيكي الذي سيرفض بالتأكيد ضرب (إخوانه) في كابول، معلناً أن الولايات المتحدة طلبت من بلده استخدام مجالها الجوي، وأن بلاده لم ترد رسمياً على واشنطن وستشاور روسيا في هذا الشأن**"[131]

إلا أن نهاية هذا الأسبوع الأول شهدت خطوة للأمام نحو بناء الموقف الطاجيكي حين أعلن الرئيس إمام على رحمانوف استعداد بلاده للتعاون مع "**الأسرة الدولية**" ومن بينها الحكومة الأمريكية في الحرب ضد الإرهاب والتطرف الدولي[132]؛ الأمر الذي آثر التمويه عليه سيما في نوع التعاون المقصود وهل هو التعاون العسكري على نحو ما طالبت به الولايات المتحدة؟ وحاولت الخارجية الطاجيكية الإجابة مؤقتاً عنه بنفي السماح الأمريكان بإقامة قواعد عسكرية[133].

وعلى الرغم من محاولات سابقة لرحمانوف للتخلص من ثقل الظلال الروسية على السياسة الخارجية لطاجيكستان، إلا أن اضطراب التصريحات الرسمية على هذا النحو خلال الأسبوع الثاني بين التحفظ والمطاوعة فالتأييد المطلق جاء إلى حد كبير متماشياً مع ترددات الموقف الروسي فيما أبان عن تواصل هذا التأثير، فتزايدت أعداد قوات حرس الحدود الروسية من أحد عشر ألفاً إلى ثلاثين ألفاً على خط الحدود الطاجيكية-الأفغانية (1300كم).

بيد أنه من الواضح أن درجة اضطراب الخطاب الطاجيكي كانت على خلاف السرعة التي تجري

الاستجابة بها إلى المطالب الأمريكية أو تلك القفزات التي تتنقل بها السياسة الروسية إزاء هذه المطالبات. ففيما تعلن وكالة "**إنترفاكس آي.في.إن**" الروسية موافقة طاجيكستان على استخدام الولايات المتحدة لقواعدها العسكرية، تزامناً مع إعلان الرئيس الروسي بوتين استعداد بلاده لإتاحة المجال الجوي للمساعدات الإنسانية وما يشبهها، فإن دوشانبة آثرت تأخير امتداد خطابها إلى هذه النقطة ربما تحرزاً من رد فعل شعبي وإسلامي عنيف يوقع نظام رحمانوف فيما يماثل المأزق الباكستاني؛ فأعلن الناطق باسم وزارة الدفاع "**زروب الدين سيرودجيف**" أنه لم يتم النظر بعد في وضع قواعد عسكرية تحت تصرف الجيش الأمريكي، مضيفاً أن بلاده لن توافق على استخدام الأمريكيين لأراضيها من دون التشاور مع روسيا [134] ؛وذلك على الرغم من الجولة الطارئة التي قام بها "**فلاديمير روشايلو**" الأمين العام لمجلس الأمن الروسي لجمهوريات آسيا الوسطي لتقويم الوضع وتنسيق المواقف المائلة ساعتها.

على كل حال فإن هذا التحفظ والحذر الطاجيكي لم يستمر طويلاً؛ إذ على ضوء الانطلاق الروسي في سبيل دعم التوجه الأمريكي، أعلنت دوشانبة موافقتها الرسمية على فتح المجال الجوي أمام القوات الأمريكية، ووعدت بتأمين وقت الحاجة [135]، فيما راحت تلعب دوراً مزودجاً يضاف إلى جهود التحالف الدولي ويصب في عملية الضغط المتضخمة على حركة طالبان؛ فمن ناحية مثلث طاجيكستان قاعدة هجوم متقدمة بالنسبة لروسيا سمحت بإطلاق التهديدات الروسية العسكرية المباشرة ضد طالبان، ومن ناحية أخري مثلث قناة اتصال وإيصال للمساعدات العسكرية الروسية إلى قوات التحالف الشمالي التي تسيطر عليها قيادات ذات ارتباط إثني بطاجيكستان أي من الطاجيك (رباني ومسعود ثم فهيم من بعده)، الأمر الذي تكلل باللقاء الثلاثي بين بوتين ورباني ورحمانوف كما سبقت الإشارة إليه، والذي تضمن تصريح بوتين بتقديم قصارى الدعم اللازم على هذه الجبهة.

فيما كانت الإجراءات الفعلية للإعداد للحرب على قدم وساق، غير آبهة بسيل التهديدات المطلقة من قبل مسئولي طالبان، فإن شيئاً ذا بال لم يلاحظ على الشارع الطاجيكي، سيما في ظل تضارب مواقف الطرف الداخلي الفاعل: "**جماعة النهضة الإسلامية**". فعلى الرغم من كونها أضحت الحزب الإسلامي الوحيد في آسيا الوسطي الذي يمارس نشاطه بحرية طبقاً للدستور الطاجيكي الذي تم التصويت عليه في أعقاب الحرب الأهلية، فإن التناقض بين زعامات هذا الحزب إزاء الأزمة والدور الطاجيكي فيه، مهد السبيل أمام قناعات النظام الحاكم لكي تفعل مفعولها.

فأمام ما أشار إليه بعض المراقبين بالرغبة في البقاء الرسمي والقناعة بالقنوات القانونية السلمية عقب جهاد مرير، أعلن زعيم حزب النهضة "**سعيد عبد الله نوري**" موافقته على محاربة الإرهاب "**أنى وجد**"، رافضًا فتوى ابن لادن المعروفة بفتوى الجهاد، "**لأن ابن لادن ليس في موقع يؤهله لإصدارها**" [136]، إلا أن نائب نوري في الحزب اتخذ اتجاهًا آخر يستنكر موقف دوشانبة المعاون لـ "**الإرهاب الأمريكي الذي يريق دماء الأبرياء**"؛ إذ أعرب "**محمد شريف همت زاده** "عن تمنيه ألا تشترك طاجيكستان في "**اللعبة الكبرى**"[137]، إلا أن أحد المراقبين أشار إلى اتفاق هذين الاتجاهين في الوقوع تحت تأثير الحملة الإعلامية، فيما يبدو من تأكيدهما على خلو طاجيكستان من أنصار ابن لادن[138]

وهكذا تضافرت القناعة الذاتية لرحمانوف وحكومته مع الدفع الروسي والحفز الإقليمي والعوامل الإثنو– سياسية، والسلبية الشعبية–حتى من قبل القوي الإسلامية – في تشكيل الموقف الطاجيكي المطاوع تماماً للمطالب الأمريكية ضمن ما عرف بالتحالف الدولي ضد الإرهاب.

أوزباكستان:

على حين خف ثقل الضغط الروسي على السياسة الخارجية الأوزبكية مقارنة بالحالة الطاجيكية، فإن ثلاثة

عوامل رئيسة أخرى من المحددات العامة المشار إليها عاليه تبدو أكثر فاعلية في موقف طشقند من ذات القضية: يتمثل أولها – والذي كان الأكثر غلبة وتأثيراً – في متانة العلاقات بين نظام كريموف والغرب والولايات المتحدة وخاصة عبر تركيا وإسرائيل، فيما يتولد ثانيها عن الداخل الأوزبكي ذاته في ظل صراع البقاء بين الأبوية "**الكريموفية**" التي تؤكد عدم ملاءمة الديموقراطية للشخصية القومية الأوزبكية وبين المعارضة متنوعة الاتجاهات التي يمثل الاتجاه الإسلامي فيها التيار القائد أو الأكثر إثارة، ويقع ثالثها في حقيقة الاتصال الجغرافي المباشر بطالبان وقواتها دون موانع من جيوب المعارضة تحول دون مهاجمة ميلشيات طالبان لحدودها (130كم) عبر نهر جيحون.

ففي البداية جاء أثر العامل الأول إيجابياً وسباقًا، فلم تشهد أوزبكستان نفس القدر من التردد والتريث الذي أبدته جارتاها، واندفع إسلام كريموف يعلن بصورة حماسية مساندة بلاده "**لعمل مشترك**" مع الولايات المتحدة ضد مراكز الإرهاب في المنطقة[139]، على الرغم من أن تفاصيل هذا العمل المشترك ظلت على مستوي الخطاب المعلن تحتفظ باستدراك باهت باسم "**عمليات الحث والإنقاذ داخل أفغانستان** "، فقد جاءت أنباء الأسبوع الثاني حول توالي وصول القوات والطائرات إلى القواعد العسكرية والمطارات في أوزباكستان، لتؤكد على حقيقة الارتباط الوثيق بين النظام والغرب أكثر من أي شيء آخر. فبينما لا تزال موسكو تصرح بمعارضتها استخدام الجيش الأمريكي للقواعد السوفيتية السابقة في الجمهوريات الثلاث المتاخمة لأفغانستان، ويرفض البنتاجون تأكيد أي معلومات أولية في هذا الصدد، يعلن مصدر في طشقند (9/21) أن "طائرات استطلاع أمريكية حطت في مطار "**توزل**" العسكرية على بعد 150 كم من طشقند، علاوة على عدد من المروحيات الأمريكية ترابط في "**تشيرتشيك**". وتعلن وكالة الأنباء الروسية أن طائرتين أمريكيتين طراز **C130** مجهزتين بأنظمة استطلاع نقلتا (9/23) مئات الجنود الأمريكان إلى أوزباكستان[140].

إبان ذلك تمكنت طالبان من إسقاط طائرة تجسس أمريكية خرجت من الأجواء الأوزبكية، وشنت الحركة هجوماً خطابياً حاداً على طشقند سيما في رسالة متوكل إلى نظيره الأوزبكي (24/ 9) على نحو ما أشير إليه آنفا، وراحت طالبان تعيد انتشار قواتها ومضاداتها الجوية وتدفع بالمزيد من المقاتلين إلى حدودها مع أوزبكستان، الأمر الذي إن كان ذا أثر على موقف كريموف، فإنه لم يتعد حيز الخطاب المتجمل على نحو ما سيبين.

واتصالاً بتحييد هذا المحدد الجيو-استراتيجي، فإن المعارضة الداخلية. الإسلامية والعلمانية التي توقع الكثيرون أن توقف المسار الرسمي لم تبد أي محاولة تذكر أو استعداد للتسبب في إحداث قلاقل للنظام، الأمر الذي أفسح الطريق أمام توافد المزيد من القوات الأمريكية بأعداد وتسليح أضخم وبصورة كسرت ستر التمويه والمواربة، فزار رامسفيلد طشقند (10/3) ليعطيه كريموف تصريحاً بالسماح لطائرات الشحن والمروحيات والقوات الأمريكية باستخدام الأراضي الأوزبكية، وينسى كريموف القاذفات والمقاتلات ومنصات الصواريخ التي سيعددها الأمريكان فيما بعد، ولا ينسي أن يضيف عبارته الاستدراكية: "**ولكن فقط لعمليات البحث والإنقاذ داخل أفغانستان**"، فيما كانت الفرقة الأمريكية العاشرة (قتال جبلي) تشرع في ذات الآن في تأمين قاعدة جوية في مدينة "**تيرميز**" بالقرب من الحدود الأفغانية[141]

لقد ألهب هذا الموقف من التحرك الطالباني لتتدفق قوات الطالبان والمدفعية بعيدة المدى وقاذفات الصواريخ على هذه الحدود وسط تهديدات بعض المسئولين بـ"**غزو أوزباكستان**"[142] واستشاطت وزارة دفاع طالبان مهددة ومتوعدة: "**نشرنا قواتنا في كل المناطق الهامة: لأن تلك مسألة شرف وكبرياء، لن ننحني أمام القوات الأمريكية وسوف تقاتل حتى آخر نفس**"[143].

وفيما كانت المعارضة الداخلية مكتوفة فإن طاهر يولداش زعيم حركة أوزباكستان الإسلامية، يشن حملة خطابية على كريموف، وذلك من أفغانستان حيث يقيم مع مجموعة من عناصر الحركة (ما بين 2000-2500مسلح) معلناً الجهاد إلى جوار طالبان، بما سوف يشتد حدة عقب اندلاع القصف الأمريكي فعلاً، إذ يؤكد يولداش أنه هجوم على الإسلام، وأن موقف بلاده في فتح المطارات والأجواء يعد "**خيانة كبيرة**"، وهدد باستمرار "**الجهاد**" ضد حكومة طشقند، بل وضد طاجيكستان لنفس العلة[144]، يذكر أن يولداش محكوم عليه بالإعدام وأن حركته قادت مقاومة ضخمة ضد نظام كريموف، متعاونة مع حركة النهضة الإسلامية في طاجيكستان انطلاقاً من وادي فرغانة، كما يذكر أن الرئيس الأمريكي أعلن اسم حركة أوزباكستان الإسلامية ضمن التنظيمات الإرهابية التي تم تجميد أرصدتها عقب أحداث سبتمبر الأخيرة.

وإذا كانت طالبان قد رفضت عبر مفاوضات سابقة مع طشقند تجميد أنشطة هؤلاء المعارضين، سيما في ظل إيواء أوزباكستان لفيصل عبد الرشيد دوستم المعارض الأوزبكي الأصل، فإن بعض المراقبين يستشف من ذلك أن أحد أبعاد الصفقة الأمريكية – الأوزبكية هو التعاون مقابل القضاء على قواعد المعارضة الأوزبكية التي يعتبرها الطرفان أحد فصائل جبهة القاعدة التي يتزعمها ابن لادن[145].

وخلال هذه الأيام الأربعة السابقة على ختام هذه الجولة،صارت الأمور أكثر وضوحاً، ومن ثم تواترت التصريحات المعبرة عن الكثير من أبعاد الموقف؛ إذ أعلنت المتحدثة الرسمية باسم البنتاجون فيكتوريا كلارك (10/4) عن نشر 1000جندي من قوات المشاة من الفرقة العاشرة المذكورة، في طاجيكستان وأوزباكستان مع توقع إرسال كتيبة أخرى خلال ستة أشهر على ما يعني – على حد قول المتحدثة– أنها حرب "**مفتوحة النهاية**"، وأن مهام هذه القوات تتمثل في تأمين المقاتلات والقاذفات ووحدات البحث والإغاثة، وأن تكون على أهبة الاستعداد لتقديم الدعم للقوات الخاصة الأمريكية حال وقوعها في مأزق أثناء غاراتها على أفغانستان فيما عرفه بعض المحللين بـ "**إحكام الحلقة**" حول أفغانستان المحاصرة لبدء العمليات الجوية والبرية ضد طالبان [146]. وفي اليوم التالي (5/ 10) أكد مصدر أمريكي آخر توجه ألف جندي آخرين من الوحدات الأمريكية الخاصة إلى أوزباكستان.

ومع تحذير بوش الأخير (10/6) لطالبان من أنه لم يعد أمامها سوي القليل من الوقت لتسليم ابن لادن، توالى وصول المزيد من الوحدات الأمريكية إلى مطار ترميز في أوزباكستان بالقرب من الحدود الأفغانية[147]، فيما تكرر المصادر الأوزبكية أن تصريح كريموف يتعلق بمهام الإغاثة لا بشن هجوم بري أو جوي ضد أفغانستان، في مشهد بالغ التعبير عن حالة الشقاق الذاتي والفصام النكد التي تعاني منها الأمة على مستويات الهوية والخطاب والسلوك.

تركمانستان:

تميز الموقف التركماني ضمن جمهوريات آسيا الوسطي إزاء التفاعل مع حركة طالبان –على النحو السابق بيانه، والذي انتهي بمحاولة عشق آباد القيام بدور العراب الثاني للحركة بعد إسلام أباد– بناء على ما توفره من استقرار أفغاني يخدم مصالح عشق آباد الاقتصادية، إلا أنه من الواضح أيضاً أن الأرض التركمانية لم تحظ –من وجهة النظر الأمريكية– بنفس أهمية أوزباكستان القريبة من المناطق الاستراتيجية (قندوز ومزار الشريف) على الرغم من تطاول حدودها مع أفغانستان.

فقد أعلنت تركمانيا منذ الأسبوع الأول استعدادها للتعاون مع الولايات المتحدة، إلا أن غياب الأثر الجدي والعميق لأغلب المحددات السابقة واحتمال إشفاق نيازوف مما يثار حول أبعاد التوجه الأمريكي نحو المنطقة، وعلى رأسها البعد الاقتصادي الذي يرتكز عليه النظام التركماني أعطي الموقف التركماني وتحفظاته على التعاون مع التحالف الدولي تميزاً مشهوداً؛ فقد انعكست جدية نيازوف البادية في حصر التعاون في نطاق المساعدات الإنسانية فقط على

المواقف المقابلة. فإذا كانت واشنطن لم تعول كثيراً على هذه الجبهة، فإن زخماً معيناً لم يثر حول الموقف التركماني، سواء في الداخل الذي يفتقر – على نحو ما سبقت الإشارة إليه– إلى أي معارضة منظمة ذات بال، أو في الخارج الطالباني الذي اكتفي بالتهديد العام لدول الجوار المتعاونة مع واشنطن.

ومن ثم فإن قاعدة كوسكا السوفيتية السابقة والموجودة في تركمانستان ظلت هدفًا أمريكيًا متعذراً حتى حددت روسيا موقفها في الأسبوع التالي – بينما استمرت التصريحات التركمانية الرسمية تؤكد على ضرورة تجنب سقوط الضحايا من الأبرياء، وألا يتعدى دورها تقديم المساعدات الإنسانية ونقلها إلى الشعب الأفغاني [148].

إذا أضفنا إلى ذلك تصريحات المسئولين في كازاخستان وقيرغيزيا المتحمسة للتعاون مع واشنطن والمهيجة على الأصولية الإسلامية، يمكن القول إن الحلقة قد أحكمت فعلاً في آسيا الوسطي وأن أوتار القوس قد شدت و لم يبق سوي السهم الأمريكي لكي تندلع الحرب، إلا أن هذا المشهد بعمومه يعد ثمرة لجذور كبيرة تمتد في قوى ثلاث كبرى باقية، كان لموقفها الأثر الكبير في تشكيل أبعاد وسياسات هذه الجولة من تداعيات الحادي عشر من سبتمبر هي:- روسيا، والصين، والهند، وفيما يلي نستعرض مواقفها إبان هذه الجولة.

ثالثًا – الجوار غير المباشر:

1. روسيا: فرصة مناسبة للتعرف على الذات وحدودها

على الرغم من انقضاء حقبة الحرب الباردة بكل مشتملاتها مع تفكيك أوصال ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي، فلا تزال الكثير من التحليلات الرائجة تضفي على روسيا الاتحادية صفة الوريث الأكبر لهذا الاتحاد، ليس على صعيد الإمكانيات والمشكلات كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن وحسب، بل أيضاً في وراثة طبيعة وآليات العداء للغرب بزعامة الولايات المتحدة... الأمر الذي يصنع وهماً كبيراً يغفل حقائق الوضع الروسي التي تراكمت عبر إدارة بوريس يلتسن، وما أضيف اليها من مسارات وتوجهات منذ تولي فلاديمير بوتين الحكم بالوكالة ثم فعليًا في مارس 2000.

لقد غلبت هذه الميول على تحليلات محددات الموقف الروسي من أحداث الحادي عشر من سبتمبر خلال الأسبوع الأول؛ إذ لم يكن الموقف الروسي قد تبلور وتحددت ملامحه بعد، فما هي المحددات والحدود الحقيقية للسياسة الخارجية الروسية الحاكمة والمنتجة لرد الفعل الروسي إزاء دعوة التحالف الدولي ضد الإرهاب التي أطلقتها واشنطن.

إجمالاً، يمكن القول إنه إذا كانت روسيا ورثت ترسانة نووية ضخمة عن سلفها السوفيتي، بما أبقاها في عداد القوى الكبرى، وأضفى على سياستها الخارجية درجة عالية من الاهتمام العالمي والإقليمي ظاهريًا، فإنها ورثت أيضًا عوامل الوهن التي لازمت الاتحاد السوفيتي خلال عقديه الأخيرين سيما على الصعيد: الاقتصادي والاجتماعي والقيمي، وباتت بحاجة ماسة إلى إعادة تعريف نفسها داخليًا، الشيء الذي تولت أمره قيادات جديدة تميزت قبل كل شيء بالتنكر التام للماضي الشيوعي بتوهماته وحقائقه، اللهم إلا بقايا سمات من قبيل: السلطة ذات القبضة الحديدية، تغلغل النفوذ اليهودي في الحكم و المجتمع، السياسة التدخلية في دول آسيا الوسطي المنتسبة إلى عالم الإسلام دون سائر جمهوريات الاتحاد الغابر باسم رابطة أو كومنولث الدول المستقلة.

لقد كان الشيء الجديد بالفعل والذي خاضت فيه بقوة إدارة يلتسن لثمانية أعوام وراكمت عليه إدارة فلاديمير بوتين منذ مطلع العام 2000، هو نفض غبار العلاقة الصراعية مع الغرب، والسعي الجاد لفتح ملف جديد لعلاقات تتراءى خصائصها الإيجابية من زوايا الصداقات الشخصية بين القادة الجدد والنخب الغربية، والتعاون في

المجالات الاقتصادية والسياسية والأمنية والاستراتيجية، الأمر الذي يعنينا منه مقايضات وتوافقات التوجه الروسي مع الخط الغربي والأمريكي فيما يتعلق بالقضايا الإسلامية كلاً وتفصيلاً، على نحو ما أسفرت عنه تجارب: الشيشان، البوسنة، كوسوفا، العراق، فلسطين، وأفغانستان والأصولية الإسلامية عبر التسعينيات، على النحو الذي سبق بيانه، بما ينتهي بنا إلى نتيجة هامة نسعى لاستبيان مدي مصداقيتها، مفادها: **"أن البراجماتية الغالبة على التوجه الروسي الراهن تعلوها رغبة أقوى في مواجهة تنامي الأصولية الإسلامية، سيما في جوارها القريب وبالأخص القابعة في أفغانستان "**، ولقد جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتداعياتها لتكشف بوضوح عن أبعاد هذا الإطار المحدد للسياسة الخارجية الروسية.

كانت روسيا في مقدمة الدول التي سارعت بالإعراب عن تعاطفها مع الأمريكان إزاء ما أسمته برقية بوتين لنظيره الأمريكي بـ **"العمل الإرهابي"** و"المأساة العميقة مؤكداً أن مثل هذه الأعمال يجب ألا تمضي دون عقاب. وفي الداخل الروسي حرصت موسكو على التعبير عن مشاعر المواساة بإعلان الحداد لمدة يوم في عموم روسيا وتنكيس العلم الروسي فوق هيئاتها الحكومية، فيما توافد المئات للتوقيع في سجلات التعزية بالسفارة الأمريكية بموسكو[149].

وفيما لم تكن عبارات التعاطف والمشاركة في الغضب – بصورتها العامة – تعني الكثير بالنسبة لرد الفعل الأمريكي المتفاقم مبكراً ،والذي وقف وراءه إعلام يهودي حانق على العرب والمسلمين، فإن ذات الإعلام راح يشن حملة شعواء في أغلب وسائل الإعلام الروسي للتحريض ضد كافة قطاعات الأمة بإسقاطها تحت الخط الأصولي الإسلامي الذي اعتبرته هذه الدوائر تهديداً للحضارة الإنسانية، رابطة بعبارات مثيرة بين ما حدث في نيويورك وواشنطن وما يجري في القدس والشيشان[150].

وعلى الرغم مما يرجحه التحليل السابق للموقف الروسي قبل 11 سبتمبر من المسألة الطالبانية من احتمال الإسراع بمطاوعة التحالف الدولي الذي دعا إليه بوش، إلا أن عدداً من الاعتبارات ساهم في تردد الخطاب الروسي بين التجاوب،بل وأحياناً الحفز نحو تفكيك قواعد الإرهاب في المنطقة، وبين التحفظ ضمن مخاوف عدة من جانب، ومطامع من جانب آخر تثيرها هذه الفرصة السانحة. فأمام التقارير الماضية حول المساعي الأمريكية لاختراق المنطقة وما يمكن أن يمثله ذلك من تحجيم للنفوذ الروسي والحد من حرية حركته إقليميًا، وأمام هذا التوجه المتشدد الذي صرحت به إدارة بوش تجاه روسيا منذ أوائل العام2001 خاصة فيما يتعلق ببرنامج الدفاع الصاروخي المضاد للصواريخ والتلويح بالانسحاب من اتفاقية **ABM** المعقودة مع السوفيت منذ العام 1972ا، وكذلك المماطلة الأمريكية الأوروبية في دعم الكريملين أمام قوى اليمين واليسار المعارضة في الداخل بإعاقة مطامح قبول روسيا شريكًا في ترتيبات الأمن الأوروبي، وفي فعاليات وآليات عمل الناتو، علاوة على التحفظ النابع من المؤسسة العسكرية الروسية التي لا تزال تعبر عن رواسب حلم الدب الروسي....إزاء كل ذلك كان لابد وأن يغلف الرد الروسي الأولي بمشروطيات وحدود للتعاون مع الولايات المتحدة.

فتعقيبًا على إعلان كولين باول (9/13) رغبة واشنطن في إقامة تحالف دولي لمكافحة الإرهاب يرتكز بالأساس على دول حلف شمال الأطلسي ودول الشرق الأوسط،في ضوء تحريك المادة الخامسة من ميثاق الحلف التي تفضي على **"ضرورة تضامن دول الحلف عندما تتعرض إحداها لهجوم"**،طرح وزير الدفاع الروسي سيرجى إيفانوف (9/15) أن موسكو لن تسمح لحلف الناتو أن يتخذ من أي منطقة في جمهوريات الاتحاد محطة له أو قاعدة له...إن روسيا مستعدة لتقديم كل سبل الدعم لعمل **"التحقيقات"**،لكنها لن تشارك بأي حال من الأحوال في

الهجوم على أفغانستان،التي تورطت معها روسيا في حرب مميتة من سنة 1979إلى1989"[151].

وفيما كان المراقبون يتشككون في ثوابت ومتغيرات الموقف الروسي، بين مرجح للتطور نحو التعاون والتحالف بناء على الثوابت السابق الإشارة إليها، وبين متطلع إلى ضغط روسي على التوجه الأمريكي يحد من فاعليته، فإن التسعير اليهودي الداخلي أضيف عليه تصعيد الشيشان لهجماتهم العسكرية، ليذهب ذلك بالموقف الروسي إلى نقطة بعيدة.ففي السابع عشر من سبتمبر أعلن مكتب الرئيس الشيشاني-أصلان مسعودوف-سيطرة قوات تابعة له على مدينة"**غودرميس**"الاستراتيجية، ونقلت الوكالات تواصل المعارك حول المدينة، وأن تسعة عسكريين روس أحدهم برتبة جنرال لقوا مصرعهم احتراقاً بعد إسقاط المقاتلين الشيشان مروحية عسكرية كانت تقلهم فوق جروزني وغيرها من الهجمات التي شهدها هذا اليوم(9/17)، الأمر الذي توقع المراقبون أن يؤدي إلى نتائج سلبية؛ إذ يعطي الفرصة لإدارة بوتين لتنفيذ مخططاتها، وتحقيق قناعتها بالإجهاز على الحركة الإسلامية في المنطقة كمصلحة قومية روسية مباشرة ضمن التحالف الدولي الذي تسعى إليه واشنطن[152].

لقد كان لذلك مردود خطابي عاجل عبر لقاء سيرجي إيفانوف وباول (9/19)؛ إذ أعلن الوزير الروسي الاتفاق على استخدام القوة وتنسيق الأدوار في ذلك....إلا أن خطاب التحفظ استمر خلال هذا الأسبوع الثاني؛ حيث جدد بوتين (21/ 9) تأكيده على "**التنسيق**" مع الولايات المتحدة في الحرب ضد الإرهاب، "فقط في إطار القوانين الروسية والتعهدات الدولية التي وقعتها روسيا[153]، بينما خفت الصوت الرسمي المعارض لـ "**الاقتراب الأمريكي**" من تخوم روسيا، أي بإقامة قواعد أمريكية في آسيا الوسطى، أو باستخدام القوات الأمريكية للقواعد السوفيتية السابقة فيها. من الواضح أن تحركات موازية كانت تمهد لتحول نوعي في الموقف الرسمي لروسيا؛ إذ اجتمع الرئيس الروسي في اليوم التالي مع عدد كبير من المسئولين على رأسهم وزير الدفاع سيرجي إيفانوف وأمين عام مجلس الأمن القومي الروسي "**فلاديمير روشايلو**" الذي كان عائداً لتوه من جولة طارئة في دول آسيا الوسطي فيما يبدو أنه كان بغاية تنسيق الموقف إزاء المطالب الأمريكية المتزايدة تحديداً وإلحاحاً. لقد بدا أن روسيا تنتظر بيان الجميع لمواقفهم لتقدير موقفها الخاص على ضوء ذلك، ومن ثم دعت إلى قمة طارئة لدول الثماني الكبار، لمناقشة مسألة الإرهاب الدولي [154].

وعليه كان الموقف الروسي المتردد محل اختبار حقيقي، حين طلب بوش بصورة شبه رسمية تأييد روسيا، دون تحديد لنوعية هذا التأييد عبر اتصال هاتفي مع بوتين(9/22) سيما فيما يتعلق بالسماح باستخدام المجال الجوي لدول آسيا الوسطي الثلاث المتاخمة لأفغانستان؛ الأمر الذي فتح المجال أمام الاستواء بين القناعات القيادية والبيئة الموضوعية المدركة من قبل النخبة وأغلب العامة في روسيا في ضرورة التواؤم مع التحالف الأمريكي والسعي للاضطلاع بدور قيادي ومتميز في إطاره.

ففي كلمة بثها التليفزيون الحكومي الروسي (9/25) أعلن بوتين عن توسيع نطاق تعاونه ومساندته للعمليات العسكرية الأمريكية التي باتت حتمية في أفغانستان، مفصلاً مجالات هذا التعاون في[155]:

- إرسال أسلحة ومعدات عسكرية إلى المعارضة الأفغانية في الشمال وتوسيع نطاق التعاون مع حكومة أفغانستان المعترف بها دوليًا، في انتقال مبكر وصريح إلى ما لم تقدم الولايات المتحدة على الخوض فيه إلا في مرحلة متأخرة.
- فتح المجال الجوي لبلاده لتحلق فيه طائرات تحمل "**المساعدات الإنسانية**" إلى المناطق التي تنفذ فيها عمليات ضد الإرهاب، علاوة على الدعم اللوجيستي من خلال الجمهوريات المتاخمة لأفغانستان.

- التعهد بتقديم المخابرات الروسية لكافة المعلومات التي لديها بشأن البنية الأساسية للإرهاب، ومواطن تواجد الإرهابيين الدوليين، وقواعد تدريب المقاتلين.
- تكثيف التشاور مع حلف الأطلنطي بشأن مساعدات روسيا للتحالف.

وبالفعل بدأت القفزات المتسارعة، إذ التقي وزير الدفاع إيفانوف في اليوم التالي (9/26) في بروكسيل مع وزراء دفاع الناتو ونائب وزير الدفاع الأمريكي بول ولفوفيتز، والذين أكدوا على استمرار الاتصالات للتنسيق قبل بدء العمليات. في ذات اليوم كان وزير الخارجية الروسي إيجور إيفانوف يؤكد احتمال تعاون موسكو وواشنطن في التصدي لمن أسماهم "**الإرهابيين الشيشان**"، مشيراً إلى التعاون القائم فيما يخص التحركات العسكرية ضد طالبان والقاعدة، فيما عده الكثيرون الصفقة الأول التي خرجت بها روسيا – أو تتمنى أن تخرج بها – من هذه الجولة، إذ راهنت موسكو على أن القضاء على طالبان يعد المقدمة الصحيحة لإنهاء العملية العسكرية في الشيشان في غضون 15إلى 20 يوماً على حد قول وزير الخارجية الذي ما فتيء يذكر بالعلاقة بين زعماء الشيشان مثل القائد أمير خطاب – الأردني الأصل – وبين أسامة بن لادن[156].

على الجانب الآخر الداخلي جرت عمليات متضادة التأثير على السياسة الروسية بين خبراء ينصحون بتأمين موسكو ومؤسسات الدولة والمواقع الحيوية والنووية حتى لا تقع في متناول الأهداف الإرهابية على غرار ما جري في واشنطن ونيويورك، وهذا الرأي الذي تزعمه وزير الدفاع الروسي السابق "**شابوشينيكوف**"[157]، ومن يروجون الأقاويل باحتمالات هروب ابن لادن إلى الشيشان أو إحدى دول آسيا الوسطي[158]، ومن يوقدون نارًا للحرب ويناضلون من أجلها من قبيل اليهود الروس الذين حملوا على عبارات بوش التجميلية التي تصف الإسلام بأنه دين سلام وتفصل ما بينه وبين الإرهاب والإرهابيين على حد ما جاء في صحيفة "**كمرسنت ديلي**" الواقعة تحت نفوذ الملياردير اليهودي الهارب بوريس يبيرزوفسكي –السابق الإشارة إليه– بل راحت نفس الدعاية اليهودية تكيل الاتهامات لمؤتمر عقد في موسكو جمع علماء الدين المسلمين والمسيحيين، إذ وصمته بمؤتمر "**دعم الإرهابيين**"... فيما طالب زعيم كتلة يابلوكا في الدوما –اليهودي يافلينسكي– بتعليق دعم موسكو لواشنطن على "**ضرب مواقع الإرهابيين في كل مكان**"[159].

هذا على جانب، بينما على الجانب الآخر ظهر تيار التريث والحذر والبحث عن الذات، إذ يصرح رئيس مجلس الدوما – جينادي سيلزنيوف – بأنه "**لا يجب علينا أن نشارك واشنطن في نواياها، ولا نريد أن نقدم مطاراتنا لها** "وتساءل:" **ضد من ستحارب أمريكا؟ ولمصلحة من نزج بأنفسنا في حربها؟**"[160]، وتوالت "**نصائح**" خبراء الحرب الروس التي وصلت أحياناً إلى حد التخويف والإرجاف للأمريكان والروس من مغبة الإصرار على مهاجمة أفغانستان وغزوها، فيذكر الجنرال ألكسندر روتسكوي – نائب رئيس روسيا سابقاً والمعروف ببطل الاتحاد السوفيتي – الجميع بعبارة للإسكندر الأكبر تقول: "**يمكن للمرء المرور بأفغانستان، أما البقاء فيها فذلك مستحيل**"، وينصح قائد القوات الروسية في أفغانستان (1987-1989) الجنرال بوريس جوردسوف، القيادة الروسية بـ"**عدم التورط بإرسال أي جندي إلى أفغانستان أو المشاركة بأي شكل من الأشكال في التدخل**"[161]، ثم انضم رجال الأرثوذكسية الروسية لهذا التيار؛ إذ حذر بطريرك موسكو (9/24) من صراع إسلامي – مسيحي[162].

في غضون ذلك عبر بوتين عن وقوعه تحت تأثير الجانب الأول المسعر للحرب عبر خطابه في البوندستاج (البرلمان الألماني) إذ أنفذ رسالة إلى الولايات المتحدة، بأنها إذ تحارب الإرهاب تصر على عدم وضع الشيشانيين على لائحتها للإرهاب[163]، إلا أن وكالات الأنباء أذاعت أن واشنطن منحت روسيا تفويضاً لتنفيذ اقتراح للكرملين

بعقد (محادثات سلام) مع المقاتلين الشيشان رغبة في عدم المشاكلة على حملتها الراهنة[164].

وإزاء هذا الموقف الأمريكي غير الداعم بشكل كبير للتحرك العسكري الروسي في الشيشان، على خلفية تصريحات منظمات حقوق الإنسان باحتمالات أن تكون الشيشان هي الثمن[165]، توقع البعض تجمد الموقف الروسي على تحفظاته الباقية إلا أن بوتين أعلن مع نهاية سبتمبر ومطلع أكتوبر"**تحالف**" بلاده مع واشنطن في خطوات عسكرية أكثر تقدمًا، أهمها: تأمين الجبهة الشمالية لأفغانستان، والسماح بإقامة قواعد أمريكية مؤقتة في الجمهوريات السوفياتية السابقة المجاورةلأفغانستان، الأمر الذي كان له صداه على الموقف الطاجيكي الذي كان متردداً في إعلان فتح أجوائه أمام الطيران الأمريكي إلى هذا الحين على نحو ما أشرنا إليه[166].

وعليه فإن الدعم الروسي للتحالف تدرج حتى وصل إلى الدرجة التي لم يبق بعدها سوي إشراك قوات روسية في الهجمات الأمريكية، الأمر الذي لم تطلبه الولايات المتحدة حتى من أدني حلفائها في شمال الأطلسي، اللهم الاّ المملكة المتحدة التي بدا رئيس وزرائها الأكثر تحمساً وتحركاً خارج الولايات المتحدة لتشييد التحالف الدولي.

وخلال الأيام القليلة التي سبقت الحرب، لم يعد ثم مكان للتحفظ الخطاب؛ حيث تسلمت موسكو دورها الداعم على مستوي التحركات الدبلوماسية والخطاب الإعلامي، وعلى المستوي العسكري فيما راح يتدفق على تحالف الشمال المعارض لطالبان من معونات.. بل إن روسيا راحت تشارك بقوة في التحضيرات المسبقة لترتيبات **"ما بعد طالبان"**؛ حيث أعلنت عن رفضها المطلق لمشاركة أي أعضاء من طالبان ممن يوصفون بالمعتدلين، وشددت على أن أي حكومة بديلة لابد أن تخلو تماماً من العناصر الأصولية وعلى ضرورة عودة الحكومة الشرعية المعترف بها؛ حيث كانت علاقاتها بها أوثق، وذلك بالنظر إلى برودة ارتباطات روسيا بتجمع روما الذي بدا وقد تخلق في رحم الغرب، ولا يلتفت إلى التعاون مع روسيا إلا ضمن التبعية للسياسات الغربية.

وهكذا فقد فشل مرة أخرى الاعتماد في التحليل السياسي على منطق"**المصلحة**" وحده مجرداً من العوامل القيمية الثقافية والحضارية، المنطق الذي يصر على إغفال دور المبادئ والقناعات الحاكمة والممزوجة بحسابات المصالح، والقادرة على القيام بدور المرجع بين هذه المصالح حال تعارضها، بل وكثيراً -في مثل مواقف الأزمات هذه- ما تسود على هذه الاعتبارات المصلحية وتجبها، خاصة إذا ما تعارضت المبادئ الجذرية نفسها على غرار ما هو قائم في الحالة الإسلامية بعامة، وفي صورتها الأصولية الكائنة في هذه المنطقة بخاصة.

وإذا ما كانت السياسة الروسية عبر الجولة الأولى تمثل تعبيراً واضحاً عن هذه النتيجة، فإن السياستين: الصينية والهندية تزيدان الأمر جلاءً.

2. الصين: تعايش المتناقضات

تمثل الصين بالفعل – كما تشير أغلب الدراسات[167]حول شئونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية- نموذج التناقضات والازدواجيات المتعارضة والمجتمعة في صعيد واحد. يمكن تبين هذه الجدلية في قيادة الحزب الشيوعي لاقتصاد السوق والإصلاحات على نمط شبه غربي، والتجاوب مع عمليات ظواهر العولمة بالسعي نحو تحرير التجارة الصينية بالانضمام إلى منظمة التجارة العالمية، كل ذلك في ظل هيمنة أشكال الاشتراكية الصينية التي لا يزال الكثير من الدارسين والممارسين يتفاعلون معها كميراث للحقبة الماوية (49-1973)، ثم القوميات والعرقيات من الهان والزوانج والمانشو والهيوي والمياو والويغار(أو الإيغور المسلمين) والواي والمنغول والتبت والبيوي والكريون وغيرها من الأقليات الأصغر حجمًا وما تتمسك منها من ثقافات وهويات سيما مسلمي الإيغور فالهيوي... وذلك أيضاً في

ظل إصرار نظام الحكم على تدشين وحدة وطنية لا تقيم وزناً لدين معين، وتؤكد على شمولية الثقافة الكونفوشية(القارية) وما يعرف بالقيم الصينية الممتزجة بتجديدات الماوية الشيوعية، والتي راحت حدتها تخف تدريجاً خلال عهدي ديانج هسياو وجيانج زيمين الأخيرين.

إلا أن الساحة الخارجية تفرز شواهد أكثر على هذه الحقيقة الأشبه بحركة الديالكتيك (صراع التناقضات) الشائعة في الأدب الشيوعي؛ حيث تحرص الصين على القبض بقوة على عنان سياستها الخارجية، الأمر الذي يبديها شديدة الإحجام إلى درجة السلبية المطلقة في كثير من الأحيان. فبينما تبدو الصين أحياناً بسبيلها لقيادة حركة منظمة لدول العالم الثالث أو المجموعة الأفرو-آسيوية في مناهضة العولمة والهيمنة الاقتصادية والحضارية والثقافية الغربية، تفصح سائر ممارساتها عن إيماءات سلبية وربما تجاوبات عريضة مع السياسات الغربية والأمريكية إلى الدرجة التي تحولت فيها الصين من الممانعة إلى الاندفاع نحو الانضمام للمؤسسة العولمية الجديدة على نحو ما أشير إليه.

ومن جانب آخر فيما يتعلق بالعالم الإسلامي تجمع الصين بين الاعتراف بالحقوق العربية في الشأن الفلسطيني، والتجاوب الدبلوماسي والخطابي مع القضايا العراقية والليبية واللبنانية ومع إقامة علاقات تعاون مع دول إسلامية كبيرة تخلت عنها الدبلوماسية الغربية والأمريكية في مراحل ما، خاصة عقب انقضاء الحرب الباردة، مثل: إندونيسيا وباكستان وإيران، تجمع الصين بين هذا الموقف الذي لا يرقى لمستوى الأداء المستديم أو انتهاج استراتيجية محددة المعالم، وبين علاقات حميمة متعاظمة، سيما في المجالين العسكري والاقتصادي مع إسرائيل على نحو ما أشار إليه القسم الأول من هذا التقرير.

وعامة، فإنه على صعيد العلاقات الصينية – الأمريكية لا يختلف الموقف كثيراً؛ إذ تتراوح التوجهات الاستراتيجية لواشنطن نحو الصين بين الضغط إلى درجة المضايقة وإثارة المخاوف باستمرار في تبني قضايا تعتبرها الصين من صميم شأنها الداخلي كمسائل تايوان والتبت وحقوق الإنسان والعلاقات مع كوريا الشمالية والتعاون العسكري مع دول تعدها واشنطن دولاً مارقة مثل: إيران، وبين ترك الأبواب الأخرى شبه مفتحة فيما يشبه إلى حد كبير سياسة العصا والجزرة من قبيل اعتبار الصين الدولة الأولى بالرعاية تجارياً وتطوير العلاقات معها سيما خلال فترة كلينتون إلى درجة اعتبار الصين شريكاً استراتيجياً للولايات المتحدة في النظام العالمي الجديد. على الجانب الآخر، فإن السياسة الصينية إزاء الولايات المتحدة تميزت بسمتي اللامبالاة وعدم الإفصاح عن ردود الأفعال السلبية من ناحية، والضغط غير المباشر بالاستمرار في التنمية الذاتية باتجاه التوازن وربما التسابق مع الولايات المتحدة وغزو الأسواق العالمية ومواصلة سياسة تصنيع وتصدير الأسلحة المتطورة والتعاون مع دول لا تسير في الفلك الأمريكي من ناحية أخري. إلا أن حالة الصمت وعدم الإفصاح عن الموقف والتي تشغل حيزاً كبيراً من التفاعل الصيني مع قضايا الخارج يعزي إليها الكثير من الالتباس الذي يقع فيه المراقبون.

وعليه فإن أحداث الحادي عشر من سبتمبر تكتسب أهمية علمية وعملية كبيرة في الكشف عن حقائق السياسة الخارجية الصينية، خاصة فيما يتعلق بقضايا الأمة الإسلامية. فعلى الرغم من البرودة التي أصابت العلاقات الصينية – الأمريكية عبر ثلاثة أرباع العام 2001 على خلفية قضايا برنامج الدفاع الصاروخي الأمريكي وإعلان بوش أن إدارته لا تعتبر الصين شريكًا بل منافساً استراتيجياً وما عكسته قضية طائرة التجسس (أبريل 2001) من كوامن ندية وتحفز متبادل، فإن الصين كسائر الدول لم تتأخر عن الدعوة لمكافحة الإرهاب الدولي ضمن مواساة زيمين لنظيره الأمريكي عقب الحادث مباشرة[168].

لقد رأى المحللون الصينيون أنفسهم أن هدف تشكيل تحالف دولي تقوده الولايات المتحدة ضد الإرهاب يمثل في التحليل الأولي فرصة ممتازة بالنسبة للصين، إذ

يضطر ذلك واشنطن إلى التخلي عن نزعتها الأحادية ويدفعها إلى تحسين علاقاتها مع قوى روسيا وإيران والصين، بما يوفر أرضية صلبة تعترف بصحة المقولة الصينية الخاصة بأن تعايش العالم وتماسكه يتطلب العمل وفق صيغة تعدد الأقطاب[169].

إلا أن الجميع لاحظ تناقضية الرد الصيني الإيجابي على دعوة التحالف بما يؤول إلى خلوه من المعنى الجدي المعتبر؛ حيث اشتمل على عبارات أدنى إلى التطابق مع وجهة النظر الأمريكية ودعمها إلى آخر النفق، وعبارات أخرى تصب في خانة الحذر والتحفظ.

ففيما أكد وزير خارجية الصين – تانج جياكسوان- خلال زيارته لواشنطن (9/21) وقوف بلاده إلى جانب الولايات المتحدة لمحاربة الإرهاب الذي يهدد السلم والاستقرار الدوليين، إلا أنه حرص على الإشارة إلى المدخل القانوني للتضامن الصيني مع الولايات المتحدة؛ حيث شاركت في إصدار قرار مجلس الأمن (1368) الذي اعتبر الهجمات على واشنطن ونيويورك عملا إرهابيًا دولياً يهدد السلم والأمن الدوليين، وبينما أردفت الخارجية الصينية في اليوم التالي (9/22) بإعلانها عدم السماح لابن لادن بالدخول إلى الأراضي الصينية على ما أشاعت احتماله بعض الصحف الغربية، فلم تنقطع بيانات الرئيس زيمين الناصحة بثبات لواشنطن بعدم التورط في"**ضرب عشوائي**" دون أدلة كافية، مشدداً على ضرورة عدول واشنطن عن اتباع "**المقاييس المزدوجة**"[170] في سياستها فيما عد الخطاب الأوحد بين الخطابات الرسمية الذي جرؤ على تذكير واشنطن بالسؤال الممنوع: لماذا وقع ما وقع؟ ولماذا هذا الاختيار الأمريكي؟"

هذه المحاذير الصينية كان لها ما يبررها: فهناك المخاطر المحتملة جراء التوافد العسكري الأمريكي على حدودها الغربية والجنوبية بحراً وبراً بأحجام وتشكيلات تنبئ بإقامة غير قصيرة، ومخاوف انعكاسات الحرب على الداخل الصيني سيما في تركستان الشرقية التي تقود المسلمين فيها حركة استقلالية كثيراً ما أشارت الحكومة الصينية إلى ارتباطاتها بأسامة بن لادن، علاوة على حقيقة أن الصين لم تكن على عداوة تامة أو سافرة مع طالبان ووجودها بقدر ما كانت تسعى لقطع أياديها الممتدة وراء الأصولية الإسلامية في المنطقة، في طاجيكستان وقيرغيزيا والإيجوز على النحو الذي أفصحت عنه ترتيبات شنغهاي المشار إليها أعلاه.

إن هذا يدعو للتساؤل عن العوامل المحفزة التي يمكن أن تجعل الصين تطرح كل تلك المخاوف جانباً لتعضد التوجه الأمريكي؟ فضلاً عما أشارت إليه الصحافة الصينية من قبل، فقد كشفت الأحداث عن رغبة صينية في اقتناص الفرصة لإطلاق العنان لأسلوبها المعروف في تسوية المسألة الإسلامية الإيجورية في سينكيانج دون توقع لمعارضة ذات بال من قبل الحقوق- إنسانيين الغربيين الذين طالما طاردوا النظام الشيوعي بهذه الوصمة!

ففي فاجعة مشينة، نشرت "التايمز" البريطانية- على صفحتها الأولى –خبر قيام السلطات الصينية(9/25) بإعدام "عشرات السجناء الإسلاميين ممن يقاتلون من أجل استقلال تركستان الشرقية، وذلك أمام"**العامة**" وبعد أن تم "**تجريعهم الخمر مع وجباتهم الأخيرة**" وفيما اعتبرت الصحيفة الغربية ذلك استخفافاً بمشاعر المسلمين في الصين واستغلالاً لموجة الغضب ضد المسلمين واسترضاء للغرب وفصّلت في تصوير وعرض أساليب الإذلال الصيني للمسلمين في الشوارع حتى تم إعدامهم بإطلاق رصاصة على مؤخرة رأس كل سجين، فإنني لم أعثر على رد فعل إسلامي ذي بال رسمياً كان أو غير رسمي، بل إن القليل من الصحف العربية التي نقلت الخبر قذفت به إلى الزوايا المهملة وبإيجاز شديد وبلا تعليق[171].

وها هي الصين تنضم للمقتاتين من لحم ودم الأمة المخذولة من بنيها إلى أقصى درجات الخذلان.

في اليوم التالي لذلك (9/26) واصلت الصحيفة البريطانية نفسها متابعة أنباء الغزوة الصينية من الشرق

المتضافرة مع الغزوة الغربية؛ إذ توافدت قوات خاصة صينية إلى منطقة "**كاشغار**" على الحدود الأفغانية تحسباً لأي هجمات محتملة ممن أسماهم مسئولون صينيون "**متطرفين إسلاميين من داخل البلاد**"، الأمر الذي علق عليه دبلوماسيون غربيون بأن أحداً لم يطلبه من الصين، إنما هو هاجس الخوف من "**الحمية الإسلامية المنتظرة مع اقتراب الحرب على أفغانستان**"[172]، بل إن دبلوما سيين من بكين نفسها صرحوا أن هذا الظرف هو الأنسب لكيلا تجد جماعات حقوق الإنسان من يسمع لتقاريرها حول "**وحشية الشرطة واستغلال المستعمرين** "[173]

أي أن الصين كعادتها –وقعت بين مخافتين متعارضتين تدفعها كل واحدة في اتجاه: مخافة الاقتراب الأمريكي، ومخافة التنامي الإسلامي، ولا شك أن اختيار الصين في هذه الجولة العاصفة الفارقة الكاشفة سيكون حاسماً في فهم آليات تحديد الأولويات في السياسة الخارجية للصين.

جاء مطلع أكتوبر حاسماً بالفعل؛ إذ أكد الرئيس الصيني زيمين في اتصاله الهاتفي(9/30) مع الرئيس الباكستاني برويز مشرف أن الصين ستواصل حملتها الدبلوماسية لمكافحة كل أشكال الإرهاب، ثم شدد على اعتماد جانب الحذر بإطلاق تفصيلات ثلاث للعملية العسكرية الأمريكية ضد أفغانستان أو أي دولة أخرى – وهى تفضيلات وليست شروطاً على خلاف ما حاول البعض وصفها به-إذ لم تمثل أكثر من نصائح تورد ضمن تصريحات أكثر حلفاء الولايات إيغالاً في التعاون، (وتتلخص في: الاستناد إلى أدلة دامغة، وأن تكون الأهداف محددة، وأن تتوافق مع أهداف ومبادئ القانون الدولي) ومن ثم لم يكن لهذه التحفظات أمام "**الحملة الدبلوماسية الصينية ضد الإرهاب** "التي أكد عليها زيمين سوى معنى "**التجميل أو التجمل**"

ومع اقتراب ساعة الصفر كان الاتجاه التفاؤلي في الحكومة والنخبة الصينية هو الأعلى صوتًا على اعتبار أن الهدف الأمريكي المتمثل في القضاء على نظام طالبان وإحلال نظام غير أصولي يصب في المصلحة القومية الصينية؛ إذ يعزز الاستقرار في تركستان الشرقية التي تسميها الصين (سينكيانج أو جينجيانج)؛ حيث يضم تنظيم القاعدة بناء على التقارير الصينية عدة عناصر من الإيغور الاستقلاليين؛ مما يفقدهم ملاذًا ودعماً هاماً يحجم من حركتهم داخل تركستان نفسها، وعلى اعتبار أن الوجود الأمريكي في أسيا الوسطي وأفغانستان لا يدعو إلى القلق؛ إذ إن مهمته محدودة بمكافحة الإرهاب وأنه ليس من الصالح الأمريكى البقاء طويلاً في المنطقة، في ظل اعتراض دولها الكبرى والصغرى سيما داخل تجمع شنغهاي الخماسي [174].

وعلى الرغم من وجود تيار يحمل الولايات المتحدة وسياساتها مسئولية ما جرىلها، والذي انفلتت بعض عباراته إلى خطاب الرئيس الصيني، ويرى أن أسلوبها في معالجة المسألة غير إيجابي وسوف تكون له عواقب وخيمة عليها وعلىحلفائها والمتعاونين معها بما فيهم الصين، فإن عوامل العجز عن إيقاف المسار الامريكى، والخسائر المحتملة من جراء رفضه أو عدم التجاوب معه، علاوة على أصالة العداء القومي والجماعي – الدولي والإقليمي – للأصولية الإسلامية، هذه العوامل سيطرت على القيادة الصينية لتنضم إلى مظاهرة التحالف الدولي بزعامة الولايات المتحدة.

3. الهند: الفرصة السانحة بلا مخاطر

لاشك أن الحالة الهندية تتقاطع مع الحالتين الروسية والصينية في خصائص عامة كثيرة من قبيل السعي إلى إحراز مكانة إقليمية ودولية على خلفية حوزة مقدرات وإمكانيات معينة والاصطدام بالأصولية الإسلامية الهادية والاستقلالية في كشمير على غرار الشيشان وتركستان الشرقية في الحالتين المذكورتين، وتنامي العلاقات الاستراتيجية والسياسية مع الكيان الإسرائيلي مع الاحتفاظ بخطاب رسمي لا يفصم العلاقات مع العرب في الشرق

الأوسط، وعدم ارتقاء العلاقات مع الولايات المتحدة إلى درجة الدفء التام ضمن محاولات إرساء علاقة صداقة ندية خالية من أشكال التبعية والاحتواء التي تبدو واشنطن مصرة عليها، وأخيرًا تتسم الدول الثلاث بصعود أنظمة حكم في العقد الأخير تمثل انقطاعاً أو تحديداً على الخط التقليدي الذي كانت عليه إبان مجريات حقبة الحرب الباردة. على الرغم من ذلك فإن نيودلهي اختصت بعاملين آخرين: خارجي وداخلي، كان لهما دور كبير في تشكيل السياسة الهندية خلال هذه الجولة التالية لأحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001.

فمن ناحية تفخر الهند باعتبارها أكبر ديمقراطية في العالم من الحيث السكاني –واقعيًا – على الحالة الروسية فضلاً عن دولة الحزب الشيوعي الصينية. وعلى الرغم من التحفظ على هذه الاطلاقات الهندية إلا إنه يمكن القول إن ثمة ديموقراطية أضفي عليها حزب "**جاناتا بهارتيا**" الذي اعتلى سدة الحكم 1998 طابعاً أصولياً واضحاً ساهم في إعطاء الديمقراطية الهندية تميزاً معيناً يتلخص في أنها ديموقراطية هندوسية، أي أن التميز الأكبر والأهم في هذه الديموقراطية هوأنها "**ضد المسلمين**" سواء في الداخل الهندي أو في القطاع الذي تسيطر عليه الهند من جامو وكشمير.

وإذا ما كانت هذه الديموقراطية الهندوسية من شأنها السماح بدرجة من التنويع في اتجاهات الرأي على الساحة السياسية الداخلية، فإن العامل الخارجي ساهم في تحجيم هذا التنوع وأفسح المجال أمام حكومة فاجباي لإعطاء أولوية مطلقة التطابق مع الحملة الأمريكية لاجتثاث جذور الأصولية الإسلامية من المنطقة كلها.

ومن الناحية الأخرى،كان للعامل الخارجي الأثر الأكبر متمثلاً في طبيعة العلاقة مع الجار اللدود باكستان التي وقعت في المأزق الخطير، بين سياستها الداعمة لطالبان، وواقعها المتخم بالجماعات الدينية بدرجاتها، وبين النوايا الأمريكية المشهرة منذ اليوم الأول بالاستفادة منها في إنفاذ رد الفعل الأمريكي. وعليه فإن الهند سارعت –بموازاة الصديق الإسرائيلي – وأطلقت خطابًا تحريضياً ذاماً للتوجه الأمريكي، بل وموجهاً لمساره وضاغطاً على إسلام آباد في آن واحد فيما أطلق عليه البعض: "**الفرصة السانحة، التوظيف السياسي للأزمة، تصفية الحسابات الإقليمية، استغلال رغبة الانتقام الأمريكي الأعمى**"[175].

فأعلن رئيس الوزراء الهندي مبكرًا استعداد نيودلهي للتعاون مع المساعي الأمريكية "**ضد كل أشكال الإرهاب وضد الدول الداعية أو الآوية للإرهاب**"، وذلك دونما انتظار لطلب أمريكي محدد بهذا الصدد، وراح الإعلام الهندي يشاكل على احتمالات تمتن العلاقات الأمريكية – الباكستانية على خلفية قبول الجيش الباكستاني للتعاطي مع المطالب الأمريكية؛ إذ صعدت وسائل الإعلام الهندية من الحديث عن "**الإرهاب الكشميري**" المدعوم من إسلام آباد، والدور الطالباني أيضاً في كشمير والمماثلة بين المعاناة الأمريكية الحالية الكشميرية.

وعليه فقد قدمت نيودلهى عناصر مزيدة على التحالف الدولي ضد الإرهاب الذي تتزعمه الولايات المتحدة على غرار ما عبر عنه وزير الداخلية الهندي "**أدفاني**" (9/18) من أن "**الإرهاب أخطر من الحرب، وإذا ما اعتمد العالم معاهدة تسليم الإرهابيين، فإنه يمكن القضاء على تلك الظاهرة بشكل حاسم**"، الدعوة التي أكدها ديليب تريفدي – أحد قادة المجلس الهندوسي العالمي– بقوله: "**كانت الهند ضحية للأنشطة الإرهابية، وأي محاولة عالمية للقضاء على هذا التهديد هي موضوع ترحيب منها**"[176].

لقد كانت الدلالة الكبرى للخطاب والتحرك الهندي خلال الأسبوع الأول من تداعيات الحدث، أن الهند كسرت حالة الفتور والإحجام عن التعاون معها أو التعويل عليها ضمن الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة، الأمر الذي ينبغي استيعابه أيضاً دون إطلاق تعميمات، أي في مضمار الأزمة الراهنة وأن المشترك فيها هو العداء للأصولية الأممية الإسلامية.

وفي مقابل هذا العرض الهندي الذي لم يعترض على السياسة الأمريكية في الاعتماد على باكستان، وزاد في تقديم نفسه بديلاً حال تراجع نظام مشرف، حرصت واشنطن على التلويح منذ البداية بالامتيازات التي ستحصل عليه الهند، والتي كللها بوش (9/24) برفع العقوبات الاقتصادية المفروضة على الهند –وباكستان– منذ العام 1998 على ما سبقت الإشارة إليه، الأمر الذي رحبت به الخارجية الهندية: "**وجهة نظرنا كانت دائماً أن العقوبات.. لم تكن أداة فعالة، وقد تأكدت صحة موقفنا الآن**"[177].

إلا أن الثمرة الأساسية التي جنتها الهند تمثلت في تحول السياسة الأمريكية إلى تقوية العلاقات الأمريكية في المحيط الهندي للهند لبحث سبل استئناف المناورات العسكرية المشتركة، في رسالة طمأنة على المكانة الاستراتيجية للهند في المنطقة، الأمر الذي قابلته الهند بدورها – على غرار روسيا وإسرائيل – بالعمل على تهدئة الأوضاع في الأقاليم الساخنة المرتبطة بها لإفساح المجال أمام الأمريكية ضد أفغانستان لتأخذ مجراها دون معوقات،وسيظل اللعب بورق كشمير هو الهدف الأساسي للهند.

خلاصة القول في الدلالات العامة لسياسات دول المنطقة عبر هذه الجولة الأولى من تداعيات اليوم الأمريكي (9/11) يمكن إجمالها في الملاحظات التالية:

1- أول ما يلاحظ على المواقف الأولية لهذه الدول هو تماثل الشعور بوطأة ما جرى في القطب الأكبر، فبدءاً من طالبان والأفغان العرب والأفغان المناوئين، وحتى القوى الكبرى، مروراً بسائر الدول، وعلى مستويات الشعوب والنخب والقيادات شخصت أبصار الجميع وبلغت القلوب الحناجر للوهلة الأولى، الأمر الذي يعطي لدراسة القوى العالمية العظمى والكبرى وتفاعلاتها شرعية قد تصل إلى حد الفرض الديني والعقلي والأمر الذي ربما يلمح على أهميته التعبير القرآني المحكم: "غلبت الروم" والذي يشير إلى حقيقة تجاوب النفس البشرية داخلياً مع الوقائع الجسام من هذا القبيل.

2- كذا كشفت هذه الجولة عن حقائق هامة في مضمار الصراع الحضاري أو التدافع المشتعل دون هوادة والذي لم تشكل استدراكات الدول وتحفظاتها السابق إيرادها بالنسبة إليه، سوى زينة وزخرفة تقتضيها السنن، لقد تمثل ذلك بجلاء في الاعتماد المضمر لآليات هامة من قبيل:

أ- الاعتماد المضمر للتعريف الأمريكي لـ"**الإرهاب**" إذ لم ترد أي بادرة معارضة أو تحفظ من قبل دول المنطقة فيما عدا الأطراف الموسومة بالأصولية (إيران فقط) في تعريف الإرهاب أو الالتفات إلى خصوصية مفهوم "**الجهاد**" في الفكر والخبرة الإسلامية. ومما لا شك فيه أن ذلك الأمر وإن جرى التعتيم والتغييم عليه– إلا أنه كان مقصوداً في ظل تأويله وإسقاطه الفعليين المشهودين أيضا على الظاهرة الأصولية الإسلامية دون غيرها، والتي تعاني منها سائر هذه الأنظمة بما فيها نظام الجنرال برويز مشرف وفق توجهاته وقناعاته البادية أخيراً.

ب- الاعتماد المضمر لخيار المواجهة المسلحة سبيلاً مقدماً على سائر الوسائل الدبلوماسية والاقتصادية والأمنية والآليات التجفيفية: (كآلية تجفيف منابع التمويل بتجميد الأرصدة، وتجفيف منابع التعبئة بتطوير التعليم الديني، وتجفيف منابع التحريك والاتصال بالاتفاقيات الأمنية.... الخ).. فأمام هياج وخوار الثور الأمريكي لم يصدر صوت رسمي ذو بال – فيما عدا الحالة الإيرانية المترددة – يرفض الوسيلة العسكرية كحل مطروح حالياً.

ج- الاعتماد المضمر لآلية التدخل الخارجي في كافة شئون الغير، ليس فقط فيما يخص الحالة الأفغانية التي أعطى الجميع لأنفسهم الحق تلقائيًا في إرسال المأخذ وعرض الأمنيات وتقديم الطروحات في ماضيها

ومستقبلها وما شابه ذلك دون تردد، بل والتدخل العجيب والصريح والمعلن في مناقشة قضايا أنظمة الحكم والجماعات الإسلامية والجمعيات الأهلية وقضايا التعليم والثقافة في عموم الأمة الإسلامية.

بل إن بعض الدول سعت بنفسها لتدويل قضايا داخلية بعينها ذات صلة إسلامية، وشحذ همة الغرب لمؤازرتها فيها على غرار ما فعلت روسيا والهند ودول من آسيا الوسطى، بل إن الأمر تعدى ذلك إلى خوض الغرب والقوى الإقليمية في تقديم تعريف معين للإسلام نفسه والتمييز بين مسلمين ومسلمين على أساس واحد هو مقدار التواؤم أو التلاقي مع النموذج الحضاري الغربي بالأساس أو الموسوم بالإنساني أو العالمي بصفة عامة، هذه الآثار التي انعكست على تفاعل الأطراف المختلفة مع الحدث بما طرح العديد من التساؤلات ذات العيار الثقيل:

- إلى أي مدى سيتواصل هذا التدخل في شئون الأمة وفي أمر دينها؟ وما هي المجالات التي تميل هذه القوى إلى التركيز عليها؟ وما هو رد الفعل الأممي الإسلامي المنتظر؟ وممن؟
- هل يمثل ذلك– فعلاً – بداية لنظام عالمي جديد آخر يعرف بنظام ما بعد الحادي عشر من سبتمبر يتحول فيه النظام الدولي من الهيراركية ذات القطب الأوحد، ونخبة القوى الكبرى... إلى هيكل جديد تتكتل فيه أنظمة كبرى وعظمي من الغرب والشرق ضد عدو متشعب الأجزاء والتكوينات يتمثل في" **التحدي الإسلامي**"بعامة، "**والأصولية الأممية الإسلامية**" بخاصة؟ وهل هذا هو المشهد المنتظر لصراع أو تدافع الحضارات؟
- إلى أي مدى ستتواصل حرارة هذه الجولة مبقية على خط التقارب المشهود خلالها في أفقه المترائي؟ وإلى أي مدى ستبقى التحفظات المعبرة عن حدود الحركة تمثل خطوطاً أمامية تتجاوزها القناعات؟.. وغير ذلك التساؤلات التي يضيق المجال بحصرها.

3- الدلالة الكبرى والأهم تدور حول الطرائق التي تعاطت بها الأطراف الإسلامية أو الموصوفة بذلك مع الأزمة في أتونها، والطرائق التي تتخذ بها القرارات المصيرية في الأمة الإسلامية؟ وفي هذا الصدد ينبغي التنبيه على أن متخذي القرار هنا لا يقتصرون على القيادات والرسميين؛ إذ إن الأحداث أسفرت عن تثبيت أقدام فواعل أخرى من دون الدول باتت تطرح نفسها على الساحة الدولية، سواء بطرق مباشرة أو غير مباشرة!

ففيما فسرت الأطراف غير المسلمة قناعاتها المستحكمة بما يتلاءم معها من مصالح قومية خاصة بها، فإن معياري المبادئ والمصالح الخاصة البادية أبيا إلا أن يتفرقا ويفرقا بين تيارين كبيرين داخل الدائرة الإسلامية؛ فطالبان والجماعات الدينية وفتاوى العلماء في سائر العالم الاسلامى وكذا الشارع المسلم عبرت عن تغليب معيار المبدأ المتمثل في عدم تسليم المسلم فيما يخص مسألة ابن لادن، وعدم التعاون مع غير المسلم ضد المسلم فيما يتعلق بالحملة على طالبان نفسها، دون الالتفات إلى أي مصالح أو مفاسد، أو بالنظر إليها على أنها دون مصلحة حفظ الملة وإعلاء الكلمة، في حين أن أنظمة الحكم والنخب ذات الطابع العلماني في أكثرها راحت تروج لميزان المصالح – المفاسد، مع خطاب يركز على تحميل الأصوليين مسئولية هذه الورطة، ويشير – وكثيراً ما يصرح – بعدم حسابهم ضمن الدائرة الإسلامية؛ إذ الإسلام الحنيف براء من الإرهاب والإرهابيين. وفي الوقت الذي أصغى فيه الجميع إلى البيانات الغربية وأحياناً الشرقية غير المسلمة، فإن الآذان صمت عن أي حوار من أي نوع بين هذين التيارين المسلمين.

الجولة الثانية– الحرب الأمريكية ودلالات التداعي الأفغاني (7/10 – 15 /2001/11)

على الرغم من جسامة الحقائق والدلالات التي أفرزتها تعاطيات الأطراف المختلفة من داخل وخارج الأمة مع الحدث الأمريكي المؤزم، إلا أن هذا اليوم لا يحظي بأهميته الفعلية على صعيد الأمة الإسلامية إلا باعتباره واحدًا من وقائع "**حرب ممتدة**" – على حد تعبير أكثر الفرقاء – على هامشها تجري حروب صغيرة ومعارك متصلة، يعد السابع من أكتوبر 2001 – حين بدأت الغارة الأمريكية على أفغانستان – يومها الأكبر من ذات الزاوية: زاوية الذات الأممية.

لقد أسفرت وقائع اليوم الأخير (على عادة العرب في تسمية الواقعة الحربية يوماً) عن مزيد وجديد من الحقائق الكبرى التي أبرزت من جانبها الكثير من أبعاد التفاعلات السياسية داخل وحول الأمة المسلمة، علاوة على تصديقها على ما سبق استخلاصه ضمن التحليل السابق، سيما في نطاق العلاقة مع الآخر كمنطلق لترشيد السلوك والتفاعل إزاء مكونات الذات الأممية الجامعة.

في نحو الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين مساء بتوقيت كابول عبرت الأجواء الباكستانية قذائف صاروخية من طراز كروز منطلقة من سفن أمريكية وغواصة بريطانية رابضة في المحيط الهندي، في ذات التوقيت الذي عبرت فيه نحو عشر طائرات أمريكية طرازات **B3، B2،BI** أجواء أوزباكستان باتجاه المدن الأفغانية الرئيسية: كابول، قندهار، جلال أباد لتعلن عن بدء حذر للحملة على أفغانستان، صرح المسئولون العسكريون الأمريكيون أنه يهدف إلى"**شل القدرات الدفاعية الجوية وأجهزة القيادة والاتصال والرصد الراداري التي تحوزها طالبان**"[178].

كان باديًا سيطرة حالة من القلق والشك حول إمكان إنفاذ الهدف الأمريكي، والتأثر بتحذيرات الخبراء التي أصمت مسامع الجميع طوال الفترة الماضية، والرغبة في التعرف على اتجاهات ردود الأفعال الإسلامية والطالبانية وحقيقة ما توعد به الإسلاميون وأنصار ابن لادن. وعليه فقد اقتصر القطب الأمريكي خلال أول يومين على الطلعات الليلية دون استجابة دفاعية إيجابية إلى أن أعلن قائد حاملة الطائرات الأمريكية "**انتربرايز**" في اليوم الثالث: "**أن الطيارين الذين أضحوا يحلقون نهاراً لم يعودوا يجدون أهدافاً لضربها**" وتابعه وزير الدفاع الأمريكي بأن "**الولايات المتحدة باتت قادرة على تنفيذ ضربات على مدار الأربعة والعشرين ساعة: إن كل مطارات طالبان أصيبت بأضرار خلال القصف باستثناء مطار واحد**"[179].

وفيما هلل الأمريكيون لهذا النجاح السريع، إلا أن نهاية الأسبوع الأول على هذه الحال أفرزت تحدياً أمام الاستراتيجية الأمريكية؛ إذ تطلعت كافة الأنظار إلى الجديد، ووجه الأمريكان بالسؤال عن حقيقة إنجازهم: هل أسروا ابن لادن أو أطاحوا بطالبان كما أرادوا وأعلنوا أم صاروا هم معلقين في الهواء بلا جدوى؟

أعلن الرئيس الأمريكي (10/13) أن "**أهداف المرحلة الأولى من القصف الجوي تحققت بنجاح.. إن الطيران الأمريكي يسيطر على أجواء أفغانستان،.. إلا أن الحملة لم تنته بعد**"[180]، بيد أن بوادر عدم مصادقة الرأي العام وتقارير المختصين على دعوى واشنطن تمكنها من تقطيع أوصال الشبكة الإرهابية داخل أفغانستان، دفع وزير دفاعه ونائبه إلى التصريح بأن "**الحرب البرية في الطريق**" الأمر الذي لم تقدم عليه القوات الأمريكية طوال أسابيع خمسه كرست حالة متصاعدة من الإحباط الأمريكي والغربي تؤازرها موجة متصاعدة من الاحتجاج الإسلامي والتململ العالمي إلى أن تحولت الولايات المتحدة إلى الاعتماد شبه الكلي على الأفغان أنفسهم لإجهاض الصمود الطالباني، وتحقيق النصر البري الذي كان ممتنعاً على الأمريكان والتحالف.

وعليه يمكن استعراض فعاليات هذه الجولة من تطورات الأزمة من خلال تبين آليات ومسارات التعاطي الطالباني ودلالاته مع ما أقحم عليه من خطاب قيادات القاعدة، وما ارتبط بذلك من مواقف المعارضة الأفغانية

والقوي المحيطة بأفغانستان إزاء تطورات الغارة الأمريكية وما أفرزته من قضايا وجدالات.

أولاً – طالبان تقاوم: استراتيجية الصمود والاستدراج: إلى أين وإلى متى؟

خلال الأيام القلائل السابقة على القصفة الأمريكية تتابعت رسائل طالبان للبحث عن مخرج– على نحو ما انتهى إليه التحليل السابق،بيد أن دوي وبريق

القصف الفعلي الذي ابتدأ ليلة السابع من أكتوبر أزاح كل ستائر الأمل الكاذب، لتنتفض طالبان وحلفاؤها العرب في خطاب تحد مدوٍّ بلغ أقصي درجات العمق والتأثير في الشريط المسجل الذي بثته قناة الجزيرة القطرية عقب بدء الغارة بنحو الساعة، والذي تصدر فيه حديث ابن لادن عقب اثنين من أعوانه ساحة الاهتمام العالمي، وكان بمثابة المعادل الدعائي للأثر المعنوي الذي خلفه بدء الغارة على أفغانستان [181].

فقد انبري سليمان أبو غيث– المتحدث باسم القاعدة – ليؤكد في لهجة حماسية أن **"مجموعة ابن لادن"** مستعدة للمواجهة، ويواجه الأمة المسلمة: **"يا أمة أبي بكر وعمر، يا أمة الإسلام، اختاروا مع أي الخندقين تقفون، إن الواقعة قد بدأت"**.. الأمر الذي كرره أيمن الظواهري – الذي عرّف أمريكيًا بالساعد الأيمن لابن لادن – وزاد عليه أن واجَهَ الشعبَ الأمريكي يستحثه ليسأل نفسه: **"لماذا كل هذه الكراهية ضد أمريكا في قلب العرب والمسلمين....؟ الجواب سهل، إن أمريكا ارتكبت الكثير من الجرائم، وهي زعيمة المجرمين... إن حكومتكم هي التي تقتل أطفال العراق، وتسوقكم إلى حرب خاسرة جديدة تفقدون فيها مزيداً من أبناء شعبكم، واذكروا هزيمة حكومتكم في فيتنام"**، ليعود ويواجه الأمة: **"أنتم أيها المسلمون، ها هي قريش الجديدة، تجمعت على فئة من المسلمين كما تجمعت قريش بالأمس على الفئة المؤمنة، فكونوا كما كان أهل الإسلام"**.

جاء بيان ابن لادن أخيراً أشد إثارة ومردوداً؛ إذ بدت على الرجل أمارات التحفز والغضب، فافتتح حديثه بإشهار السرور بما أصاب أمريكا: **"ها هي أمريكا وقد أصابها الله في مقتل من مقاتلها، فدمر أعظم مبانيها، فلله الحمد والمنة، وها هي أمريكا قد ملئت رعباً"** ثم أعقب ذلك بقولته التي أثارت الكثير من الجدل حول مغزاها وما يمكن أن يستفاد سياسياً وقانونيًا منها حين قال: **"إن كوكبة من كواكب الإسلام وطليعة من طلائعه دمروا أمريكا"**، فيما عدَّه الغرب وكثيرون في الشرق إقراراً صريحاً من الرجل بنسبة العمل– إن لم يكن إلى نفسه وإلى جماعته – فإلى عموم المسلمين والعرب على نحو ما راج في الغرب منذ وقائع اليوم الأمريكي.

وعلى غرار صاحبيه، أهاب أسامة بن لادن بالمسلمين: **"إن رياح التغيير هبت"**، وبرر ما جرى لأمريكا تبريراً يزيد من معاني تبني ضربة 11 سبتمبر: **"إن ما تذوقه أمريكا اليوم هو شيء يسير مما تذوقه أمتنا منذ عشرات السنين، فأمتنا يُقتل أبناؤها، ويُعتدى على مقدساتها... اليوم يقف العالم خلف هُبَل العصر: أمريكا"**، ويتابع التقسيم الثنائي: **"إن هذه الأحداث قسمت إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط كفر، فاختاروا يا أمة الإسلام: إما أن تكونوا مع الكفر أو مع الإيمان"**.

أما العبارة التي صارت أكثر ذيوعاً والتي ربما هي بقيت عن البيان تلوكها الألسنة، فهي التي اختتم بها ابن لادن حديثه متحفزاً: **"أقسم بالله العظيم الذي رفع السماء بلا عمد، لن تحلم أمريكا، ولا من يعيش في أمريكا بالأمن قبل أن نعيشه واقعاً في فلسطين، وقبل أن تخرج جيوش الكفر من أرض الإسلام، والله أكبر والعزة للإسلام"**!

خطاب معبِّر أيما تعبير، لاشك أن دلالاته ومضامينه مما لا يتسع المجال للتفصيل فيها والإحاطة بجوانبها، إلا أن فرزه بالإجمال يقتضي الإشارة إلى ما له من محاضن ودواع انطلق منها ومن انعكاسات أفرزها على المدى القريب:

فأولاً– ينبغي ملاحظة أن هذا البيان الثلاثي كان معداً مسبقًا على خلفية الاقتناع بأن الغارة قادمة لا محالة، وأن الأمر يتطلب ساعتها رداً معيناً قد يتعذر إيصاله إلى

غاياته إذا اندلعت الحرب فعلاً أو ربما أملاً في ردع التوجه الأمريكي مبكراً. وعليه جاءت الإشارة إلى القصفة التي لم تمض عليها الساعة بصورة عرضية، فيما انصب الحديث على أمر انقضي عليه ما يقارب الشهر وهو الحادث الأمريكي، ومن ثم يمكن عزو الحماسة التي بدا عليها المتحدثون وتحفزهم إلى الإعداد المبكر للبيان حين كانت البيانات الأمريكية ودعوات إقامة التحالف الدولي على أشدها الأمر الذي يتجلى في عدم التعرض لردود الأفعال من داخل الأمة على الإطلاق.

لقد ابتغى الخطاب إدراك عدة غايات معاً: ردع النوايا الأمريكية، التأثير في التماسك الغربي، تبرير الموقف الذاتي المعادي لأمريكا، تعبئة الأمة وراء القاعدة وطالبان، وإعلان التحدي والصمود.

ومن ناحية ثانية، فقد حمل الخطاب مغازي ودلالات هامة لعل أهمها:

- حالة الانفجار الخطابي في وجه الولايات المتحدة وسياستها، ونفاد صبر طالبان التي طالما حرصت على تحييد ابن لادن ورجاله أو إخراجهم من المشهد برمته، لتتحول إلى إعلان الحرب بالقاعدة ومعها ومن أجلها.
- حالة الالتحام متعدد الأوجه: الالتحام بأفغانستان وطالبان، الالتحام بأسامة بن لادن الذي أطلق أبو غيث اسمه على "**المجموعة**" فيما أظهر الرجل– مع أسلوبه الخاص–كأسطورة إغريقية على حد وصف البعض[182] ثم المحاولة المتكررة للالتحام بالأمة المسلمة وقضاياها الساخنة في ضوء مفهوم الصراع الأبدي بين خندقي أو فسطاطي الإيمان والكفر، سعياً لتحريك الأمة: "**أمة أبي بكر وعمر**".

- حالة المقابلة في المفاهيم والتقاسيم: إذ واجه الخطاب تقسيمه جورج بوش للعالم إلى معسكرين، بذات الشيء مع التميز الأصولي الشائع في الفقه الإسلامي في مطابقة التقسيم السياسي مع التقسيم الديني عالمياً، إلا أن البيان وظف هذه التقسيمة أساساً لتعبئة الأمة ودفعها إلى معسكره.
- وفيما دعا قادة القاعدة الأمة إلى نصرة معسكرهم على أساس مضمر أنهم فسطاط الإيمان الذي لا نفاق فيه، فإن الصريح أنهم أعداء عدو الأمة الأكبر، "**قريش الجديدة، هُبل العصر، زعيمة المجرمين**"، الأمر الذي استلزم تحريك عناصر الواقع للاستدلال بها وتمتين الاقتناع داخل الأمة وخارجها، من قبيل الإشارة إلى الدور الأمريكي في مآسي العراق وفلسطين وفي مداهمة الأراضي المقدسة.
- وأخيراً فإن تنويع وجهات الخطاب بين الأمة والولايات المتحدة: إدارة وشعباً، والعالم بصفة عامة، وتنويع أساليبه بين الحوار المتسائل والاستدلال الإقناعي، والتهديد والتحدي.. إلخ قد أسهم في إفراز عدد من الانعكاسات الوقتية للبيان تدور حول الآثار السيكولوجية له والتي أهمها:
- إثارة الهاجس الأمني وتضخيم احتمالات الخصم لمواجهة عمل مضاد عاجل، أثر على الثقة العالية التي بدا عليها المتحدثون، لدرجة أن دوائر المخابرات الأمريكية اعتبرت أن عبارة "**أقسم بالله العظيم**" التي أطلقها ابن لادن هي بمثابة "**كلمة سر**" لأتباعه للقيام بأعمال مضادة للولايات المتحدة لقد جاءت تطورات مرض الجمرة الخبيثة (الإنثراكس) لتضفي على النفسية الأمريكية العامة الكثير من الاضطراب والمخاوف ذات الارتباط.
- توزيع الاهتمام العالمي المتوجه إلى ما يجري في أفغانستان بين لونين من الحرب: الحرب العسكرية الدائرة، والحرب الدعائية التي أكد المراقبون أن أسامة بن لادن "**موهوب فيها لأقصي درجة**" إلى الحد الذي أعرب عنده خبراء الإرهاب الأمريكيون عن مخاوفهم من احتمالات تغلغل خطاب الرجل إلى أعماق الشعوب في الغرب؛ إذ قالت الجارديان تحت عنوان

"**ابن لادن يكسب حرب الدعاية**": "**إن اتجاه الأحداث يمضي لتحويل ابن لادن إلى بطل أسطوري في العالم الإسلامي**" فيما أكد الخبراء "**عجز أمريكا وحلفائها عن مجاراته فيه**"[183].

- لاشك أن الخطاب كان له وقعه على الكافة، إلا أن التحرك الأمريكي المضاد جاء على غير المتوقع تماماً؛ إذ ضربت الولايات المتحدة بعرض الحائط مآثرها المروج لها من حرية النشر والاتصال والتعبير.... إلخ، لتصدر أمراً سياسياً بخطر إذاعة أو نشر بيانات ابن لادن في وسائل الإعلام الغربية في أوربا وأمريكا، وأسرعت تضغط على سائر الدول بما فيها قطر صاحبه القناة ذات الاتصال مع ابن لادن لقطع السبيل أمام الرجل لكسب هذه الحرب الدعائية. ومن ثم لم تلق بيانات القاعدة فيما بعد ذات الصدى. الأمر الذي بدت طالبان إزاءه تعمل وحدها في الميدان.

منذ بدء القصف الأنجلو– أمريكي لم يكف متحدثو طالبان عن إعلان التحدي والصمود بترديد أن الملا عمر وابن لادن اللذين أضحيا غاية الغارة الأمريكية على قيد الحياة وفي أمان تام، مع تأكيد الإصرار على الموقف والاستعداد للتضحية على نحو ما أعلنه عبد السلام ضعيف (10/9) سفير طالبان لدى إسلام أباد وعبد الحي مطمئن المتحدث باسم الملا عمر الذي أضاف "**إن مقاتلي الحركة لم تلحق بهم أي خسائر وكذلك الضيوف المجاهدون.. وأن المدافع المضادة للطائرات تجبر مقاتلات أمريكية على الفرار**"[184].

عسكرياً تجلي أن استراتيجية طالبان وكانت ترمي إلى الصمود –كيفما أمكن– أمام الغارة الأمريكية والحفاظ على الوجود بإعادة انتشار قواتها دفاعياً وإخراجها من حيز التعرض للقصف الجوي البحري،مع الاحتفاظ بالقوات الكافية في الشمال والشرق على خط المواجهة مع تحالف الشمال والاقتراب من قواته بما يصعب على الطائرات على الأمريكية مهمة قصف خطوطها الأمامية المكشوفة.

وعليه فقد راهنت طالبان على قدرتها على التحلي بالصبر وتفادي الآثار السياسية والخسائر المادية الجسيمة للقصف الأمريكي. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الخطاب العسكري الطالباني سعي جاهداً إلى"**استفزاز واستدراج**" العسكرية الأمريكية للنزول المبكر إلى الأرض والضغط الدعائي على الأمريكان للإشعار بعدم جدوى الاستمرار في ضرب جوي دون حرب برية.

وفيما بين الصمود والاستدراج العسكريين، فإن طالبان واجهت التهديد الفعلي من قبل التحركات السياسية التي قادتها الولايات المتحدة ونشطتها قيادات الاتحاد الأوربي وممثلو الأمم المتحدة في لندن وباريس وبون وروما وبروكسيل، والتي سعت إلى تكثيف المؤازرة السياسية والإعلامية لصالح التحالف الدولي وراء الولايات المتحدة، من خلال الإعلان المتتابع عن الاستعداد للإسهام العسكري البري في الغارة القائمة، والاضطلاع بأدوار منظمة في تأليب القوى الأفغانية في الشمال وقبائل الجنوب، وفي تحريك المسار الذي تقوده مجموعة روما الأفغانية بزعامة محمد ظاهر شاه نحو صياغة المستقبل الأفغاني فيما عُرّف بـ"**ما بعد طالبان**"، علاوة على الدور المالي في دعم الكثيرين من المناصرين للحرب الأمريكية في العالم الإسلامي، بل والسعي لتجميد حالة الهياج الشعبي الإسلامي وموجة الرفض الشعبي في الغرب للحملة الدائرة.

لقد جاء طالبان الخطر من كل مكان.. غير أن السهم القاتل لم يكن لينطلق إلا من قبل المحاربين بالوكالة في جبهة رباني ووزرائه المدعومين من روسيا وطاجيكستان وأوزباكستان في الشمال الشرقي، وفي جبهة الشيعة بزعامة إسماعيل خان الذي قاد حملة دعائية مضادة تدّعي توالي استسلام قوات الحركة أمام قواته وانضمامها إليه[185].

أمام هذا الحشد من الأحزاب التي لم تجتمع كلمتها من قبل على شيء، انتهجت طالبان سياسية تعبر عن مزيد من التحدي والصمود. فراح الملا عمر يدعو القبائل للحرب جنباً إلى جنب مع طالبان، ويوسع دائرة المعركة

زمنياً وموضوعياً بالقول إنها لن تنتهي بوفاته..: "**إن آخرين سيحلون محلي**"، مستغلاً الهياج والاحتجاج الذي عم العالم الإسلامي،سيما في باكستان التي باتت على حافة الهاوية منذ الأسبوع الأول للغارة. ولقد دفع ذلك بوش للتعبير عن مخاوفه وتحذيره للأمريكيين، وليصرح في أول مؤتمر صحفي رسمي في البيت الأبيض منذ 11 سبتمبر بإمكان أن "**يعيد النظر في الحملة الأمريكية على أفغانستان إذا قامت طالبان بتسليم ابن لادن**"، فيما سماه "**الفرصة الأخيرة**"[186] إلا أن طالبان ردت عليه سلبًا معلنة أن "**المسألة لم تعد مسألة ابن لادن ولا كانت**"[187]، في حلقة مفرغة ومتكررة من الإيجاب والسلب بين واشنطن وقندهار في دعوات التفاوض أو التراجع المتبادلة من حين لآخر.

على هامش الصمود: مأساة الشعب وملهاة حرب نفسية

لم تكف طالبان عن مواصلة التأكيد على سلامة الرجلين المستهدفين كإعلان مستمر عن الإخفاق الأمريكي، وإبراز تزايد أعداد الضحايا المدنيين فيما وصفه ضعيف بـ"**منحة أمريكا إلى شعب أفغانستان البريء**"، وأكده الملا محمد أختر من أن العدد الأكبر من الضحايا من النساء والأطفال، وأن جميعهم من المدنيين، الشيء الذي قدر عدده خلال الأسبوع الأول بأكثر من (220) شخصاً[188].

ورغم أن دفاعات طالبان ومضاداتها الجوية كانت قد خرجت من المعركة مبكراً بنهاية الأسبوع الأول تقريباً، إلا إن الأسبوع الثاني يوصف– بحق –بأنه "**أسبوع غير أمريكي على الإطلاق** "؛ حيث بدت الولايات المتحدة أقل قدرة على المثابرة أمام عدد من الضغوط التي راحت تتداعي على حملتها: فقد استحالت الهواجس الأمريكية والغربية إلى حالة من الهلع مع استفحال خطر "**الجمرة الخبيثة**" إلى حد إعلان أشكروفت وتومي تومبسون أن الولايات المتحدة تواجه هجوماً إرهابياً بيولوجياً، نسبه ديك تشيني – بدوره – إلى ابن لادن وقاعدته[189]. هذا في الوقت الذي شرعت فيه الأخطار تحدق بالحملة على حافة مسرحها على خلفية توجه الهند إلى تصعيد التوتر على حدودها الكشميرية مع باكستان؛ الأمر الذي دفع واشنطن وأعوانها إلى البحث عن انتصار محقق سواء على الصعيد العسكري أو السياسي.

فمن ناحية، اتجهت العمليات الأمريكية إلى تشديد الضغط على الميليشيات الطالبانية باستخدام رخات من القنابل العنقودية – المحرمة دولياً– تزن الواحدة في المتوسط ألفي رطل، والتي أسماها العسكريون الأمريكان بالقنابل الذكية؛ إذ نجحت فى إحداث أكبر قدر من الخسائر في صفوف المدنيين بالأساس(!) وهدم العديد من القرى وأنصاف القرى والأحياء فيما اعترف البنتاجون بعدد من حالاته سيما التي تكررت تجاه بعثات المنظمات الدولية[190]، في الوقت الذي لم يسفر فيه الضغط الأمريكي على خط المواجهة شمالاً سوى عن تقديم مكتوف من قبل قوات المعارضة الشمالية دون أن يتسبب في إحداث الهلع الذي انتظرت واشنطن أن يرغم قادة طالبان وقواتها على الفرار أو التسليم.

بيد أن الحرب الدعائية كانت هي الأسوأ بالنسبة إلى طالبان، وعلى صعيد الداخل الطالباني شرعت وسائل الإعلام المختلفة تورد شائعات عن انشقاقات سياسية داخل طالبان وأخرى أفغانية – عربية تؤذن بانهيار الحركة ذاتياً فتذكر قناة الجزيرة القطرية – التي وصفت بالمقُربة من طالبان والأفغان العرب– أنباء عن وصول وكيل أحمد متوكل وزير خارجية طالبان إلى الإمارات العربية (10/14) خروجاً على الحركة، الأمر الذي نفخت فيه العديد من الدوائر معرضة باحتمال التعاون مع "**المعتدلين**" الطالبانيين إلى أن ظهر الرجل وأكد بنفسه أنها مجرد دعاية مغرضة[191]. ذات الأمر الذي تكرر في إيراد الأخبار عن وقوع اشتباكات طالبانية ضد مقاتلين عرب يلبوا مكتب إغاثة تابع للأمم المتحدة.

واجهت طالبان هذا البلاء المتناقل عبر الأسابيع الثلاثة الباقية على المحورين المضادين: فمن ناحية حرصت

دعاية الحركة على إبراز وتضخيم حجم الخسائر في الجانب الأمريكي في الأفراد والمعدات.. فمثلاً يعلن وزير الحدود والقبائل جلال الدين حقاني (10/21) مقتل ما بين20-25 من الكوماندوز الأمريكيين مع إسقاط مروحية أمريكية مكذباً الادعاء الأمريكي بأنهم أقل من ذلك بكثير. وراح خطاب الحركة يسعى إلى استفزاز عدوها للمخاطرة بالنزول إلى الأرض فيما عرفه المراقبون بـ" **الفخ الأفغاني**" وبهذا الصدد أعلنت جلسة خاصة لطالبان برئاسة رجلها الثاني (ملا محمد حسن) تعزيز دفاعاتها استعداداً لاحتمالات إنزال وحدات خاصة أمريكية لتنفيذ عمليات خاطفة، وأعلن المجتمعون عن ارتياحهم لمستوى الأداء الذي أفشل المحاولات الأمريكية لهذا الحين[192].

ومن ناحية أخرى، سعي الملا عمر إلى التأثير في القوي الأفغانية لتمتين الارتباط مع المناصرين واكتساب المزيد منهم إلى صفة، وتخويف الخائنين. فدعا عمر قبائل البشتون على الحدود مع باكستان إلى إرسال الآلاف من أبنائها للجهاد ضد أعداء الإسلام، وأوفد وسيطًا إلى أحد زعماء قبيلة رودي جليزاي (عبد الباري معروف) يستحثه على ذلك فيما بدا أنه أمر غير هين في ضوء غلبة قبيلة "**دراني**" التي ينتسب إليها الملك المخلوع ظاهر شاه بين نحو خمسين قبيلة مموهة المواقف.

ومع تصاعد مظاهر الإحباط الغربي وتزايد الشكاوى من تطاول أمد الحرب سيما في الخطاب الإسلامي ومناشدات الجنرال مشرف، كثفت الولايات المتحدة من غاراتها التي كانت الأسوأ من نوعها منذ بدء الحملة وحتى نهاية الأسبوع الثالث، وذلك على كافة خطوط ومواقع قوات طالبان في حالة من الغضب الهادر بدت أدني إلى الجنون وأسفرت عن نجاح منقطع النظير في قصف حي قلعة الماطر في كابول والمعروف بحي "الأكواخ" بوابل عاصف من القنابل (الذكية) والصواريخ (الموجهة). في حين جنرالات واشنطن لأول مرة وبتردد شديد اقتراب ساعة النزول الأمريكي، ويناشد البيت الأبيض الشعب الأمريكي وحلفاءه التحلي بالصبر (!!) حتى تحقق الحرب أهدافها، لأنها عملية معقدة للغاية، كما أنها ليست"**حرباً تقليدية**"، وذلك في خضم اتهامات الخبراء الاستراتيجيين للقوات الأمريكية بأنها "**أسيرة الرعب**" من أي مواجهة مع قوات طالبان، الأمر الذي شهر به ابن لادن في بياناته من قبل[193].

جاء الأسبوع الرابع متصلاً بسابقه، حيث شنت الطائرات الأمريكية ما عرف بغارات "**العقاب والانتقام**" على كافة المدن الرئيسية في غيظ حانق دفع المراقبين على القول بأنه إذا كان التحالف الدولي قد نجح في شيء، فإنما نجح في كسب عداء الشعوب سواء داخل أفغانستان أو في جواريها سيما في باكستان، وفي العالم الإسلامي برمته، وأن مشاهد القتلى والجرحى والأشلاء والمشردين من الرجال والنساء والولدان الأفغان فتحت على واشنطن وحلفائها نيران الغضب الشعبي عالمياً واعتراضات المنظمات الدولية وغير الحكومية حتى داخل أمريكا نفسها، بل إن مشايخ القطاع الذي تسيطر عليه المعارضة راحوا يسمون أمريكا "**بالشرير الذي جاء ليحصد أرواح الأبرياء بغير اهتمام.. إننا نحن مذنبون، لأننا نحن الذين دعوناهم إلى بلادنا**" على حد تعبير واعظ قرية" **خان أغا**"[194].

ومن ناحيتها، واصلت طالبان مسيرة إعلان الصمود والتحدي ومحاولات استفزاز الأمريكان للانتقال إلى الخطوة التالية قبل أن تتهاوى قبضة الحركة التي بدت – رغم ذلك في طور من الإعياء فيعلن الملا عمر أن "**الحرب الحقيقية ضد الولايات المتحدة لم تبدأ بعد... إن قواتها البرية لن تستقبل بالورود حين تهبط**"، تزامنًا مع سعى الحركة لتفعيل تحالف مع فصيل قلب الدين حكمتيار الذي صرح تلفزيونياً أن المحادثات التي يجريها مع الحركة لا تهدف إلى تشكيل جديد بل إلى تشكيل جبهة متحدة للدفاع عن أفغانستان.

وعامة فقد كان لهذا الصمود والتحدي والتهديدات الملحقة به آثارها المشهودة؛ إذ شهدت الإدارة الأمريكية والمجتمع الأمريكي حالة استنفار وتأهب قصوي عقب

تهديدات أعلن عنها جون أشكروفت في مؤتمر صحفي مفاجئ بالبيت الأبيض آخر أكتوبر،على أثرها تم نقل نائب الرئيس الأمريكي تشيني إلى مقر آمن وأعلن وزير الأمن الداخلي الجديد توم ريدج أن مصدرها هو أسامة بن لادن والقاعدة، الأمر الذي رأى فيه البعض محاولة للمشاكلة على حالة التململ التي أصابت الرأي العام الغربي، مع تطاول أمد الغارة دون جدوى حقيقية وتصاعد اعتراضات حركات المناهضين للحرب **anti-war movements** في كافة أقطار الغرب بما هدد بتفتيت التحالف الدولي على نحو ما صرح به وزير الخارجية الفرنسي[195].

علاوة على ذلك أثمر الصمود الطالباني إثارة مسألة "**عامل الوقت**" وضرورة تحديد أمد الحرب على ما تكرر في خطابات قادة الدول الإسلامية. مسألة شهر رمضان ومسألة الشتاء الأفغاني. الأمر الذي دفع الدبلوماسية الأمريكية مدعومة من قبل الاتحاد الأوربي وعلى الأخص الحليف البريطاني لشن هجوم مضاد إعلامياً ودعائياً للتهوين من أثر عامل الزمن هذا والمطالبة بانتهاج سياسة "**النفس الطويل**" والتأكيد الحازم على مواصلة الحملة دون توقف أو شعور بالإحباط، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخري حرصت هذه الدبلوماسية المضادة المنظمة على احتواء الآثار الجانبية للحملة وللفشل المترائي بترديد عدم استبعاد اللجوء القريب إلى الحرب البرية، وعبر تتابع المكافآت أو تحديد الإيعاد بها في محاولة لإعادة بث الروح بكثير من النقاط المأزومة سيما في العالم الإسلامي وفي الجوار الأفغاني القريب. يبد أن ذلك لم يخفف فعلاً من الشعور الأمريكي بالإحباط والرغبة العارمة في تحقيق أي تحول نوعي في حالة من التضارب المعنوي عبرت عنها التصريحات الأمريكية والأوربية من قبيل تصريح رامسفيلد:"إنه لابد من إحراز نصرما وبسرعة "**إنه لابد من إحراز نصرما وبسرعة لإعادة الثقة إلى الأمريكيين والتي أخذت تتضاءل على مختلف الجبهات داخليًا وخارجياً... إنه لم يمض على الحرب إلا 22 يومًا، وإن فكرة تحقيق نصر سريع لا تعكس الواقع وغير منطقية**"[196].

عبرت هذه الفترة عن حالة سياسية معاكسة تماماً للوضع العسكري، مع استمرار الصمود والتحدي السياسي والخطابي الطالباني بروح معنوية تبدو عالية-أو هكذا تبدو- مقارنة بالارتباك السياسي الأمريكي والغربي، مما انتهي إلى تصويب الأنظار نحو الخيول الأفغانية التي ما فتئت تلح على التحالف الدولي للمراهنة عليها في السباق المأزوم، مما أسفر عن قصتي لوردات الحرب، والمحاربين بالوكالة.

قصة لوردات الحرب:

إن قصة "**لوردات الحرب**" التي شكلت حلقه فارقة في سلسة إفرازات الغارة الأمريكية تلقي المزيد من الضوء على جانب هام من الحقيقة السياسية الإسلامية عامة والأفغانية تحديداً. فإذا كان قد عيب على طالبان أو الأفغان العرب تعجل المواجهة ضد من عدُّوه عدو الإسلام دون وسائل مكافئة فيما عد تغريراً بالمسلمين ومقدراتهم، فماذا عن الذين يجعلون من أنفسهم، من أرواحهم وأموالهم ودعايتهم جسوراً يعبر عليها من لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة، ويوالون من لم يصدر عنهم ما يمكن أن يُأَوَّل على سلامة غرض أو نزعة إنسانية والذين أعلنوها صريحة: إنهم إنما يحاربون لمصالحهم، ومصالح شعوبهم الخاصة؟

ففي مطلع الأسبوع الثالث من الغارة بدا التململ والإحباط بالأساس من نصيب قادة وشعوب التحالف الغربي، فسعار الإنثراكس بلغ المنتهي حتى نكست الأعلام في كافة الولايات الأمريكية وأقرت القيادة الأمريكية بعدم قدرتها على ضمان سلامة البريد، واضطر بوش إلى التأكيد على أنه لم يصب بالمرض [197]، في ظلال قائمة من موجهة التظاهر العالمي ضد الحرب الدائرة، أمام هذا العجز والتداعي لجأت الاستخبارات الغربية إلى الخيول الأفغانية الجاهزة لاختراق الصفوف وإثارة القبائل المترددة لتتخلي عن طالبان وتفتح جبهة أخري ضدها سيما في الجنوب وحول قندهار. إن قصة "**لوردات الحرب**" التي شكلت حلقه

فارقة في سلسة إفرازات الغارة الأمريكية تلقي المزيد من الضوء على جانب هام من الحقيقة السياسية الإسلامية عامة والأفغانية تحديداً. فإذا كان قد عيب على طالبان أو الأفغان العرب تعجل المواجهة دون وسائل مكافئة فيما عد تغريراً بالمسلمين ومقدراتهم، فماذا عن الذين يجعلون من أنفسهم، من أرواحهم وأموالهم ودعايتهم جسوراً يعبر عليها ومن لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، ويوالون من لم يصدر عنهم ما يمكن أن يؤول على سلامة غرض أو نزعة إنسانية والذين أعلنوها صريحة: أنهم إنما يحاربون لمصالحهم ومصالح شعوبهم الخاصة؟

في غمار ذلك تصدرت المشهد شخصية قائد ميدان أفغاني سابق أجمعت الدوائر الدبلوماسية والاستخبارية الأمريكية على وصفه بأنه **"سيد حرب من الصنف الذي نحب"**، وكالت له الصحف والإعلانات الغربية عبارات الثناء. كتعريفه **بأسد بيشاور** كما عرفت أحمد شاه مسعود من قبله بـ**"أسد بانجشير"**. ثم عبارات الرثاء الذي لم ينقطع، لميوله نحو التعاون مع العالم المتحضر وتنديده المتكرر بـ **"التطرف الإسلامي"** وتأييده لتعليم النساء وتحدثه الإنجليزية بطلاقة، فضلاً عن أنه **"يشرب مشروبات غازية أمريكية"**(!)، تقول عنه النيوزويك الأمريكية الأسبوعية: **"بعد أن تخلى عن أعماله المربحة في الاستيراد والتصدير في دبي، قصد باكستان في سبتمبر (2001) في محاولة لإقناع أسياد حرب آخرين بالابتعاد عن حركة طالبان الحاكمة بغية تشكيل** " ائتلاف سلام " **وفي 21/ أكتوبر تسلل إلى داخل الحدود الأفغانية، ويقال إنه حمل معه الكثير من الدولارات الأمريكية، وقد استلزم حركة طالبان خمسة أيام لتعقب عبد الحق ومقاضاته في محاكمة صورية استغرقت ساعتين وإعدامه باعتباره جاسوساً"**[198].

حاول البعض نفي أن الرجل كان يعمل لمصلحة الاستخبارات الأمريكية، خاصة روبرت ماكفرلين- مستشار الأمن القومي السابق في إدارة ريجان (التي احتفت بالرجل في البيت الأبيض عام 1985) والذي عمل مستشاراً لعبد الحق حتى مصرعه، إلا أن هذه الصلة تأكدت مع صعود الأصوات الخلافية في الكونجرس الأمريكي حول اتهامات اللجنة الفرعية للعلاقات الدولية بمجلس النواب الأمريكي للمخابرات الباكستانية بالوشاية بـ **"الجنرال عبد الحق"** وللمخابرات الأمريكية بأنها لم تبذل جهداً كافياً لإنقاذه؛ حيث جري إعدامه يوم 26 / أكتوبر[199].

كان تعليق الحركة على ذلك صارماً: **"إن مصير أي أفغاني يتعامل مع الولايات المتحدة والتحالف المعارض هو الموت... وسوف يصاب من يرجون العودة إلى الحكم بمساندة أمريكا بالخيبة، لأننا سنلجأ إلى الجهاد لضمان أن يكون الشعب الأفغاني هو المصدر الوحيد لحكامه** "... هكذا صرح الملا عمر[200].

يبد أن محاولات ارتياد الخيول الأفغانية لم تتوقف بالتخلص من عبد الحق على ما بدا للمراقبين، فقد كان ثم مغامر آخر أكد الأمريكيون أنه أجود من عبد الحق من زاوية حذره الشديد وتأكيده الاتصال بهم قبل إقدامه على دخول أفغانستان، علاوة على حرصه على التسليح الجيد للمجموعة المحيطة به.

إنه الرجل الذي قدر لأفغانستان أن يقف على رأسها بعد أن تضع الحرب أوزارها، والذي كان أول من تطوع لمهمة تأليب القبائل البشتونية الجنوبية- حتى قبلما يفعل عبد الحق- على أساس انتسابه إليها، وماضي والده البرلماني، وشهرته هو كأحد الأفراد المنتسبين إلى آخر حكومات ظاهر شاه كوكيل لوزير الخارجية فيها.

حاول قرضاي اختراق الحدود الأفغانية ثلاث مرات: أولها قبيل اندلاع الغارة الأمريكية وعاد منها سراعًا، إذ كانت طالبان في عنفوانها، ثم أعاد الكرة ثانية (10/8) بعد اندلاع الحرب بيوم واحد، إلا أن الثالثة كانت الأكثر بروزاً وهي التي أعقبت إعدام عبد الحق مباشرة؛ إذ نجح قرضاي ومجموعته في استغلال المأزق الطالباني في الشمال والوسط، لتشكيل ميليشيات تحمل اسم قبائل أفغانية في الجنوب، صرح الأميرال جون

ستوفليبيم- مساعد مدير العمليات في هيئة الأركان الأمريكية المشتركة- أنها شرعت تقاتل طالبان بنشاط[201].

إلا أن طالبان واجهت هذه المحاولة بفاعلية مشهودة؛ إذ تمكنت من التخلص من ثلاثة من أنصار قرضاي شنقاً بعد أسرهم خلال اشتباك في "**دهر واد**" بمقاطعة أوروزجان علاوة على أسرها 25 من أتباع قرضاي (11/2) حتى كاد قرضاي يقع بيد قوات الحركة لولا تدخل الطائرات الأمريكية، فيما أكدته طالبان وألمح إليه الأمريكيون و لم ينفه أحمد والي قرضاي شقيق حميد[202].

المحاربون بالوكالة: علام الموالاة وفيم المعاداة؟

إزاء تزايد حالة التأزم التي تواجه التحالف الدولي وإخفاق أعمال المجهود الرئيسي أو الاعتماد على المحاولات الشخصية لتحريك الموقف على المحاور الهامشية، وإزاء استمرار الاستفزاز الخطابي الطالباني للعسكرية الأمريكية، تحول التحرك الأمريكي متجاوزاً كوابح التردد السابق، فأعلن رامسفيلد عن خطوة للتعاون الجدي عسكرياً مع مناوئي الحركة في الداخل: "**إن واشنطن لا تشجع قوات المعارضة الشمالية فحسب، بل كذلك غيرها من القوات المعارضة لطالبان**"[203].

تأخرت هذه الخطوة لعوامل عدة، لعل أهمها: مخاوف فصيل رباني من إثارة الرفض الشعبي والإسلامي القريب من قناعته القديمة إزاء الانتصار على أكتاف الأمريكان، وشكوك واشنطن بدورها في قدرات هذا الفصيل في ظل حالة التشرذم والهشاشة التي يبدو عليها تحالفه، وفي مدي ولأنه في ظل اقتراب. هذا الفصيل من كافة القوي الكبرى بالمنطقة: روسيا، الهند، الصين وأخيراً إيران دون الإفصاح عن توجه محدد، والهوة الراسخة بينه بين باكستان أحد أهم أركان الحرب الأمريكية، بالإضافة إلى ما يتردد عن وحشية قادته بما يسئ إلى صورة التدخل الأمريكي نفسه.

بيد أن نهاية أكتوبر كانت حاسمة، إذ شرعت الطائرات الأمريكية – لأول مرة– في قصف مواقع طالبان على الحدود الطاجيكية الواقعة بين "**تخار**" معقل المعارضة ومزار الشريف والتركيز على منطقة "**كاتاكالار**" بهدف فتح ثغرات في الخطوط الطالبانية الأمامية حيث تحشد الحركة نحو ستة آلاف مقاتل، بما انعكس في تشديد الهجوم وتوسيع نطاقه إلى المدينة الاستراتيجية التي طالما فشلت قوات المعارضة في الاقتراب منها والتي تعد مفتاح الهيمنة الحقيقية على شمال ووسط أفغانستان.

في غضون ذلك، وقع أول إنزال فعلى معلن للجنود الأمريكيين على الأرض الأفغانية، والذي جاء طريفاً ومعبراً، ففي حين لا يكف الإعلام الغربي– وربما العربي– عن الإشادة بالقدرات الأمريكية ومستوي الفرق والجنود الأمريكان، فقد جاء هذا النزول كاشفاً عن حجم وعمق المخاوف الأمريكية من مغبة اللقاءات المباشرة، إذ نزل الجنود الأمريكان في "**دار الصوف**" خلف قوات المعارضة وفي حمايتها وبعدد لا يتجاوز 15جندياً.

تزامن ذلك مع عرض الفضائيات حطامات الطائرات والمروحيات الأمريكية وإعلان قناة الجزيرة المذكورة عبر مراسها –الذي وصف نفسه بشاهد عيان– عن قتل وأسر طالبان لأعداد من الأمريكان على الحدود مع باكستان. الأمر الذي دفع قادة الشمال أنفسهم سيما الثلاثي (فهيم، عبدالله، قانوني) بالإضافة إلى إسماعيل خان في الشمال الغربي للتطوع بإسداء النصيحة للأمريكان للتركيز على دعمهم معتبرين أن هذا سيكون أجدي بكثير من غاراتها غير المؤثرة[204]، الأمر الذي أسفر عن استمرار الطرافات الأفغانية.

ففي الوقت الذي يؤكد فيه مسئولو طالبان أن نحو 500 عسكرى من الولايات المتحدة وحلفائها موجودون على الأراضي الأفغانية إلى جانب قوات المعارضة الشمالية، ويصدق البنتاجون على ذلك مع إعلانه تركيز القصف على الجبهة الطالبانية شمال كابول ومزار الشريف في نحو

مائة طلعة يومية، وإلحاح قادة هذه المعارضة على المزيد من ذلك عبر لقاءات لهم مع العسكريين الأمريكيين في دار الصوف، ثم التقاء محمد قاسم فيهم في دوشانبة (10/31) مع القائد العام للعملية الدائرة تومي فرانكس الذي أكد كل ذلك، في هذا الوقت يصر رجل واحد على إنكار ذلك واعتباره "**معلومات مغلوطة**" هو برهان الدين رباني[205]، الذي جاء صورة معبرة بكل وضوح عن مصائر المذبذبين وعواقب التخلي عن الذات وامتهان المبادئ؛ الأمر الذي جعلنا نتساءل بحق: ما هي منطلقات هذا الفريق في يومه هذا؟ وإلامَ يسعى؟ وبأي شيء هو يؤمن؟!

على كل، فقد بدا مع مطلع نوفمبر أن الاختبار الحقيقي لطالبان قد بدأ؛ إذ كشف أحمد ضياء (شقيق الراحل أحمد شاه مسعود) عن إعداد قوات المعارضة الشمالية لحملة برية قاصفة على كابول خلال أيام تحت غطاء قصف جوي مكثف، في مخطط أُعِدَّ بالاشتراك بين التحالف الأمريكي والتحالف الأفغاني فيما أطلق عليه البعض (تحالف الشمال) في الوقت الذي يكشف فيه من جانب آخر، وزير داخلية هذا التحالف "**يونس قانوني**" – الذي صار يمثل الواصلة بين التحالف الشمالي ومكتب روما– عن الاستعدادات لإعلان تشكيل مجلس وطني "**لويا جيركا**" لتشكيل حكومة جديدة في أفغانستان بالتعاون مع ممثلي الملك المخلوع ظاهر شاه.

وفيما عبر الإعلان الأخير المكرر عن سعي حقيقي تشوبه محاولات للضغط المعنوي على طالبان، فإن الإعلان الأول اشتمل على حقائق مموهة أسفرت عنها تداعيات الأسبوع الأول من نوفمبر، والذي ما كاد ينتهي حتى أخذت طالبان تتهاوي وتفاجئ الجميع بسرعة عالية التقهقر والتخلي عن المدن الواحدة تلو الأخرى.

فالتصريح السابق ذكر "**كابول**" تمويهاً بينما المعروف أن البداية لابد أن تكون من نصيب مزار الشريف التي يسهل بعدها كل شيء تقريباً، وبالمثل موه هذا التصريح على "**الجديد**" في المخطط، والذي اشتمل على تنسيق تام بين الطيران الأمريكي والقوات البرية للمعارضة الأفغانية فيما يمثل البداية الحقيقية والجادة لغزو أفغانستان على ظهور خيولها؛ فالجديد أن الهدف العسكري لم يعد تدمير البنية العسكرية والقوى النيرانية والاتصالية والقيادية للحركة التي لم تعد ذات بال، أو حتى التأثير سلباً في الروح المعنوية للمقاتلين باستمرار تشديد الخناق عليهم على نحو ما سارت عليه الحملة الأمريكية إلى هذا الحين، بل تحول الأمر إلى استهداف تدمير قوات طالبان نفسها، وإحداث أكبر قدر من الخسائر في الأرواح يجبر القادة الميدانيين على التسليم أو الفرار، ويفتح الطريق أمام قوات المعارضة للانقضاض على مواقعهم.

وعليه جري توزيع الأدوار بحيث يستفز الهجوم البري من قبل المعارضة قوات طالبان لتخرج من مكامنها، أو تعيد الانتشار بما يعني في كل الأحوال انكشافها، في حين تنطلق الطائرات الأمريكية – ومنها عدد من القاذفات بعيدة المدى– لحصد القوات الطالبانية على خط المواجهة الفاصل بين الفريقين، بتركيز شديد تستخدم فيه إلى جانب القنابل الانشطارية الضخمة المعهودة منذ بدء الحملة، قنابل أخري من مخزون الترسانة الأمريكية على رأسها ما وصف "**أعتي وأقوي وأثقل سلاح تقليدي في العالم**" وهو القنبلة **BLU-82** التي يقرب وزن الواحدة منها سبعة أطنان من مواد شديدة الانفجار يمكنها تحويل كل شيء في دائرة قطرها "**600 ياردة**" إلى رماد.

كان هذا ما حدث – على رواية المتحدث الرسمي بالبنتاجون العميد بحري ستوفليبم – منذ السادس من نوفمبر وإلى أن سقطت مزار الشريف (وليس كابول) في 2001/11/9 في أيدي قوات التحالف، ثم توالي سقوط الولايات الشمالية، وعلى رأسها ولاية تخار بسقوط مركزها طالوقان، وولاية بادغيس ثم سقوط مدينة هرات بيد إسماعيل خان، وسط دهشة عارمة وحذرة من انعدام المقاومة الطالبانية، فيما ظنه البعض نوعاً من المناورة العسكرية من الحركة التي اعتادت أسلوب الكر و والفر،

سيما في ظل إعلان بعض قادتها أن قندهار ستكون المنطق لتحرير المدن التي احتلتها قوات الشمال، وأن قوات الحركة ما انسحبت من كابول (11/13) إلا لتجنب وقوع المزيد من القتلى بين المدنيين، الظن الذي أغفل حقيقة أساسية دارى عليها الصمود الطالباني السابق لمدة خمسة أسابيع متواصلة، وهي أن طالبان قد تكون قادرة على الصبر والصمود وتحمل الحصار، والتعامل الإيجابي مع حالة "**الدفاع**"، إلا أن الحقيقة السافرة أنه ليس بمكنة هذه الحركة – على ضوء تدني إمكانياتها– أن تقود حرباً هجومية تقليدية بعيداً عن خنادقها والجبال والمواقع المحصنة.

وقبيل أن نتعرض لكافة إفرازات نهاية التجربة الطالبانية في الحكم ودلالاتها، نجد من المفيد أن نستكمل تداعيات وإفرازات رحلة الصمود، وما كشفت عنه الغارة الأمريكية من حقائق ذات بال، والتي يمكن الاقتصار فيما تبقي منها على ما أبانت عنه هذه الفترة من نموذج فريد للأممية الإسلامية المقاتلة في صفوف طالبان، علاوة على الإشارة إلى دور منظمة الأمم المتحدة في المعركة على أساس أنها سوف تلعب دور المنسق المرتكز عليه عبر جولة "**ما بعد الحكم الطالباني**".

المقاتلون في صفوف طالبان: نصرة إسلامية أم أممية طالبانية؟

في أتون المعركة تنكشف المعادن وتستبين الجواهر؛ فعلى الرغم من الدعاية الضخمة في الغرب وفي عالم المسلمين ضد الحركة الطالبانية وأسلوبها في الحكم باسم "**النظام الإسلامي**" على نحو ما استهجنه قطاع كبير من النخب المثقفة عبر جولات الإثارة الطالبانية المختلفة، إلا أن ذلك لم يمنع من التأكيد العام على أنهم "**مسلمون يصيبون ويخطئون**"، الأمر الذي كان له مردوده التلقائي والعميق في اندلاع التظاهرات الشعبية في أنحاء العالم الإسلامي، سيما في باكستان وجنوب شرقي آسيا، وفي كثير من الأقطار العربية، تؤازر الحركة وترفع لافتات تحيل ابن لادن إلى رمز شعبي للاعتراض على الصلف الأمريكي، بماكان له وقعه التلقائي على مجريات الغارة الأمريكية وخاصة في إحراج مواقف أطراف التحالف المتعاونة والمطاوعة على النحو السابقة الإشارة إليه.

بيد أن الظاهرة الملفتة للانتباه تمثلت في تداعي الشباب المسلمين من كل حدب وصوب لمناصرة الحركة بالنفس، والذين جاء الإعلان المتواتر عن جنسياتهم وقومياتهم المتعدية للأفغانية والباكستانية بل وللعروبة ليُسهِم في إنفاذ رسالة هامة عن الطور الحالي الذي تمر به أمة الإسلام على صعيد البعد العقائدي، وعلاقته بالأبعاد السياسية والقانونية.

فعلاوة على إيفاد جماعات وقبائل باتانية (بشتون الباكستان) وفوداً من العلماء والزعامات إلى أفغانستان لمحادثة مسئولي طالبان حول ما تحتاجه الحركة من أعداد لمواجهة الضربات الأمريكية، وتوالي قدوم الآلاف من رجال هذه القبائل على الحدود في انتظار تصريح طالبان لهم بالدخول والمشاركة في الجهاد على نحو ما عبر عنه عدد منهم[206]، كشفت وسائل الإعلام عن مشاركة مقاتلين مسلمين من كافة أنحاء العالم إلى جانب طالبان: من ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وأسبانيا وكندا وأستراليا والصين والهند وروسيا ودول آسيا الوسطي والقوقاز والبلقان والسنغال ونيجيريا وشمال إفريقيا ودولة جنوب إفريقيا وغيرها.. بل ومن الولايات المتحدة وبريطانيا قائدتي التحالف نفسيهما، سواء كانوا منتمين إلى منظمات وجماعات أو جاءوا من تلقاء أنفسهم[207].

لم يأتِ هؤلاء الشباب من أجل مظاهرة الوجود الطالباني وتكثير العدد وحسب، إنما للانغماس في القتال نفسه؛ فالإعلان الأول عنهم سيما منذ مطلع الأسبوع الثالث للغارة جاء عبر روايات عن مصارعهم: (أربعة بريطانيين وأمريكي قرب كابول 10/23)، ثم الإعلان عن سائر الجنسيات التي ورد أن أعداد الغربيين منهم بلغت الألف إلى هذا الحين، والذين جاءوا على أساس أن المعركة الآن هي معركة "**الدفاع عن الإسلام**" على حد تعبير أحدهم

عقب وصوله إلى لاهور على الحدود الأفغانية – الباكستانية[208].

لقد راع ذلك الغرب، فراحت التهديدات الرسمية والتهييجات الإعلامية تتوالى ضدهم لمحاكمتهم بتهمة الخيانة العظمي، سيما في بريطانيا التي خرج منها العدد الأكبر، فيما بلغ نحو السبعمائة في بيان لحركة "المهاجرون" من إسلام أباد (10/30)([209]).

أثارت هذه الظاهرة تساؤلات هامة على صعيد الرابطة السياسية التي تميز الدولة القومية المعاصرة، وما وراءها من المنطق العقائدي (بالمعنى الواسع للعقيدة السياسية)، وما فوقها من المرجعية النظامية الكامنة، والتي تضع تلقائيًاحدود الواجب والمحظور والمباح، وتفرز عقوبات تلقائية ظاهرة وباطنة على من يتعداها. لقد عرَّى ذلك حقيقة الادعاء الغربي التنويري فالحداثي بالتبرؤ من كل عقيدة تحت ألوية الليبرالية والعقلانية والوضعية والعلمانية وخلافه.

إلا أن السؤال الخاص بالأمة نفسها يتلخص فيما تمثله تلك الظاهرة من مغازٍ وانعكاسات مستقبلية؛ فعلى الرغم من الانكسارة الطالبانية وتراجع القاعدة إلى الجبال، فإن آثارًا من تلك أصابت قطاعات واسعة من الأمة التي اندفع أبناؤها إلى أتون المعركة باسم الإسلام والجهاد في سبيل الله –تعالى– فكيف أدركت الأمة بقادتها ونخبها وأوساطها الجماهيرية هذه الظاهرة؟ لا شك أن جزءًا هامًا من مستقبل هذه الأمة في وعيها أو لاوعيها سيتأثر بالإجابة عن مثل هذا التساؤل!

الأمم المتحدة: هل أُزيح الستار بين القانون والسياسة؟

في عالم الإسلام ثَم اتجاهان رئيسان في النظر إلى الدور الذي تلعبه الأمم المتحدة في المنظومة العالمية الراهنة، هذا الدور الذي يتراوح بين حالتي الفعل والانفعال لكنه في كل الأحوال بدا غير موائم للحقوق والغايات الإسلامية فيما يظهر ضمن تفاعلات المنظمة مع قضايا الأمة الكبرى بدءاً من فلسطين وحتى إندونيسيا، ومروراً بالعراق وليبيا ولبنان والصومال وأفغانستان وغيرها.

خلاصة الفارق بين الاتجاهين هي مراوحة النظر إلى المنظمة الدولية بين اعتبارها أداة مظهرية بيد القوي الكبرى للتحكم بمصائر شعوب الأمة وحقوقها، وانعدام الثقة في أي معاني النزاهة المفترضة فيها، وبين اعتبارها بمثابة الفرصة المتاحة للدفاع عن الحقوق ضمن مرجعية تنفق ومبادئ العدل والإنصاف والمساواة. هذا الفارق المعبر عن التيارين الكبيرين للإصلاح في عالم الإسلام.

بيد أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما بعدها والسابع من أكتوبر وما تلاه كانت كاشفة وذاهبة بالنظر إلى المنظمة في الاتجاه المنتقد لها. فلم يكف متحدثو طالبان عن انتقاد الدور الذي تلعبه المنظمة وأمينها العام كوفي عنان، سيما مع تصاعد القصف الأمريكي وتساقط المدنيين الأفغان، مما حدا بسفير الحركة لدي إسلام أباد (عبد السلام ضعيف) لكيل التهم إلى المنظمة التي وقفت "**صامتة غير آبهة لهذه الفظائع التي يذهب ضحيتها مئات الأشخاص كل يوم**"[210].

وفي هذا الصدد، لوحظ تكامل توزيع الأدوار ضمن التحالف الدولي الذي تتزعمه الولايات المتحدة بين الناتو والبنتاجون اللذين قادا المحور العسكري، والمؤسسات المالية الدولية والأصدقاء الأثرياء الذين اضطلعوا بدفع فاتورة الحرب وأثمان التعاون (كاليابان والاتحاد الأوروبي)، وبين الوكالات والقنوات والشبكات التي قادت المعركة الإعلامية وفق مراسم البيت الأبيض، ثم الأمم المتحدة التي طرحت نفسها بكل صراحة طرفاً في التحالف منذ أعلنت (9/12) أن الهجمات على واشنطن ونيويورك هي من قبيل الأعمال التي تهدد السلم والأمن الدوليين، بما يقتضي تحريك نصوص الفصل السابع من الميثاق، ويتطلب من كافة الدول الأعضاء التصدي لذلك الشيء الذي طرح له اسمٌ وفشلت المنظمة عبر لجانها ومؤتمراتها في تحديد مسماه، ألا وهو "**الإرهاب الدولي**".

ومن ثم اتخذت المنظمة وممثلوها من البداية موقفًا مناوئًا لطالبان، منصرفاً عن الالتفات إلى نداءاتها المتكررة – على نحو ما جرى عليه الأمر منذ الصعود الطالباني– إلى درجة أن الأخضر الإبراهيمي– موفد المنظمة إلى أفغانستان، والذي تم تجديد تعيينه إثر اندلاع الغارة– رفض الالتقاء بالسفير الطالباني عبد السلام ضعيف بحجة أنه ليس لديه الوقت لذلك! في الوقت الذي لا يكلّ الرجل من التنقل بين كافة الأطراف الأخرى والاجتماع بممثلي الجهات الأمنية والاستخباراتية والسعي المبكر لتشكيل "**البديل لما بعد طالبان**" بالاتفاق التام مع مكتب روما وقاصديه[211].

وهكذا أمسى مفروضاً على طالبان أن تواجه الجميع تارة واحدة، في حين تحولت الأمم المتحدة لقيادة تحركات تهدف إلى تنسيق الجهود الدبلوماسية والسياسية الخادمة للجهود العسكرية الأنجلو- أمريكية ضد الحركة، مما دفع الأخيرة إلى صب جامِّ غضبها على المنظمة، وقام بعض جنودها (11/1) بالاستيلاء على مكتب المفوضية العليا للاجئين التابعة لها في مدينة "**سبين بولداك**"، حتى إذا انبري أسامة بن لادن عقب أسابيع من الصمت لم يفعل سوى أن كال لهذه المنظمة التهم والإدانات بأنها هي وراء مآسي العرب والمسلمين، بل إنه –في شريطه المسجل الذي بثته قناة الجزيرة 11/3– وصم قادة العرب بـ "**النفاق**" لأنهم أعضاء في الأمم المتحدة:"**إن الذين يرون مآسينا فى الأمم المتحدة إنما هم منافقون يخادعون الله ورسوله ويخادعون الذين آمنوا.. هل مآسينا إلا من الأمم المتحدة؟ من الذي أصدر قرار التقسيم وأباح بلاد المسلمين لليهود؟ إن الذين يزعمون أنهم زعماء العرب وما زالوا في الأمم المتحدة هم كفروا بما أنزل على محمد، والذين يحيلون الأمور إلى الشرعية الدولية هم كفروا بشريعة القرآن الكريم وسنة المصطفي**" [212].

على كل فإنه مع السقوط المدوي لطالبان، اضطربت الحالة العسكرية في أفغانستان وسط أنباء عن مذابح ومخاز سواء بأيدي الأفغان، أو بأيدي الأمريكان من قبيل مذبحة جانجي المروعة، بينما كانت الأمم المتحدة ترتب في أوروبا أوراق المسألة الأفغانية فيما بعد طالبان عبر الإعداد لمؤتمر بون الذي قام الأخضر الإبراهيمي فيه بدور المنسق والمصمم.

وبهذا كشفت الجولة الثانية من تداعيات اليوم الأمريكي(11/ 9)، والجولة الأولى من تداعيات اليوم الأفغاني (10/7) عن الكثير والخطير من حقائق الأوضاع في هذه البقعة، سيما فيما يتعلق بالداخل الأفغاني، إلا أن التعرض لموقف المجاوبة الصامتة الذي ساد على جنبات مسرح العمليات لهو من الأهمية بقدر ما يجلي من أبعاد البيئة التي تتحرك على أرضيتها فواعل الأمة الإسلامية.

ثانيًا– الجوار الأفغاني: المواقف خلال الحرب

1– باكستان: رحلة القرارات الأصعب...

مع بدء الغارة الأمريكية غرقت المدن الباكستانية في موجة رفض واحتجاج عاصفة تدرجت في سلم الضراوة مع الوقت، في ظل صراع سياسي متواسع بين الطرفين اللذين استقطبا سائر الداخل الباكستاني، وألقيا بالصامتين والمترددين خارج المشهد المنظور: بين حكومة الجنرال بيرويز مشرف التي مضت في سبيل دعم التحالف الغربي بكل إصرار، وبين الجماعات والأحزاب الإسلامية التي انطلقت تحت راية الجهاد في الاتجاه المضاد مباشرة؛ الأمر الذي أثيرت على جوانبه عدة قضايا أخري ذات اتصال (أهمها: المسألة النووية، المسألة الكشميرية، والرؤية الباكستانية لما بعد طالبان أو سياستها الخارجية الجديدة) على نحو شديد التعقيد والتدخل.

لا شك أن بوادر المعركة الباكستانية هذه تدرجت عبر الجولة الأولى، إلا أنه يمكن اعتبار تصريح مشرف (10/4) بأن أيام طالبان في الحكم باتت معدودة بمثابة الطلقة الأولى التي سعرت المواجهة، وفصمت آخر عرى

الارتباط بين إسلام آباد وطالبان، وافتتحت المرحلة أو الوجهة الجديدة التي أشار مشرف من قبل إلى سعيه لتوجيه باكستان إليها، والتي حثه الكثيرون على توخي الحذر في إدارتها، لأنها باختصار ستكون رحلة القرارات الأصعب.

فخلال الأسبوع الأول ومنذ الوهلة الأولي شرع الجنرال مشرف في الإطاحة بكل خصومه البارزين والمحتملين بدءًا من المقربين المتنفذين وانتهاء برؤوس الحركات المهيجة للشارع الباكستاني فيما يمكن تبتعه على النحو التالي:

- في خطوات تمهيدية حرص الإعلام الرسمي على مواصلة نهج التطمين بأن الشارع الهائج لا يعبر عن غالبية الشعب، وأن مظاهرات بيشاور (10/6) التي شارك فيها 100 ألف، هاتفة ضد التحالف والموقف الحكومي ومعلنة رفضها تصريح "**الأيام المعدودة**" بحمل لافتات "**تعيش طالبان**" وصور ابن لادن، أن هذه الأحداث لا تفت في عضد تصميم النظام على موقفه. وفي المقابل دفع مشرف مسيرات مضادة ترفع صورة محمد على جناح – المعروف بمؤسس باكستان وذي التوجه التوفيقي– مع التأكيد المستمر على نجاحه في استقطاب العديد من الأحزاب الكبيرة المناوئة للتيار الإسلامي الانفعالي من قبيل حزب الشعب بزعامة بناظير بوتو[213].

- تشديد اللهجة إزاء طالبان إلى درجة الجفاء والتهديد؛ إذ ردت الخارجية الباكستانية على الاستياء الطالباني من تصريح الأيام المعدودة والحملة الإعلامية الباكستانية المدعمة للتحالف الغربي – بأن "**طالبان تعلم ما يتوقعه منها المجتمع الدولي، ومن مصلحتها أن تفعله**"[214].

- لكن قبيل اندلاع الغارة الأمريكية بساعات قليلة كشف الرجل عن استعداده لقطع رحلة الأشواك والقرارات المصيرية بكل جسارة، حين أطاح بثلاثة من أكبر رموز المؤسسة العسكرية الذين عرفوا بتعاطفهم مع طالبان أو مع الشارع الإسلامي، وهم: الليفتنانت جنرال محمود أحمد – مدير المخابرات العسكرية **ISI**، والليفتنانت جنرال مظفر عثماني – نائب القائد العام للقوات المسلحة، واللذين أحيلا للتقاعد فيما تم نقل محمد عزيز خان – رئيس أركان القوات البرية إلى منصب تنسيقي لا يتمتع فيه بصلاحيات قيادية، وإحلال آخرين محلهم، ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء الثلاثة كانوا هم الذين عاونوا الجنرال مشرف وأتوا به إلى سدة الحكم من خلال انقلاب أكتوبر 1999[215].

- تلا ذلك ثلاثية أخرى (10/7)؛ إذ بادرت الداخلية الباكستانية بوضع فضل الرحمن محمود زعيم الجناح الأول لجمعية علماء الإسلام، ثم فضل الرحمن خليل زعيم جماعة "**المهاجرين الكشميرية**" (الذي تردد أن أستاذه فضل الرحمن محمود هو الذي دفعه لتشكليها)، ثم وضع سميع الحق زعيم الجناح الآخر بالجمعية رهن الإقامة الجبرية. وفيما جاء اعتقال خليل عقب صدور اللائحة الأمريكية للمنظمات الإرهابية شاملة جماعته، فإن سميع الحق عد بمثابة الأب الروحي للطالبان الذين تخرج معظم كوادرهم في جامعته الحقانية، بالإضافة إلى رئاسته "**مجلس الدفاع عن باكستان وأفغانستان**" الذي ضم نحو ثلاثين جماعة مؤيدة لطالبان [216].

- أعقب ذلك اعتقال الشيخ أعظم (أو عزام) طارق زعيم جماعة جيش الصحابة السنية (10/9) وتحديد إقامته جبرياً لثلاثة أشهر قادمة...[217].

- وإزاء رد الفعل الشعبي المتصاعد لم يستدرك مشرف على موقفه، بل افتتح مسرح عمليات سياسية مائلة إلى العنف داخل باكستان؛ فجَّمد 146حسابًا بنكياً لكبار وزراء طالبان، واحتجزت قواته طائراتٍ تابعة للحركة (بطياريها) فيما جاء كأول عمل منسق مع القوات الأمريكية وذلك خلال الأيام الثلاثة الأولي من بدء الغارة الأمريكية[218].

- ولمواجهة الحشود المحتجة قررت الحكومة تعطيل الدراسة في المؤسسات التعليمية بإقليم بلوشستان، لتفويت الفرصة

على الأحزاب الدينية في حشد وتحريض طلابها، مع التحريك التدريجي للجيش لإقامة المتاريس حول المنشآت الرئيسة بالعاصمة كمبني التليفزيون والبعثات الدبلوماسية – سيما السفارة الأمريكية – والمطارات.. وتوالت تهديدات وزير الداخلية معين حيدر بتدخل الجيش لفض التظاهرات الهائجة إذا ما خرجت عن النطاق[219].

هذه الإجراءات الحكومية لا تنم سوي عن قناعات متجذرة قاصرة عن التنويع أو التحرك إلى مواقف أقل حدة؛ ففي المقابل كان الشارع الباكستاني – فيما بدا – أقدر على إدارة المعركة والمناورة والتحرك على جبهات متعددة، وبطرائق متنوعة: فمع اعتقال الزعماء الدينيين السابقين، وتقييد حرياتهم اندفع الباقون يؤلبون الشارع – ليس ضد أمريكا وطائراتها فقط على النحو الذي كان سائدًا قبيل 10/7- بل بشن الهجمات الخطابية ضد الحكومة نفسها التي صرح قاضي حسين أحمد زعيم الجماعة الإسلامية – والذي رفض وزير الداخلية اعتقاله بزعم أنه رجل معتدل – بأنها "**تجازوت كل الخطوط الحمراء**"[220]، محذرًا إياها من عواقب إجراءاتها الأخيرة، وذلك تزامناً مع تهديدات زعماء " **علماء الإسلام بالتحول نحو الحكومة**"؛ حيث صرح مولانا محمد شرف – مساعد فضل الرحمن– أنها تفعل ذلك "**لإرضاء اليهود والنصارى والهنود...**"[221].

استجاب الشعب إلى حد كبير لهذا التيار غير الرسمي المدوي، إلا أن بادرة خطيرة فاقمت من الموقف مع انقلاب الكثير من الزعماء الدينيين والمفتين المقربين من الحومة ضد توجهها، وعلى رأسهم المفتي البارز نظام الدين شامزاي – الذي كان قد بعثه مشرف إلى طالبان قبل شهر؛ إذ أصدر في (10/8) فتوى ذات فحاوى خطيرة تشتمل على

- الإلزام الشرعي لكافة المسلمين، حكومات وشعوبًا، بمعاونة طالبان بالمال والنفس.
- اعتبار أي مسلم ينتمي لأي دولة أو حكومة أو منظمة غير حكومية، ويقوم بعمل ضد حكومة أفغانستان المسلمة، غير مسلم... في رد على التساؤلات عن حال "**المسلم المقاتل ضمن الجيش الأمريكي**".
- إسقاط شرعية القادة المتعاونين مع التحالف: "**إن هؤلاء القادة لم يعد لديهم الحق في إدارة شئون بلادهم... لتعاونهم مع الولايات المتحدة واليهود ضد أفغانستان**"، ودعا إلىضرورة استخدام كافة السبل لإسقاط هؤلاء القادة سيما من قبل الجيوش [222].

ألهبت هذه الفتاوى والخطب من حمية الشارع الباكستاني الذي اختلطت لديه مشاعر الدين والإثنية والإنسانية، فيما بدا من كلمات آحاد المتظاهرين إلى المراسلين الإعلاميي؛ فعلى الرغم من الإجراءات الأمنية متصاعدة الحدة والتشديد، إلا أن المسيرات والتظاهرات الحاشدة تواصلت من ملتان إلى كاراتشي التي شهدت تظاهر سبعين ألفاً (12/ 10) أوقفوا سير الحياة في العاصمة التجارية لباكستان، وحوَّلوا الدفة إلى بوادر عنف حقيقي عجز عشرون ألفًا من رجال الشرطة عن التصدي له.

وكما قلنا كان الشعب وتنظيماته أكثر قدرة على التجاوب مع المستجدات والأخذ بزمام المبادأة، والأرجحة بين الهجوم على الحكومة، والهجوم على الولايات المتحدة أو على كليهما معًا؛ فعلى ضوء الإعلان زيارة مرتقبة لكولين باول مطلع الأسبوع الثاني من الغارة لتهدئة التوتر المتصاعد بين نيودلهي وإسلام أباد، تحركت الأحزاب للدعوة إلى إضراب عام، وتنظيم مسيرات تبعث برسالة كراهية شعبية إلى الأمريكان، وقررت الأحزاب الدينية تنظيم مسيرة (10/14) إلى قاعدة "**جاكوب أو يعقوب أباد**" الجوية في إقليم السند (جنوب العاصمة بـ700 كم)، والتي أثير أنها تستخدم في الدعم اللوجيستي للعمليات الجوية الأمريكية، وزعمت الأحزاب أنها تُستخدم في الهجوم المباشر؛ الأمر الذي يعني استخوان الحكومة التي

أكدت مراراً على عدم استخدام أراضيها في الحملة الدائرة، ومن ثم لم تجد بدًّا من تشديد الإجراءات الأمنية حول القاعدة [223].

بيد أن الولايات المتحدة أصرت على المزيد من الإحراج لموقف النظام الباكستاني؛ إذ أصدرت الخارجية الأمريكية ذات اليوم (10/13) قائمة ضمت مؤسسات وأشخاصاً ينسبون إلى باكستان، تطالب بتجميد أرصدتهم بدعوى صلات بابن لادن، وعلى رأسها جماعة جيش محمد، ومؤسسة ترست، والشيخ سيد أحمد الدهايانوي أحد القيادات الدينية في كاراتشي والمرتبط بالرشيد ترست[224].

في غضون ذلك ظهر الشيخ سميع الحق ليعلن أنه لم يتسلم إخطار الإقامة الجبرية، وليدلي بتصريحات تعد أساساً أو إطاراً عملياً للبرنامج الذي نفذته الموجة الشعبية طوال هذه الجولة، والذي يمكن إيجازه في النقاط التالية:

- مواصلة المظاهرات إلى غاية محددة أن تتراجع الحكومة عن موقفها الحالي.
- التأكيد على الطابع السلمي للتظاهرات؛ لأن "**دم المسلم على المسلم حرام**"، والعنف يضر ولا يفيد.
- بدء حملة تبرعات لمصلحة طالبان: "**إن أموالاً كثيرة يتبرع بها الباكستانيون وسوف نوصلها**"
- استمرار حملة الرد على الأكاذيب السياسية والعسكرية حول موقف طالبان.
- البدء في تجهيز عشرات بل مئات الألوف للانضمام إلى صفوف الحركة المجاهدة.

وفي هذا السياق دعا الرجل باسم مجلس الدفاع المشار إليه إلى الالتزام بإضراب شعبي عام احتجاجاً على زيارة كولين باول في اليوم التالي (10/15)، الأمر الذي استجاب له الشعب بقوة، فأغلقت المحال التجارية أبوابها وخلت المدارس من تلاميذها، وتداعت جماهير حاشدة نحو مطار (شاه باز) في قاعدة يعقوب أباد لمحاصرته، واشتعلت كويتا بهتاف "**الموت لأمريكا**"![225].

وفيما كان التحرك الشعبي يتصاعد بخطًى منتظمة بين الدعم المعنوي لطالبان من خلال التظاهر العنيف، إلى الدعم المالي والإعلامي، فالدعم القتالي من خلال الجموع التي اصطفت على الحدود في انتظار التصريح والعشرات أو المئات الذين لم ينتظروا. كانت الأسابيع الثلاثة الباقية أسابيع الأشواك حقًا لحكومة برويز مشرف التي بدا فيها الشقاق الداخلي وانعدام الأسس الثابتة للموقف الرسمي إزاء القضايا والمسائل المثارة.

ففي الوقت الذي يحرص فيه مشرف – قبيل لقائه بباول– للتخلص من الملا عمر وكبار قادة طالبان، كمركز للخطورة يسهل بعده الدخول البري وتقويض فعالية جماعة ابن لادن، مشيراً إلى تعاون مخابراته مع عناصر أفغانية(الخيول الأفغانية) لمحاولة تحديد مكان عمر، في هذا التوقيت تعلن الخارجية الباكستانية أن باكستان لم ولن تتعامل مع طالبان كتنظيم إرهابي، وأنها ستبلغ باول بقلقها إزاء الإفرازات والانعكاسات الجانبية للحرب سيما مسألة تزايد أعداد الضحايا المدنيين، وتحديد نهاية للحملة الدائرة[226]، والتي كانت لا تزال في مطلع أسبوعها الثاني مما يعبر عن عمق المأزق الباكستاني!!

وذلك أن مشرف كان قد أعلن مراراً منذ البداية أن العمليات ستكون قصيرة محددة الأهداف، وخالفه الرئيس الأمريكي -في ذات الآن- بإعلانه أن الحرب سيطول أمدها، ثم يتحول الهدف المحدد من ابن لادن إلى طالبان ونظامها على أساس تصريح رامسفيلد لاحقًا.. لقد برز هذا التحرج الرسمي في تهرب المتحدثين من تساؤلات كثيرة للمراسلين حول دور باكستان وقدر مشاركتها.

بيد أن الأزمة الحقيقية التي أنذرت بانفجار الأحداث كانت فيما يتعلق بالتواجد العسكري الأمريكي داخل باكستان. ففي حين نفىكافة المتحدثين الحكوميين ذلك، فاجأ وزير الداخلية الجميع بأن باكستان وضعت مطارين تحت تصرف القوات الأمريكية "**تحسبًا لأي ظروف طارئة**"؛ الأمر الذي نفاه بقوة متحدث الخارجية (رياض

خان) وتردد إزاءه المتحدث باسم الجنرال مشرف (الجنرال راشد قريشي)، إلى أن كشفت كبريات الصحف الباكستانية حقيقة تواجد نحو ألفي جندي أمريكي في ثلاث قواعد عسكرية؛ مما زاد من اشتعال الداخل الباكستاني، وأثار قلق الصين والهند على أساس خلفيات معلومة.

وهكذا، ومع نهاية الأسبوع الثاني تحول التحرك الشعبي من الارتكاز في الغرب في السند وبلوشستان وسرحد إلى إقليم البنجاب في الشرق؛ حيث نظمت جماعة قاضي حسين أحمد مظاهرة ضمت ثلاثين ألفًا، فيما عقد سميع الحق جلسة لمجلس الدفاع لتفعيل سبل مقاومة الحملة الأمريكية... إلا أن التحرك الحقيقي تمثل في زيادة التركيز على عمليات التطوع للقتال في أفغانستان.

وهكذا أسفرت نهاية الأسبوع الثالث عن خلاف متزايد بين القيادة والقاعدة الشعبية حين حسم مشرف موقف حكومته بعيداً عن ترددات السابقة في محورين أساسيين:

- تحديد التوجه العام والأصلي في ضرورة استمرار الحملة حتى تحقق أهدافها.
- ما عدا ذلك فهو على سبيل التقييم كما سماه الجنرال أو إسداء النصح ولفت النظر، من قبيل القول بأن "**أي حرب طويلة تسفر عن ضحايا مدنيين ستقوض التأييد العام للتحالف الدولي ضد الإرهاب، سيما بين الدول الإسلامية**"[227].

وفي المقابل انطلق الاحتجاج الشعبي إلى الطرف الآخر، حين أكد نائب رئيس حزب الجماعة الإسلامية (10/27) أمام آلاف المحتشدين أن الشعب "**سيطيح بمشرف وسيجره في الشوارع؛ لأنه لم يعد يصلح رئيسًا للبلاد ولا قائداً للجيش**"، بل ودعا الجيش وقادة الفرق وضباط القيادة إلى اتخاذ قرار يتفق مع ضمائرهم "**لتخليص الأمة من مشرف، وإنقاذ مستقبل البلاد من التدهور**".. بل إن التطور الأخطر تمثل في توجيه العنف إلى المسيحيين الباكستانيين (البالغة نسبتهم 1% من السكان) حين اقتحم ستة مسلحين كنيسة "**دومينيك**" للروم الكاثوليك في مدينة بهادن بور (250 كم غرب العاصمة)؛ مما أسفر عن مقتل 18 شخصاً وإصابة آخرين[228].

مسائل باكستانية على ضفاف المعركة

في هذا السياق وعلى هامشه، أثيرت قضايا أخرى على رأسها: المسألة الكشميرية؛ إذ توترت العلاقات بين الهند وباكستان عقب تعرض برلمان سرينجار في الشطر الخاضع للهند من جامو وكشمر لهجوم أدى إلى مصرع ما بين 30-40 شخصاً وإصابة سبعين؛ مما أتاح الفرصة للهند للضغط على حكومة مشرف لتواصل وتضاعف سعيها المضاد للجماعات الجهادية في الإقليم؛ الأمر الذي بدا في اللهجة العنيفة لوزير الخارجية الهندي جاسوانت سينيج (10/8)، والذي صرح بأن الهند لن تقدم أي تنازلات عن مكافحة حقيقية لمن وصفهم بالإرهابيين.. وهو الأمر الذي دفع مشرف إلى الاتصال هاتفياً برئيس الوزراء الهندي فاجباي ليتعهد له بمواجهة هذه الجماعات التي وصفها فاجباي بالانفصالية، مشيراً إلى ضرورة الحل الجذري للقضية وفق إطار أكرا الذي توصلت إليه قمتهما الأخيرة[229].

وبالفعل ساهمت ادعاءات الهند المتواصلة المستغِلّة للورطة الداخلية لنظام مشرف في تصعيد التوتر، الذي بلغ حده الأقصى مع قصف الهند 11 موقعاً باكستانياً على الحدود بدعوى إيقاف تسلل الإرهابيين؛ الأمر الذي لم تقف عنده الحكومة الباكستانية بالصلابة المنتظرة، مما أدى إلى إقحام عبارة "**العمالة للهنود**" ضمن الخطاب الشعبي المعارض. لقد أضفي ذلك مزيداً من التعقيد على المشهد الباكستاني.

ومن ناحية أخرى طُرحت في الخلفية المسألة النووية على صعيدين مختلفين؛ ففي مطلع الجولة الراهنة أثيرت بقوة احتمالات استيلاء الإسلاميين على القدرة النووية الباكستانية إذا تمكنوا من الإطاحة بالجنرال،

وتحولت القوة النووية إلى مظنة الخطر على أصحابها!!! سيما في ظل توارد التهديد بتخطيط هندي إسرائيلي لاغتنام الفرصة في هذا السبيل. إلا أن مطلع الأسبوع الرابع طرح القضية طرحًا أكثر خطورة على صعيدين آخرين امتداداً لما سبق؛ إذ تناقلت الصحف الباكستانية عن بعض الصحف الأمريكية (نيويوركر) أنباء عن مخططات أمريكية–إسرائيلية لضرب المنشآت النووية الباكستانية على سبيل الخطأ، وعلى طريقة (اضرب واعتذر...) أو بتجهيز كوماندوز إسرائيلي–أمريكي للاستيلاء على هذه المنشآت بحجة الخوف من تداعيات الهياج الشعبي الإسلامي؛ الأمر الذي دفع الخطاب الباكستاني الرسمي إلى نوع من الصرامة؛ حيث صرح معين الدين حيدر: "**نحن واضحون مع الأعداء والأصدقاء.. فأي طائرة تقترب من منشآتنا النووية نعتبرها هدفاً معادياً..**"[230].

وعلى الصعيد الآخر أثيرت المسألة فيما يتعلق بطالبان، التي تواترت تقاريرها عن استخدام الأمريكان أسلحة كيماوية ضدها.. الأمر الذي كان غير مؤكد إلى أن أعلن رامسفيد (10/29) عن عدم استبعاد استخدام أسلحة نووية ضد الحركة؛ الأمر الذي أزعج باكستان بشكل واضح؛ حيث عارضت الخارجية الباكستانية هذا التفكير.

بيد أن السؤال الذي ظل مطروحاً بقوة على باكستان هو المتعلق برؤيتها الرسمية لما بعد طالبان! فعلى الرغم من إسدال الخطاب الرسمي ستائر الإهمال على هذا الأمر –في ظل التراخي الأمريكي عن تفعيل التعاون مع تحالف الشمال الذي لا ترغب باكستان في التعاون معه– إلا أن الجزء الثاني من هذه الجولة شهد التحول الأمريكي نحو هذا الفريق، والسعي الروسي والهندي والإيراني والتركي لإشراكه في ترتيبات ما بعد طالبان. لقد دفع ذلك مشرف ورجاله إلى الإفصاح الوجل عن موقفهم، والذي قام بالأساس على التعميم في التأييد الإثني للباشتون دون تحديد، وتفضيل الانتقاء لعناصر من طالبان التي صارت أيامها في الحكم معدودة، في لهجة العرض دون الفرض على نحو ما سارت عليه كافة المطالب الباكستانية منذ البداية.

وعليه؛ فعقب لقاءات مشرف ومسئولي حكومته مع الأخضر الإبراهيمي – موفد الأمين العام للأمم المتحدة – اتضحت ملامح البديل الأفغاني من وجهة النظر الباكستانية في[231]: أن يمثل أي بديل جميع الجماعات والعرقيات داخل أفغانستان (دون الإشارة إلى تمثيل نسبي)، أن يضمن هذا البديل حفظ وحدة الأراضي الأفغانية وألا يجعل هذا البديل من أفغانستان موئلاً للمتشددين، وأن يسعى إلى إقامة علاقات ودية مع كافة جيرانه. وعلى الرغم من التمني الباكستاني أن يمثل البشتون حسب نسبتهم وألا يقود تحالف الشمال بزعامة رباني البديلَ المنتظر، إلا أن القيادة الباكستانية لم تؤكد ذلك أو تصر عليه أمام قيادة الغرب والأمم المتحدة لعملية التنسيق بين جناحي أو قفازي المعارضة. إلا أن الواضح أن الشرط الذي كان أكثر بروزًا والذي تجاوب الجميع مع مضمونه هو شرط "**عدم أصولية البديل، وأن يكون صديقاً للجميع**"!

وهكذا تنامت مع كل يوم أمارات الحيرة على الحكومة الباكستانية في التعاطي مع الإفرازات اللانهائية للغارة، سيما إزاء تجمعات المسلحين الباكستانيين في الشمال؛ حيث دعتهم الحكومة للذهاب بعيداً عنها، إلى أن فتحت طالبان لهم الأبواب مع اشتداد الضغط عليها إبان الأسبوع الخامس، في مشهد عبر عن انتفاضة أمة غلبت حميتها العقيدية على حسابات "**القوة المكافئة**" التي تحلق رموز انعدامها فوق رؤوسهم وتتناثر من حولهم!

حاول الإعلام الغربي في النهاية دعم موقف مشرف والإشادة بحزمه وشجاعته، وراحت السفيرة الأمريكية المخضرمة بإسلام أباد (ويندي تشامبرلين) تشد من أزره: "**إن الرجل قوي بما فيه الكفاية لمواجهة معارضيه.. إنه يتعامل مع**

الوضع بشكل جيد، إنه لم يتخذ أي إجراء استثنائي، مثل فرض الحكم العسكري، ولا يزال يشدد على أن الانتخابات ستُجرى في موعدها المحدد، ويسمح للشعب بالتعبير عن آرائه بالطرق الشرعية". إلا أن مشرف حرص على عدم التصديق على تصريح السفيرة؛ حيث سرعان ما حظرت السلطات المحلية (11/3) جميع المظاهرات والاجتماعات والمواكب العامة لمدة شهرين، ثم تلا ذلك وضع الرجل الباقي حراً – قاضي حسين أحمد – رهن الإقامة الجبرية (11/4)، مما دفع الأخير لتجديد دعوة الجيش لإقصاء مشرف[232].

وعليه فقد جاءت هذه الجولة بشرخ عميق داخل باكستان، شرخ تواسع على مستوي القناعات التي أصقلتها نار الحرب، وأسفرت عن مستقبل مفتوح الاحتمالات أمام باكستان ونظام الجنرال، الذي بدا للكثيرين أنه خرج منتصراً مع الاندحار الطالباني.. إلا أنه يصعب تأكيد ذلك على المدى البعيد.

2-آسيا الوسطى: قواعد الانطلاق ومحطات الاتفاق

هل من جديد على هذه الساحة عقب الاندلاع الفعلي للحرب؟ لقد كشف التحليل السابق عن حالة من الاستخفاف الرسمي بالدور أو رد الفعل الشعبي تعززها حالة من الاستسلام الشعبي للأمر الواقع، وانعدام المعارضة الحقيقية الداخلية للتوجهات الرسمية، بما أفضى إلى المطاوعة الصريحة للمطالب الأمريكية، فهل دخل أي تغيير على ذلك عقب السابع من أكتوبر؟

الحقيقة أن الأوضاع الداخلية في جمهوريات آسيا الوسطى كانت على خلاف الحال في باكستان، أو في جنوب شرق آسيا الهائجة؛ فعلى الرغم من توعدات الإسلاميين المعارضين من الخارج، وتحركاتهم على الحدود [مثل تصريحات طاهر يولداش (10/9) زعيم حركة أوزباكستان الإسلامية أن جماعته تقاتل كتفًا إلى كتف بجانب ابن لادن ضد أمريكا وحلفائها في أفغانستان؛ حيث يقيم بين 2000-2500 من رجاله، واعتباره موقف بلاده في تقديم تسهيلات عسكرية للتحالف الأمريكي "**خيانة كبيرة**"، وتوعده بالجهاد ضدها وضد طاجيكستان][233]، إلا أن الداخل في هذه الدول بدا خلوًا من مثل أو مما هو أقل من هذه الأصوات المناهضة، سيما في ظل التضارب في المواقف الذي عبَّر عن أحد نماذجه قادة حزب "**النهضة**" الإسلامي في طاجيكستان، وحرص تياره الرافض للدور الطاجيكي على الطمأنة بأن بلاده خالية من أنصار ابن لادن، على نحو ما سبقت الإشارة إليه، فيما بدا أنه اتفاق بين الجميع أن **لا صوت يعلو فوق صوت الأمركة**.

لقد أفسح هذا التدجُّن الشعبي المجال أمام حكومات آسيا الوسطى للمضي بسبيل التنفيذ الفعلي للتعهدات السابقة بمناصرة التحالف الغربي؛ فأعلنت دوشانبة (10/9) أنه تم فعلاً وضع مجالها الجوي وقواعدها البرية "**رهن أوامر**" التحالف الدولي على حد وصف شبكة بي بي سي البريطانية التي أضافت: "**إن الأراضي الطاجيكية توفر قاعدة انطلاق للقوات الخاصة الأمريكية .. للدخول إلى أفغانستان من القطاع الشمالي**"، فيما أشارت التطورات إلى أن أوزباكستان أضحت توفر هي الأخرى قاعدة انطلاق للطائرات والمروحيات الأمريكية والبريطانية، الشيء الذي تزامن مع إعلان البنتاجون عن تحريك قوات إلى المنطقة تبدأ بنقل 1000 عنصر من الفرقة العاشرة لينضموا إلى ألف آخرين سبق تمركزهم في أوزباكستان على وجه التحديد، والتي خصصت مطار "**خان أباد**" (500 كم من طشقند و200 كم من الحدود الأفغانية) ليصبح "**أول قاعدة أمريكية في أرض الاتحاد السوفيتي**"[234].

بيد أن هذا المضي لم يحل دون غلبة الهواجس الأمنية على حكومات هذه الدول، سيما عبر الأسبوع الأول التالي للغارة؛ فعقب مطالبة الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف بألا "**تبقى أوزباكستان منفردة أمام قوى الإرهاب البشعة**"، جرى توقيع اتفاقية مع الولايات المتحدة عدّها مراقبون"**معاهدة دفاعية**"، فيما اعتبرها آخرون صفقة للقضاء

على قواعد المعارضة الأوزبكية في مقابل الموقف الأوزبكي المطاوع للنهاية.

أثار ذلك حفيظة طالبان والمعارضة الأوزبكية، فهددت الأولى بغزو أوزباكستان وحركت منصات "**كود**" إلى الحدود، ثم لم تلبث أن سحبتها مع تحريك القوات الأمريكية منصات "**باتريوت**" حول مطار "**توزل**" الأوزبكي، في حين ذكرت مصادر أن عناصر من المعارضة الإسلامية تحصنت في مواقع من جبال تيرميز ومنطقة كشيرناك، وأن القائد الأوزبكي "**جمعة النمنجاني**"- المقرب من ابن لادن – حشد نحو 3000 مقاتل مزودين بأسلحة حديثة وزوارق سريعة لعبور الأنهار الحدودية فيما تردد أنه احتمال القيام بمناورة لتخفيف الضغط على طالبان والقاعدة[235].

بل إن أنباء ترددت عن احتمالات تحرك مجموعة يقودها أيمن الظواهري – مساعد ابن لادن– نحو تركمانستان، التي ارتبطت فيما سبق بعلاقات مع طالبان؛ الأمر الذي بدا محاولة لإثارة مخاوف الدولة التي ظهرت كأقل الجيران ميلاً إلى المؤازرة العسكرية للغارة.

على كلٍ، فقد تحول محور طشقند–دوشانبة منذ البداية للقيام بعدة أدوار معًا:

- العمل كقاعدة انطلاق عسكرية أولى برًا وجوًا.
- العمل كمحطة التقاء واتفاق للداعمين للحملة من السياسيين والعسكريين.
- القيام بدور السنيد الأساسي لقوات التحالف الشمالي الأفغاني المعارض لطالبان.

ذلك في حين استمرت قيرغيزيا وكازاخستان قاعدتين خلفيتين تدعمان هذه الجبهة المتقدمة، وتنقلان إليها الوفود والمعلومات سيما المتعلقة بتحركات الإسلاميين في وادي فرغانة؛ فعلى سبيل المثال نقلت مصادر عدة خلال الأسبوع الأول أنباء وصول ضباط إسرائيليين مختصين في شئون الأمن والاستخبارات ومكافحة الإرهاب إلى قيرغيزيا، في انتظار انتقالهم إلى أوزباكستان التي صورت على أنها تواجه تهديدات وشيكة[236].

الطريف في الأمر أن قيادات الدولتين الأكثر خوضاً في إعانة الأمريكان كانت الأكثر حرصًا على نفي ذلك الموقف الموالي، سيما الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف الذي ظل يردد أن أراضيه "**لا تستخدم في عمليات قتالية، بل لمرور مساعدات إنسانية**"[237]، في الوقت الذي يؤكد فيه المسئولون الأمريكيون في مطلع الأسبوع الثاني (10/13) التوصل مع الأوزبكيين لاتفاق تعاون يتيح للولايات المتحدة –علاوة على المجال والقواعد الجوية- استخدام بنية تحتية عسكرية ومدنية ضرورية، فيما ترددت أنباء عن مساعٍ أمريكية لاستخدام مطارات طاجيكستان التي راحت تعزز حدودها مع أفغانستان إلى جانب قوات الحدود الروسية[238].

ومن ثم، فقد جاء الأسبوعان الأولان بمثابة المرحلة التمهيدية لاستكمال الدور الذي لعبته الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى عبر هذه الجولة الثانية، إلا أن الأسبوعين التاليين شهدا الزخم الأكبر في التحركات التي اتخذت من عواصم هذه الدول محطات أساسية للالتقاء وتنسيق المواقف؛ فعبر طشقند تكررت لقاءات الفصيل الأوزبكي في المعارضة الأفغانية بزعامة عبد الرشيد دوستم مع الأتراك وممثلي الجهات الغربية، فيما تردد فصيل الطاجيك (رباني ووزراؤه) على دوشانبة سرًا وجهرًا لاستجلاب الثقة والعون،بما انصب بالأساس على مشاورات مسألة ما بعد طالبان، والتي كانت الموضوع الرئيس للقاء رباني مع بوتين ورحمانوف (10/24) في طاجيكستان.

وبناء عليه كان طبيعياً أن تحرص الأمم المتحدة على الوقوف بهذه العواصم عقب إيعاز واشنطن لها بالاضطلاع بهذا الملف:"**المستقبل الأفغاني**"؛ فجرى في مطلع الأسبوع الرابع استقبال الأخضر الإبراهيمي مبعوث المنظمة في مهمته الاستكشافية للتعرف على

وجهات نظر دول الجوار الأفغاني في صياغة المستقبل السياسي لأفغانستان و"**اقتراح البدائل**" بهدف تسوية التربة التي ستعرض الأمم المتحدة على أساسها فكرتها في هذا الشأن. وعامة فإلى هذا الحين اتضح أن ثمة اتفاقًا عامًا على ضرورة أن تقوم الحكومة المنتظرة على قاعدة عريضة تمثل فيها كافة العرقيات..إلا أن مؤشرًا معينًا على تحقيق ذلك لم يكن قد ظهر على أرض الواقع[239].

في هذه الآونة من نهاية أكتوبر تضافرت الأدوار التي قامت بها حكومات آسيا الوسطى في مظاهرة الغارة الأمريكية مباشرة عبر أراضيها وأجوائها وبناها التحتية، أو بتعزيز موقف المحاربين بالوكالة سيما عبر القاعدة الأوزبكية الحدودية والأراضي الطاجيكية التي مكنت الأمريكان من زيادة الضغط على مزار الشريف والمدن الأفغانية الشمالية وتمهيد الطريق أمام التحرك البري الأمريكي "**الآمن**" في بدخشان وتخار[240].

وفي هذا السياق جاءت زيارة القائد العام للعملية الأمريكية –تومي فرانكس– الثرية باللقاءات وصدرت البيانات الغربية المتوالية من محور طشقند–دوشانبة لتعبر عن الأهمية العالية التي أضحت الدولتان تحوزهما في التحالف الدولي، إلى درجة أن التردد الأمريكي في الكشف عن التعاون مع تحالف الشمال الأفغاني تبدد بإعلان رسمي عن تدفق المعونات صادر عن مؤتمر صحفي للجنرال فرانكس في طشقند (10/30) ثم في دوشانبة التي بدا كأنه أقام فيها منطلقًا لبياناته ولقاءاته العسكرية.

وعليه، التقى فرانكس في طشقند مع محمد قاسم فهيم القائد العسكري لتحالف الشمال، ليؤكد عقب اللقاء أن الاتصالات الأمريكية تمتد لتشمل الجميع بما فيها مجموعات في جنوب أفغانستان (في إشارة إلى مجموعة قرضاي ساعتها)، وذلك في ذروة الشعور الغربي بالإحباط والتململ والرغبة العارمة في إحراز أي تقدم يذكر. ثم التقى فرانكس بالرئيس الروسي بوتين لذات الأهداف تحت تشديد أمني عززه كريموف بحرسه الشخصي، وذلك عقب محادثات مع كريموف نفسه صرح الجنرال الأمريكي بعدها بأن قواته "**صارت تملك ..كل ما يلزمها لمواصلة العمليات الحربية..إن ما تقدمه [أوزباكستان] اليوم يناسب الاحتياجات الخاصة لقوات التحالف**"[241].

ومع مطلع نوفمبر تكاثرت الزيارات رفيعة المستوى إلى المنطقة،سيما دوشانبة التي أمست تشكل القاعدة الخلفية لقوات التحالف الشمالي: فعقب زيارة وزير الخارجية الألماني يوشكا فيشر (10/20)، جاءت زيارة نظيره البلجيكي لويس ميشال(11/1) والذي تتولى بلاده الرئاسة الدورية للاتحاد الأوروبي ساعتها، ثم النمساوي بينيتا فيربرو فالديز (11/3)، ثم رامسفيلد ذات اليوم، ثم زيارة الرئيس التركي أحمد نجدت سيزار (11/7).

غير أن هذه الحقائق العارية لم تحل دون استمرار نغمة الاستدراك الخطابي لدى قيادات أوزباكستان وطاجيكستان، فلا يزال كريموف يؤكد أن "**أراضي أوزبكستان لا يمكن أن تستخدم إلا في إطار الأهداف الإنسانية والعمليات الخاصة بالبحث والإنقاذ، ولا أكثر من ذلك!!**"[242]، فيما زعم جعفر سعيدوف المتحدث باسم رحمانوف في دوشانبة أن لقاء الأخير مع تومي فرانكس تناول "**ضرورة التركيز على السبل التي تكفل عدم المساس بالمدنيين في أفغانستان**"[243]، في الوقت الذي كانت بختيار تعلن فيه أن عدد القتلى من المدنيين الأفغان تجاوز الألف والخمسمائة.

ذلك في حين لم تنقطع الملاحقات الأمنية للناشطين الإسلاميين؛ فاعتقلت طاجيكستان منصور يونسوف قائد إحدى فصائل حزب التحرير الإسلامي الأوزبكي أثناء عبوره الحدود الأوزبكية حاملاً منشورات تدعو للإطاحة بحكومتي طاجيكستان وأوزباكستان فيما أعلنته دوشانبة. وجدير بالذكر أن

هذا الحزب يعد من أكثر الأحزاب نشاطًا في آسيا الوسطى، ويضم عدة آلاف في طاجيكستان وحدها، وغالباً ما يضبط العديد من أعضائه على الحدود الأوزبكية[244].

وبالإجمال، فقد وجدت القناعات الرسمية الطريق واسعة أمامها لتعبر عن نفسها بكل وضوح في الرغبة العميقة للانطباق والالتحاق بالعالم الغربي، الذي بدا أن التحالف الدولي الراهن بزعامة الولايات المتحدة فرصة سانحة للولوج إليه، الشيء الذي لم يلق معوقًا حقيقيًا سواء من الداخل الإسلامي أو القومي، أو من الإسلاميين في الخارج القريب في ظل الخناق والترصد الدولي والإقليمي المشدد عليهم ضمن الحملة الأمريكية، أوحتى المشاكلة من قبل الدول الكبرى في المنطقة التي انتهى بها الأمر إلى دفع الخط الذي انتهجته الجمهوريات المستقلة(!!) للأمام.

آسيا الكبرى: لا وقت للخلافات، إنها معركة الجميع

خلال الجولة الأولى من إفرازات الحادي عشر من سبتمبر تجمهرت التحليلات السياسية الرائجة على التنبؤ بالعديد من المعوقات التي ستواجه السياسة الأمريكية حال شن أي عمل عسكري على أفغانستان، سيما من قبل آسيا الكبرى (روسيا، والصين، والهند)، فيما يكشف عن اعوجاج عميق في آليات التفسير والاستشراف التي تغلب المتغيرات على الثوابت وتتداول ذات المتغيرات بإطلاق، دون اعتبار لاختلاف السياقات والمناخات المسيطرة على الأحداث الجزئية، على غرار الغارة الأمريكية التي اتفقت سياسات الدول الثلاث في التعاطي معها بتنحية الخلافات الثنائية أو القلاقل الخاصة جانبًا، والسعي إلي اغتنام الفرصة بتوسيع دائرتي "**مفهوم الإرهاب**" و"**الحرب ضده**"، وفتح صفحة جديدة في العلاقات مع الولايات المتحدة والغرب... وذلك على النحو التالي:

أ-روسيا: مواصلة التخلص من الحرج والهواجس

قبيل اندلاع الغارة الأمريكية كانت روسيا بسبيلها للتحول إلى شريك، وداعية للتحالف الدولي مع القليل من التحفظ الخطابي، إلا أنه منذ اندلاعها فإن السياسة الروسية لم تكتفِ بمجرد الإعراب عن التأييد التام للغارة؛ حيث سعى الخطاب الروسي إلى توسيع مفهوم "**الحرب على الإرهاب**" جغرافياً ونوعياً وزمنياً بالتشديد على أن الإرهاب ينبغي أن يُحارب في أفغانستان والشيشان والبلقان وفي الشرق الأوسط؛ الأمر الذي بدا متأثرًا بوضوح بالدعاية اليهودية المسيطرة على الإعلام الروسي، والشيء الذي أثار استفهامات بعض الدبلوماسيين العرب في موسكو حول المقصود بـ"**الإرهاب في الشرق الأوسط**" دون ردٍّ يُذكر[245]!

لم تكن هذه محاولة لسد الفراغ الخطابي أو التنويع فيه من قبل إدارة الرئيس بوتين؛ إذ تعاقبت التعبيرات الصريحة عن هذه الرغبة خلال الأسبوع الأول؛ فعقب اجتماعه مع نظيره البريطاني جيفري هون يعلن وزير الدفاع سيرجي إيفانوف (10/9) موافقة بلاده على توسيع نطاق العمليات العسكرية: "**إن الإرهاب ينبغي أن يُحارب في كل مكان...إن الحديث ليس عن أفغانستان وحدها**"، وذلك مع استدراك هو من باب تحصيل الحاصل وذر الرماد في العيون بنفي "**احتمالات مشاركة جنود روس في القتال داخل أفغانستان...هذا أمر مستحيل**"[246]، في الوقت الذي كانت فيه الخبرة الروسية عن الحرب السوفيتية ودروسها والمعلومات الاستخبارية -وهي المطلب الأمريكي الأساس- تقدم بكل سخاء.

بيد أن التلميح الأنجلو-أمريكي عن اتجاه هذا التوسيع بعد أفغانستان نحو العراق الذي تربطه بروسيا علاقات خاصة أوقع الأخيرة في الحرج الذي تبدَّى في تعليق مستشار بوتين، ووزير الدفاع الأسبق إيجور سيرجييف بأن "**الضربات الصاروخية والجوية يجب أن تكون**

مبررة ولها عناوين محددة"، مع إضافة التأكيد على أن يضم أي ائتلاف لمحاربة الإرهاب الدول العربية، فيما بدا الموقف الروسي فيه يتوارى في الرفض العربي الواضح.

ومن ناحية أخرى، تحركت الدبلوماسية الروسية مبكرًا نحو ربائبها المتفلتة في آسيا الوسطى للاندساس بينها باسم تجديد التوحيد للموقف، الذي عبر عنه سكرتير الأمن القومي فلاديمير روشايلو عقب التقائه بنظرائه في هذه الدول (10/9) بالاستعداد "**لتعميق أشكال التعاون**" مع التحالف الدولي؛ الأمر الذي لم يمضِ دون تحفظين شكليين أيضًا: أن يتم ذلك "**في إطار قانوني موثق...وضمن فترة زمنية محددة**"[247]، بما أكد أن هذا الخطاب العاجز لا يمكنه أن يتخلى بسهولة عن وساوسه في انعطافته التاريخية التي يمر بها؛ فيحرص على التمويه على تحوله بعبارات استهلاكية، سواء أمام الدوائر المحلية أو الإقليمية فيما لا تجد له أثرًا في مخاطبة الغرب أو الخطاب الروسي في الغرب.

وعلى العكس من ذلك كانت الولايات المتحدة أكثر صراحة مع الأمانيِّ الروسية، ربما أكثر مما فعلت الأخيرة مع الرأي العام داخلها؛ ففي غمار هذا أعلن الرئيس الأمريكي (10/13) أن الولايات المتحدة "**ملتزمة أكثر من ذي قبل بضرورة توسيع حلف شمال الأطلنطي باتجاه شرق أوروبا**" مع تأكيد استمرار التعاون مع روسيا في مجالات عديدة كلها تصب بالأساس في الصالح الأمريكي قبل أي شيء آخر. لقد اتضح ذلك جلياً من خلال قمة المنتدى الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادي (إيبك) في شنغهاي، والتي التقى بوتين ببوش على هامشها فيما نتعرض له فيما بعد.

وإذا كان الأسبوع الثاني هو أسبوع تجدد القلاقل الخاصة بروسيا في الداخل وفي الشيشيان وفي جورجيا وداغستان، والتي حرصت روسيا –مثل الهند والصين– على تبريدها لصالح الحرب الدائرة، وكان الأسبوع الثالث هو أسبوع إيبك، ثم الدور الروسي في دفع وصياغة ترتيبات ما بعد طالبان؛ حيث تزعمت موسكو جبهة الرفض لأي مشاركة من عناصر الحركة التي لا تضم "**معتدلين**" بأي حال وفق النظرة الروسية على خلاف الجميع إلى هذا الحين[248]؛ فإنه مع مطلع الأسبوع الرابع تحددت ملامح أسس التعاون الروسي لخدمة الحملة الأمريكية في النواحي التالية[249]:

- تزويد الولايات المتحدة بكافة المعلومات التي تحوزها روسيا عن "**العدو**".
- توفير الممرات الجوية وتيسيرها أمام القوات الأمريكية.
- فتح المطارات في الدول الحليفة والمجاورة لخدمة الطيران الأمريكي.
- تقديم الدعم السياسي الكامل للمجهود الحربي، سيما في ظل شعور الإحباط المتنامي.
- الحد من العمليات العسكرية الروسية على الأجناب لتمكين الأمريكان من العمل بفعالية.
- تقديم أحدث الأسلحة الروسية لوحدات التحالف الشمالي بعد توجه واشنطن نحوهم.
- اتخاذ قرارات مصيرية بتصفية قواعد روسيا الحربية والاستخبارية في فيتنام وكوبا...
- اتخاذ إجراءات لعرقلة نشاط ما أسماه بوتين بمجموعات الجريمة، وتعقب أموالهم، ومكافحة غسيل الأموال، ودعوة الدول للتعاون بهذا الصدد في افتتاح الدورة العادية للمنتدى الاقتصادي العالمي (10/31) بموسكو.

في هذه الأثناء ألقت موسكو بكل ثقلها في عملية صياغة المستقبل الأفغاني؛ حيث أعقبت تأكيدها رفض المشاركة الطالبانية على لسان وزير الخارجية إيجور إيفانوف (10/30) بالدعوة إلى تشكيل قيادة أفغانية جديدة على أساس "**تراضٍ دوليّ**"، مشترطًا أن تتعهد هذه القيادة ببناء "**اقتصاد سلميٍّ**" ومحاربة بؤر الإرهاب داخل أفغانستان، فيما عُدَّ دعوة لسابقة تاريخية قانونية: أن تؤسَّس حكومةٌ عبر اتفاقات دولية[250].

وعلى الجانب الآخر أشار المراقبون إلى أن "**الحرب الأفغانية**" –كما يسميها الإعلام الروسي– قد عمقت من

التناقض في المجتمع الروسي الذي يعاني أصلاً من تخلخل متزايد منذ عقدٍ من الزمان في ظل هيمنة رأسمالية علمانية شائهة على مجتمع آيبٍ إلى الدين، تسوده أغلبية أرثوذكسية تليها أقلية إسلامية كبيرة (20 مليونًا)، ثم اليهود المتنفذين والبوذيين..

فعلى مستوى الدوما فقد انقسم المجلس على نفسه منذ البداية بين أغلبية ترفض اتهام العرب والإسلام تخصيصًا، ويسار يحذر من اتساع نطاق الحرب بعد أفغانستان، سيما في الموقف البارز للقومي المتشدد فلاديمير جيرينوفسكي، وبين النواب اليهود الذين كانوا الأكثر تحريضًا على دور روسي داعم للحرب ضد "**الإرهاب الإسلامي المتطرف**" في كل مكان[251]، الشيء الذي بدا الأقرب للتوجه الرسمي على نحو ما أشير إليه.

هذا التناقض امتد إلى الأقاليم الروسية التي حركتها الغارة المدوية، خاصة جمهوريتي تتارستان وبشكيرستان اللتين تسكنهما أغلبية مسلمة؛ فعلى الرغم من تأييد رئيسي الجمهوريتين لموقف بوتين خلال الجولة الأولى، فإنهما تحولا للجانب الآخر عقب اندلاع الغارة، فيتساءل شايميف الرئيس التتاري: "**لماذا التركيز على الإرهاب الإسلامي؟ أو لا يوجد إرهاب آخر؟**"، ويجيبه رحيموف الرئيس البشكيري بأن المجتمع [الدولي] غير عادل في وقوف أكثريته ضد ما يسمى بالإرهاب الإسلامي "**كما لو أن إسرائيل خالية من الإرهاب**"![252]

لقد دفع ذلك بعض الصحف الروسية إلى إطلاق اسم "**الجهاد الفيدرالي**" على هذه الجمهوريات الروسية التي "**تجاهد**" على طريقتها العولمة الأمريكية، الأمر الذي يمكن تعميمه على فحاوي تصريحات سائر رؤساء جمهوريات شمال القوقاز في أنجوشيا والشيشان وكباردينا وبلقاريا وداغستان وكراتشايفا وشركسيا وأوديجيا، بل وفي أوسيتيا الشمالية ذات الأغلبية المسيحية[253]. بما يدلل بطريق المخالفة على عمق الشعور بوطأة النفوذ اليهودي في المجتمع والأقاليم الروسية.

وبالمثل فإن علماء المسلمين الروس الذين كانوا ضمن المشنِّعين على طالبان والأصوليين، انبروا رافضين لهذه الحرب، ولأي ضرب يوجه إلى دولة مسلمة أو شعب مسلم، سواء في أفغانستان، أو ما يتردد عما بعدها: "**إذا ما أقدمت الولايات المتحدة على حماقة من هذا النوع فإنها ستحكم على نفسها بأنها دولة إرهابية**"- هكذا تحدث طلعت تاج الدينوف المفتي الأكبر لمسلمي روسيا الفيدرالية[254].

وهكذا فقد أفرز هذا التناقض انقسامًا وحيرة في المجتمع الروسي، بما أفصح عن نفسه في نتائج استطلاعات الرأي التي أظهرت أن 42% ضد قصف أفغانستان، في حين أن 38%يؤيدونه، ولا يعرف الباقون (20%) كيف يحددون آراءهم[255]؛ الأمر الذي عبَّد الطريق أمام الرسميين لتغليب قناعاتهم على غرار كافة الجوار الأفغاني.

ب- الصين: للفرصة معانٍ أخرى

بناء على رواية متحدث البيت الأبيض آري فيشر (10/9) كانت الصين من أوائل الدول التي أرسلت تأييدها للولايات المتحدة في غارتها الراهنة عبر اتصال الرئيس الصيني جيانج زيمين ببوش لتجديد الدعم وبحث وسائل التعاون الممكنة[256]، الأمر الذي تزامن مع إغلاق الصين كانتون تكسكورغان الحدودي مع أفغانستان وباكستان وطاجيكستان أمام حركة المسافرين والصحافيين الأجانب، وهو القطاع الواقع ضمن منطقة الحكم الذاتي لتركستان الشرقية، والذي يمر عبره طريق كراكورم أو طريق الصداقة بين الصين وباكستان[257]، والتي كانت بدورها هي وروسيا وسائر دول الجوار اللصيق تغلق حدودها مع أفغانستان لإحكام الخناق حول طالبان والقاعدة..

واتصالاً بهذا وفي إشارة مبكرة إلى ثمن التأييد الذي تبذله الصين، أعلنت الخارجية الصينية أن من أسمتهم بعناصر انفصالية في غرب البلاد يشكلون جزءًا لا يتجزأ من الحملة الدولية لمكافحة الإرهاب، وأنه يجب ألا تكون هناك معايير مزدوجة: "**تُنتقد الصين عندما تواجه بقوة**

المتمردين، بينما تُؤيد الحملة الأمريكية على طالبان وابن لادن"[258].

في هذه الآونة شهد شمال الصين بل وجنوبها حركات احتجاج ضد الحرب، ووُزعت الملصقات واللافتات على المساجد في مدينة تيانجين (شمالاً)، بينما رفعت لافتات: "**مسلمو العالم متضامنون في مقاومة الاستبداد الأمريكي البريطاني..ليسقط عدوان الجيوش الصليبية المسلحة**" في هونج كونج، وتحركت مسيرات أخرى في غانسو وهوي وننغيسيا وفي شانكسي ذات الأغلبية المسلمة[259].

وعلى الرغم من أن العديد من التحليلات راهنت على التحفظ الصيني المحتمل على تداعيات الحرب وامتداداتها الزمنية والجغرافية، فإن الذي أوضحته الجولة السابقة وأكدته هذه الجولة هو أن هذه الدول المضخَّمة إعلاميًا ومن نواح ماضوية أو استشرافية أو نواحٍ متقطعة: ديمغرافية أو اقتصادية أو استراتيجية، لا تمتلك الإرادة السياسية الواضحة، وليست لديها أدنى استعداد لاغتنام الفرصة في الضغط على الغريم الأمريكي بأي اتجاهٍ، وأن اغتنام الفرصة عندها إنما يقتصر على الانفراد بالتكوينات الإسلامية المناهضة لها، بل وعلى السعي لمزيد من التقارب مع الولايات المتحدة نفسها.

الطريف في هذا الصدد أن الولايات المتحدة هي التي ازدادت استئسادًا على هذه الدول التي أيدتها بغير ما شرط أو تردد حقيقي؛ فخلال الأسبوع الأول للغارة أعلنت الصين والولايات المتحدة فشلهما في تسوية نزاع "**مبيعات مزعومة لتكنولوجيا الصواريخ الصينية إلى باكستان!**"، بما يعني بقاء العقوبات التي وقعتها واشنطن على الصين على خلفية هذا الأمر قبيل الأحداث الأخيرة[260]. بل إن الصين بدت غير راغبة في إفساد احتفالها بالانضمام إلى منظمة التجارة العالمية نوفمبر 2001؛ مما اعتبره بوش وفريقه فرصة سانحة للضغط على الصين لمد مفهوم الإرهاب إلى الدول التي تسميها واشنطن "**مارقة**"، وبالتالي تمتنع عن محاولات تصدير التكنولوجيا أو الخبرة النووية إليها، وذلك على هامش مؤتمر إيبك في شنغهاي والذي يتطلب الوقوف الموجز على أهم دلالاته.

إيبك–شنغهاي: نقطة تحول على طريق التحول

مع مطلع الأسبوع الثالث من الغارة الأمريكية على أفغانستان جاءت قمة منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادي في شنغهاي العاصمة التجارية للصين 20-10/21 لتفك البقية الباقية من عُقد التردد في طريق انفتاح آسيا الكبرى نحو الغرب والولايات المتحدة والتعبير عن الإصرار على ذلك دون مواربة.

فعلى الرغم من أن المنتدى أُسس لتشجيع التجارة الحرة والاستثمار في المنطقة، فإن بيانه الختامي جاء سياسيًا بالدرجة الأولى؛ حيث أعلن الرئيس الصيني ضمنه اتفاق زعماء الدول الـ21 المشاركين على ما ملخصه[261]:

- الإدانة بأقوى لهجة ممكنة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر باعتبارها "**إهانة للسلام ولرخاء كل الشعوب وكل الأديان وكل الأمم**".
- والتعاطف التام مع الموقف الأمريكي: "**إنها معركة العالم في مواجهة الإرهاب**".
- المطالبة بزيادة التعاون لتقديم "**الجناة**" إلى "**العدالة**".
- التعهد بتنسيق الخطط والإجراءات المناهضة للجماعات المتورطة في أعمال الإرهاب بخنق قنوات تمويلهم، وتعزيز المراقبات الأمنية والإلكترونية على الطائرات وفي الموانئ والمطارات والجمارك.

ومن الجدير بالذكر أن المنتدى تعمد عدم الإشارة إلى ما يدور في أفغانستان في إشارة إلى الإجماع السكوتي على قبوله في الوقت الذي كان الإعلام العالمي يضج بأنباء ومشاهد الضحايا الأفغان من المدنيين.

وفيما حاول الجانب الصيني الظهور كمدافع عن الدول النامية، مركزًا الاهتمام على

التداعيات الاقتصادية والتأكيد على مواصلة سياسات الإصلاحات والانفتاح والتحديث و"**العمل معًا..للقيام بدور في الاقتصاد العالمي والإقليمي**"[262]، فإن قمة بوتين-بوش (10/22) على هامش المنتدى مثّلت نقطة تحول حقيقية في مسار فريق الرئيس الروسي الذي حرص طوال الفترة الماضية على الاحتفاظ بالورقة الاستراتيجية في العلاقات مع الغرب.

فأمام الرغبة الأمريكية في تشييد الدرع الصاروخي المضاد للصواريخ الباليستية، والتي تعني ضرورة التخلي عن اتفاقية آي بي إم الموقعة بين الدولتين عام 1972،خلال الوفاق البارد الأمريكي-السوفيتي، اكتفى بوتين اليوم بوصفها بأنها "**عنصر مهم لاستقرار العالم**" مؤكدًا على استعداده لبحث المصير المقبل لها، الأمر الذي اعتبره بوش تقدمًا إيجابيًا في يوم فاصل:"**لقد تجاوزنا حقًا وفى شكل نهائي الحرب الباردة، اليوم وبعد هذا اللقاء الثالث مع فلاديمير بوتين وأحداث الأسابيع الخمسة الأخيرة يمكن القول إننا أحرزنا تقدمًا في اتجاه هذا الهدف..إن هذه الاتفاقية عفا عليها الزمن، وأعتقد أنها أصبحت خطرة**"[263].

وعليه فقد شدد بيان القمة المشترك –في نصه الروسي- على أن العدو المشترك هو "**الإرهاب والخطر النووي**"، وعلى عزم الرئيسين على "**زيادة التعاون في محاربة التهديدات الإرهابية الجديدة بالأسلحة النووية والكيمياوية والبيولوجية وعن طريق الكومبيوتر**"[264].

إن دلالة العدو المشترك وتوحيده في "**الإرهاب**" الذي فقد أي تحديد نظري ليمضي تبع الأهواء السياسية للغرب بزعامة الولايات المتحدة، تبعث برسالة مفادها أن العالم مقبل على مرحلة جديدة تتجيش فيها أقطاب المنظومة العالمية وراء الدعاية والسياسة الأمريكية لإعلان الحرب على هذا العدو، الذي يبدو أنه في الأغلب الأعم يقع داخل الأمة الإسلامية أو ينتسب في هويته إليها.

ج- الهند: القطف المبكر للثمار

بدأ السعي الهندي مبكرًا جدًا لاستثمار التحرك الأمريكي تجاه المنطقة؛ فقبيل اندلاع الغارة (10/7) انتفضت نيودلهي إثر حادث البرلمان الهندي في سرينجار، بما أسفر عن التطمين الأمريكي على لسان كولين باول بأن التقارب مع باكستان لن يكون على حساب المزايا التي ستتمتع بها الهند، وانتزع الوعد السابق الإشارة إليه من الرئيس الباكستاني بمواجهة الجماعات الجهادية في كشمير، والمشاركة في الحيلولة دون اختراقهم للحدود مع الإقليم الواقع تحت السيطرة الهندية.

لم تكف الهند عن مواصلة سياسة الضغط للحصول على المزيد من المكاسب؛ فعلى الرغم من المهادنة التي أكدها اتصال مشرف برئيس الوزراء الهندي، فقد مضى فاجباي وفريقه يكرر الإعراب عن انزعاجه من "**اندفاع المجتمع الدولي نحو باكستان..إنه ينبغي عدم ترك دولة معينة تواصل برنامجها الإرهابي تحت غطاء الحملة**"[265]، ثم صعَّدت الأمر بقصف 11 موقعًا باكستانياً على الحدود (10/15) بدعوى "**وقف تسلل الإرهابيين**" إلى أراضيها، ما أدى إلى تجدد تبادل إطلاق النار بين البلدين،ولم تفلح زيارة باول (10/16) في إثناء الهند عن مواصلته.

لقد بدا أن الهند جادة في السعي لاهبتال الفرصة؛ فمحاولات الإثارة والانطباق مع الحملة الأمريكية لم تتوقف رغم التطمينات الأمريكية التي بلغت مداها مع نهاية أكتوبر. ففي نيودلهي أعلن السفير الأمريكي روبرت بلاكويل أن قائمة المنظمات الإرهابية ستتسع وأن نطاق الحملة الراهنة

سيمتد ليشمل المنظمات التي تشن هجمات في كشمير: "**إن الإرهاب داخل الهند سيكون جزءًا من الحرب العالمية ضد الإرهاب**"[266].

وهكذا نجحت الهند في "**عولمة**" خطاب الحرب ضد الإرهاب وإظهار أنها واقعة تحت تهديده على النحو الذي أشاعت به بعض صحفها أنباء عن بوادر التعرض لخطر رسائل الجمرة الخبيثة في أنحاء مختلفة من البلاد دون أن تتأكد حالة إصابة واحدة[267].. فيما راح وزير الدفاع جورج فرنانديز يؤجج نار المعركة الدائرة زاعمًا في محافل متعددة أن الولايات المتحدة لا تزال بعيدة عن أهدافها التي أعلنتها:

> "**إن قاذفات الـ B-52 القديمة أعيدت إلى الخدمة .. كما لو أن الأمريكيين يعتريهم حنين إلى حرب فيتنام .. إنها عملية تبذير للمتفجرات على جبال جرداء .. إن الطيران الأمريكي لم يهاجم جسرًا واحدًا..إن الولايات المتحدة لا تساعد بشكل كافٍ تحالف الشمال**"[268].

ومن ثمجاء نوفمبر ليجلي أهداف الهند الأساسية خلال المرحلة المقبلة على ما دعا إليه السفير الهندي في واشنطن من "**إقامة علاقات عسكرية قوية مع واشنطن ،بما في ذلك شراء أسلحة متطورة من شركات الأسلحة الأمريكية**"، مشيرًا إلى أنه على الرغم من الضغوط الداخلية في الهند لشن حرب على الأصوليين في كشمير مثلما تفعل الولايات المتحدة في أفغانستان؛ "**فإن الحكومة الهندية قررت التحلي بضبط النفس**"، مؤكدًا أن الولايات المتحدة تعهدت بأن أهدافها لا تشمل أفغانستان فقط، بل باكستان كذلك[269].

الشيء الجدير بالانتباه إليه أن هذه الدول الآسيوية الكبرى رغم خلافاتها الثنائية، أو تنافساتها السابقة، حرصت إبان هذه الجولة على التنسيق فيما بينها، وتبادل الآراء في مجريات المعركة وانعكاساتها، سيما فيما يتعلق بالمستقبل الأفغاني.

فأثناء زيارته لموسكو (11/3) أكد فاجباي أن "**حكومة طالبان ينبغي ألا تكون شريكًا في أي ائتلاف حكومي أفغاني مقبل**"، وأن هدف الحرب ينبغي ألا يقتصر على القضاء على الإرهاب، بل يمتد لإقامة حكومة وطنية تمثل كل الأعراق والقبائل[270]، فيما بدا متابعًا إلى حد كبير للموقف الروسي السابق التنويه به.

وعامةً، فقد تحول الجوار الأفغاني المباشر وغير المباشر للإعلان عن بدء مرحلة جديدة نوعيًا في التعامل مع القضايا المحلية والإقليمية والعالمية قوامها المحاور التالية:

- الميل إلى تقديم روح التعاون على الأنماط التي كانت سائدة من الممانعة أو المطاولة الندية، أو المقاسمة، أو المعاوقة، فضلاً عن روح المنافسة أو الصراع في صدد العلاقات مع الغرب بعامة والسياسات الأمريكية بخاصة، سيما مع غلبة روح الاغتنام والاستثمار للمكاسب المترائية على جوانب التحركات الأمريكية، وسيادة القناعة لدى القيادات السياسية في هذه المنطقة بأن الكثير من أوراق اللعبة الكبرى موجودة في البيت الأبيض.
- السعي الجديد من نوعه إلى تدويل أو عولمة القضايا الداخلية؛ استجلابًا للعون الدولي إزاءها، سيما فيما يتعلق بالتكوينات الإسلامية التي سبق لمنظمة شنغهاي أن حددت مكامن خطورتها في ثالوث: الانفصالية، والأصولية، والإرهاب العابر للحدود.
- استمرار واستمراء إغفال التعريف النظري للعدو المشترك "**الإرهاب الدولي**"، الذي تُدشن المرحلة المقبلة لجعله ملاط التحالف الدولي، والميل إلى التبعية للتأويل فالإسقاط الأمريكي له على الإسلاميين بكافة وجوههم، مع السعي للخدمة على القضية الخاصة بكل طرف بالصمت على الأقل عن ممارساته تجاهها.

- الميل لتقديم الأداة العسكرية في فكر المواجهة مع هذا العدو المشترك، والمضي قدمًا في سائر الخطوط المالية والقانونية والسياسية، وبحذر وإصرار في إضافة الأداة الثقافية المثيرة لقضايا التعليم الديني والخطاب الديني والفكر الإسلامي بالأساس، بما ينذر بمرحلة من العلاقة بين العالم – وليس الغرب وحده- وعالم الإسلام والمسلمين، تتجاوز مرحلة الإعداد السابقة إلى مرحلة المواجهة المنوعة، والتي تفرض على الأمة لونًا جديدًا من التفكير، وسعيًا جديدًا لتجاوز هذه المحنة الممتدة!

الجولة الثالثة– ترتيبات ما بعد طالبان: إرهاصات مرحلة جديدة (2001/12/22 – 11/15)

في غضون أيام قلائل، وفي مشهد مثير للدهشة والتساؤل أنهت طالبان تجربة السنوات الخمس في الحكم، وانفرطت حبات عقد هيمنتها مع تساقط المدن الكبرى الواحدة تلو الأخرى، بما كشف –على صعيد تقويم التحليل السياسي الراهن- عن حالة اضطراب في نطاق "**التفسير**" فضلاً عن "**التكهن**" شملت الكافة من الدارسين والمتمرسين! فبعدما انتهى حماس وزير الدفاع الأمريكي إلى الاعتراف بأن جنود طالبان "**أشداء**" وأن الحرب معهم تحتاج إلى المثابرة، وسط تنبؤات بامتدادها إلى عام أو إلى نهاية فترة بوش 2004، أو ربما إلى ما لا نهاية..مع تنامي شعور عام في الغرب بالإحباط[271] جاءت اللحظة الثالثة من تداعيات 9/11، والتي بدأت 11/9 لتفقد الجميع توازنه بغير ما استثناء.

وعلى كلٍ، فما أن انقشعت علامات الانبهات حتى انتبه الجميع إلى السؤال الأوَّلى: سؤال الـ"**ما بعد**"؛ ما بعد الغارة، ما بعد طالبان، ما بعد أفغانستان. وإذا كان الأمر الأخير لا يدخل في صميم هذا التقرير: (من الذي عليه الدور؟)، فإن الأمور التي طفت على الساحة الأفغانية بدءاً من دراما التداعي الطالباني، وما صاحبه من مساعي الشغل العاجل للفراغ السياسي والأمني، مرورًا بالمسألة الشعبية والثقافية، وانتهاءً بما عُرِّف بعملية إعادة البناء للأمة الأفغانية، تحتاج إلى وقفة أخيرة بغية إسدال الستار على الجولة الأفغانية الثالثة من إفرازات الحادي عشر من سبتمبر 2001.

جاء التداعي الطالباني والانسحاب من مزار الشريف (11/9) وحتى كابول (11/13) وسط حالة من الغموض عكستها مقولات التحذير من الفخ وغيرها[272]. وإذا ما كان هذا الأسبوع السادس من الغارة الأمريكية يمثل دراما المفاجآت المتصاعدة فإن التأمل في جوانبه يستشف ملامح رئيسة لطبائع الأطراف المختلفة الضالعة في مجرياته:

فمن ناحية أولى، لوحظ على قيادات المعسكر المنهزم –ورغم تقهقرها السريع- أنها لا تزال تستمسك بخطاب التحدي والإباء ،بل والتهديد حتى النهاية؛ سواء كانت نهايتهم على ما جاء في كلمات قادة القاعدة، أو نهاية الولايات المتحدة نفسها على ما بشر به الملا عمر. ومن ناحية ثانية، عكست هذه اللحظة إلى أي مدى يتمتع المعسكر الغربي الغالب بدرجة عالية من السرعة في اقتناص الفرصة، مهما كانت قلقة، والتحول بها بنهج ذرائعي حاد وجاد نحو المصالح الخاصة به؛ ومن ناحية ثالثة؛ فقد تراءى على دول الجوار الأفغاني أنها ما كادت ترى نجاح دورها وانتهاءه حتى آثرت اللواذ بالصمت، سيما أمام السؤالات الحرجة الخاصة بوضع القوات الأمريكية وقواعدها في المنطقة بعد أن تنتهي مهمتها الحالية.

أولاً– دراما التداعي: انسحاب مفاجئ وخطاب إباء متواصل

وهكذا فمع مطلع الأسبوع السابع للمعارك (17-11/24) لم تعد طالبان تسيطر سوى على 4 ولايات من أصل 32 ولاية، وهي هلمند (جنوب) وزابول (جنوب

شرق) وأوروزغان (وسط جنوب) وقندهار (جنوب)، ولم يعد باقيًا من معاقل طالبان في الشمال سوى "**قـــدُز**" الـــتي شهدت قصفًا جويًا غير مسبوق من قبل قاذفات B-52؛ حيث صرح أحد قادة التحالف: "**عناصر طالبان أكثر عـــددًا منا بكثير، ونعتمد على الغارات الأمريكية لمساعدتنا**". وأشـــار البعض إلى أن عددهم يتراوح بين 30-40 ألفًا من طالبان وأنصارها الذين عرفوا بالمقاتلين الأجانب (من أصول عربية وشيشانية وباكستانية)، وكانت تقاوم بشدة[273].

استمرت حالة المد والجزر في قندوز حتى سقط نحو ألف من الصف الطالباني جراء القصف الأمريكى الكثيف، وإلى أن أعلن عبد الرشيد دوستم أن أعـــضاء الحركة قد وافقوا بشكل عام على الاستسلام وتـــسليم المدينة بعدما وافق التحالف على طلب القائد الطالباني بالمدينة، داد الله خروج قواته بأمان مقابل إنهاء القتال.

غير أن دوستم أكد أن التحالف لن يلبي مطلب داد الله بالسماح بالعفو عن الأجانب الذين يقاتلون في المدينة إلى جانب طالبان؛ حيث أعلن التحالف أنه "**لن يدع الأجانب يفلتون من العقاب ميدانياً**"000 هذا فيما كانت المحادثات متعثرة مع الحركة في الجنوب لتـــسليم قندهار[274]

وفي هذه الأثناء كان الغموض يكتنف الوضـــع في قندهار وجلال أباد؛ حيث قال الملا عمر إن قواته تـــسيطر على قندهار، في حين قال التحالف الشمالي إن المدينـــة في حالة فوضى ..فيما كان وفد بشتوني يستعد للتوجـــه إلى المدينة لمفاوضة الحركة حول الاستسلام؛ حيـــث صـــرح الزعيم القبلي المشار إليه سلفًا حميد قرضاي إلى أنه علـــى اتصال بقادة الحركة: "**إنني أحاول التفاوض مع طالبان لإقناعهم بأن ما يقومون به لا يفيد الأفغـــان ولا أفغانـــستان**". وبمـــا أن قرضاي هذا محسوب على أنصار ظاهر شاه فقـــد كانـــت الفرصة تزداد تهيؤًا أمام هـــذا الفريـــق للتبـــشير بـــالعودة الوشيكة؛ فيؤكد سيد أحمد الجيلاني -كرئيس لما عُـــرف بمؤتمر السلام الأفغـــاني- علـــى عـــودة الملـــك "**لقيـــادة أفغانستان**"[275]

وعقب تهديده للولايات المتحدة بالنهاية والتـــدمير، ذكرت وكالة الأنباء الإسلامية الأفغانية أن الملا عمر أمـــر مقاتليه بالانسحاب من قندهار، والتوجه إلى الجبال لتفادي سقوط المزيد من الضحايا المدنيين من جراء القصف الجوي العنيف، وتسليم المدينة إلى قادة المجاهدين السابقين؛ منوّهة أن الملا عمر اتخذ قراره هذا بعد مشاورات لعدة أيام مـــع قادته العسكريين ومعاونيه المقرّبين والزعمـــاء القبلـــيين في المدينة، وأن عملية الانسحاب ستستغرق 24 ســـاعة... هذا فيما كانت المفاوضات لا تزال جاريـــة مـــع قـــوات الحركة المحاصرة في قندوز، سيما في ظل تقلبات التحـــالف الشمالي الذي بات أسير مؤشرات الإرادة الأمريكية؛ حيث أشار الجنرال محمد داود من التحالف الـــشمالي أن قواتـــه ستقتل جميع المسلحين الذين يرفضون الاستـــسلام، إثـــر الموقف الذي أعلنه رامسفيلد بالنسبة للقـــوات الأمريكيـــة الخاصة في الجنوب[276].

توالى الاندحار الطالباني عبر هذا الأسبوع لتبدأ في نهايته الخطوات الكبيرة في الانسحاب والتسليم في قنـــدوز؛ حيث استسلم نحو 3000 مسلح (11/24) تركوا المدينة بغير سلاح بسبب الحصار الخانق لمدة أسبوعين، الأمر الذي تلاه تكثيف القصف الأمريكى علـــى ضـــواحي المدينـــة وحصولها ليأتى سقوط قندوز (11/25) بعد ساعات من قصف عنيف شنته نحو 65 قاذفة بعيدة المـــدى، وانتـــهى الأمر باستسلام مقاتلي طالبان والمتطـــوعين في صـــفوف الحركة لقوات القائد الطاجيكي محمد داود، بنـــاء علـــى اتفاق الأخير وقادة الحركة في قندوز مع دوستم بإبقاء قواته الأوزبكيةخارج المدينة وعدم دخولها من جهة الغرب[277].

بيد أنه في نفس اليوم الأحـــد (11/25) اندلعت معركة عنيفة داخل قلعة جانجي (غرب مـــزار الـــشريف) التي سجن فيها مئات من المقاتلين الموالين لطالبان عقـــب

استسلامهم في قندوز، في ظروف غامضة تضاربت حولها الروايات لأيام، فيما يحتاج إلى وقفة خاصة لبيان المأساة الإنسانية التي كللت النصر الأمريكي!! ولكن قبل ذلك: ماذا عن الخطاب الذي صاحب هذا التداعي والذي يلقي الضوء في خاصة رأينا على بعد هام في المعسكر المدحور؟

عقب لقاء مع بوتين (11/15) أعلن بوش أن العمل يجري لوضع استراتيجية بصيغة وخطة جديدة للتعامل مع الواقع الجديد في أفغانستان، في ضوء التقهقر السريع لحركة طالبان، وشدد على أن الحملة العسكرية في أفغانستان ستستمر حتى يتم القضاء على القاعدة وطالبان وجلب قياداتهما للعدالة[278]. وبناء عليه جاء خطاب هذه القيادات مفعمًا -كما أسلفنا- بالتحدي وترديد فكرة "**النهايات**".

ففي حديث بثه القسم البشتوني في الـ"**بي بي سي**"(11/15) قال الملا عمر: إن الوضع الحالي في أفغانستان مرتبط بقضية كبرى هي "**تدمير أمريكا**".."**إن هذا المشروع يحرز تقدمًا، ويجري تنفيذه غير أن المهمة هائلة، تتخطّى إرادة البشر وإدراكهم..سيتم هذا قريبًا وليبق كلامي في أذهانكم**". ورفض عمر بتاتًا فكرة مشاركة حركته في حكومة مقبلة تمثل جميع المجموعات الإثنية الأفغانية، وقال: "**لن نقبل بحكومة من الأشرار، ونفضل الموت على المشاركة في هذه الحكومة**". لم يمنع هذا أن يعترف عمر بأن طالبان ربما ارتكبت بعض الأخطاء[279].

ومن ناحيته، أعلن أسامة بن لادن عبر بختيار أنه يفضل الموت على الاستسلام، وأن الولايات المتحدة لن تقبض عليه حيًا. وقال الملا عبد الله إن: "**أسامة قرر أن الموت أفضل له من تسليمه إلى الأمريكيين**". وفي المقابل لم يتوقف الجميع من الساسة والإعلاميين عن تصدير الشائعات والتكهن بمصير ابن لادن بين استصعاب القبض عليه وبين احتمالات قتله أو هربه؛ حيث رأى رامسفيلد -مثلاً- أن ابن لادن "**يملك الإمكانات التي تجعله يفعل ما يريد، أو على الأقل تجعله يحاول ذلك**"، لكنه عبَّر في نفس الوقت عن أمله في "**أن يساعد الأفغان أمريكا على القبض على ابن لادن، مدفوعين على الأقل بالمكافأة السخية التي عرضتها واشنطن**"[280].

وفي وعيد شديد أفادت صحيفة "**جانغ**" الباكستانية في 20 نوفمبر أن الرجل الثاني في تنظيم"**القاعدة**" تعهد أن تستمر الحملة ضد الولايات المتحدة الأمريكية، مهما كان مصير زعيم التنظيم أسامة بن لادن. ونقلت عن أيمن الظواهري زعيم جماعة الجهاد المصرية أن "**القاعدة ستلاحق الأمريكان في كل مكان**"! كما نسبت الصحيفة إلى القيادي في القاعدة سيف العدل أن التنظيم يحاول أن يكون "**قوة مسلحة بأسلحة نووية**".. وأن القاعدة شكلت قوة من الانتحاريين لتنفيذ مهمات داخل إسرائيل؛ الأمر الذي أكده الظواهري بقوله "**إن تل أبيب هي الهدف المقبل للقاعدة**"!![281]

هذا، ويشار إلى أن الأنباء ترددت في هذه الآونة عن مقتل محمد عاطف (أبو حفص المصري)، الذي يعتقد أنه المسئول العسكري في القاعدة؛ الأمر الذي أكده عبد السلام ضعيف (11/18) مُعرِّفا عاطف باسم " **الرجل الثالث**"[282].

وأخيرًا نجد أننا أمام سؤالين يطرحان نفسيهما حول حقيقة النهاية الطالبانية: هل حقًا يصح أن نسمي هذا الذي جرى نصرًا أمريكيًا؟ وهل هي نهاية طالبانية بكل المعاني، سيما في ضوء الخطاب الإبائي الذي لم ينقطع بل تزايدت ضراوته عن ذي قبل؟؛

يقول د. محمد السعيد إدريس "**رئيس تحرير مختارات إيرانية**": إن "**احتمال نجاح أمريكا مع تحالفها الدولي في الانتصار على طالبان وتنظيم القاعدة وأسامة بن لادن لا يعني تحقيق انتصار حقيقي ضد العدو الجديد.**

الانتصار على طالبان وكما يقول جوزيف ناي– عميد كلية العلوم الحكومية في جامعة هارفارد– لن يكون هو النصر في الحرب ضد الإرهاب. إنه مجرد نصر ضد هدف خاص. فكما يقول البروفيسور فيليب هايمن (من هارفارد أيضًا): سيكون من المستحيل "إعلان النصر الكامل على العدو الإرهابي، كما تم إعلان النصر على العدو النازي في الحرب العالمية الثانية، وعلى العدو الشيوعي في الحرب الباردة؛ لأنه وكما يعتقد هايمن "**سيكون في وسع ثلاثة أشخاص فقط يمتلكون القناعة وإرادة الانتحار أن يجعلوا من الإعلان عن النصر ونهاية الحرب أمرًا غير ممكن**"[283].

وفي رؤيته لـ "**أم المعارك الأمريكية والإرهاب من المنظور الأخلاقي**" يقرر د.عبد العليم محمد من مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام/القاهرة أن الحرب ضد أفغانستان بدأت "**تكشف عوراتها، ذلك أن غالبية الضحايا حتى الآن من المدنيين الأبرياء والأطفال الجوعى والفقراء، وأن الذكاء المفترض للأسلحة الأمريكية والتكنولوجيا الحديثة قد أسفر عن"غباء"مزمن حيث يقصف مقار منظمات الإغاثة الإنسانية والمدارس والمستشفيات...**"[284].

محنة الضمير: فوضى الانتقام والإذلال

نعم، ربما لم تقدم طالبان نموذجًا تعميريًا، إلا أنها أيضًا في حدود الموثق لم تتعمد التخريب أو إزهاق الأرواح، بل شهد لها العدو قبل الصديق بما جلبته للبلاد من توحيد وأمن وسكينة.. فهل دام الحال أو زاد أمنًا بعد تراجعها؟

الواقع أن انهيار مقاومة طالبان جاء ليفتح أبواب ملحمة شرسة فشلت عدسات الإعلام الغربي المنقلبة إلى التحدب في إرسال الغيوم عليها. فقد غرق طريق المنتصرين من مزار الشريف إلى كابول بالأشلاء والدماء والجثث التي ركلتها الأقدام بكل جسارة أمام أبصار العالمين، وتواصل التحالف الأمريكي– الأفغاني في استعراض الأسرى والذبائح على نحو غير مسبوق. توقع المتابعون أشياء كثيرة مما ينسب إلى عالم القسوة والوحشية، بيد أن الذي جرى تعدى كل الحدود والتصورات! ففي المبتدأ يعلق الصحفي البريطاني الشهير روبرت فيسك في الإندبندنت(11/16):

"**إن كانت انتصارات التحالف الشمالي هي أنباء جيدة بالنسبة للغرب فإن الأنباء السيئة ليست بعيدة تمامًا، فالجماعة المسلحة التي تضم أوزبك وطاجيك وهزارا الذين يكونون هذا الجيش المهلهل لديهم سمعة دموية لقيامهم بتعذيب وإعدام الأسرى .. ليس هناك ما يجعلنا نتصور أن التحالف قد تلقى دروسًا في حقوق الإنسان، فهو [فقط] ظل يتلقى ذخيرة من روسيا وأسلحة من الولايات المتحدة**"[285]

غير أن الأيام القليلة التالية أوضحت تباعًا نوعية الدروس التي تعلمها رجال التحالف؛ فعلى الرغم من انسحاب قوات طالبان من كابول قبل وصول القوات الشمالية إليها إلا أن المحطات التليفزيونية نقلت مشاهد اقتحام وتمشيط المنازل والأحياء ،والتنكيل بعشرات الجثث التي تفترش الطرقات، وصور بعض رجال التحالف وهو يركل رأس قتيل بنعله أكثر من مرة، وآخرين يعبثون ويمثلون بالجثث، وغير ذلك من عمليات الانتقام التي أشبهها الكثيرون حتى ممن يلعنون طالبان وأيامها بما جرى على أيدى الصرب في البوسنة وكوسوفا، أو بما يمارسه اليهود ضد شهداء الانتفاضة في فلسطين[286]

حاول الإعلام الغربي بل والإعلام المنسوب إلى الأمة تصوير الأمر وكأن الشعب الأفغاني قد انضم إلى التحالف الشمالي في مطاردة فلول الطالبان، في رسائل بدا التلفيق فيها واضحًا، فإذا ظهرت الفظائع عيانًا جرت نسبتها إلى المواطنين، وإذا أمكن العثور على جرحى تعالجهم منظمات أجنبية غير حكومية، حرصت الدعاية على نسبة أمر إيصالهم إلى المستشفى إلى جيش التحالف الذي أصبح "**عالي الحساسية فيما يتعلق بالحد من الفظائع وخرق حقوق الإنسان**" على حد تعبير سكوت بيترسون "**مراسل كريستيان ساينس مونيتور**". وربما كان في العبارة التالية التي أوردها هذا المراسل ما يشير بكل وضوح إلى ذلك:

"**وعندما بدأ الجمهور الغاضب في مطاردة جنود طالبان، التفت حارث – أحد المأسورين فيما بعد – ورفاقه إلى الوراء**

وأطلقوا النار على الجماهير الغاضبة التي كانت تطاردهم مما أدى إلى قتل واحد من جنود التحالف الشمالي وجرح آخر"[287]

وفيما كان الشماليون يبدون بسبيلهم لإخراج المقاتلين الأجانب من مأزق قندوز مع اشتداد القصف الأمريكي والمقاومة الأرضية، فإن رامسفيلد أعلن 11/19 عن معارضته إجلاء حتى عناصر طالبان مفضلاً أن **"يُقتلوا أو يؤسروا"**؛ محذرًا الأمم المتحدة والتحالف من المضي في مفاوضات معهم على نحو ما أشير إليه.. ثم عاد الرجل ورفض صراحة قبول أسرى مطلقاً، الأمر الذي بدا مؤازرًا من قِبَل بريطانيا وروسيا والهند والصين ودول الجوار المباشر الذين أظهروا رغبة عارمة في التخلص من القاعدة نهائيًا[288]. أثار هذا الموقف قلق أرباب القانون الدولي والإنساني مما قد يحمله من المسئولية القانونية تجاه السماح بأعمال عنف غير مبررة بحق الأسرى، والتي تطول بالأساس القادة العسكريين والمدنيين سواء الذين يخفقون في منع أتباعهم من ارتكاب جرائم أو في معاقبتهم، بناء على ما كرسته محاكمات لايبزيج في الحرب العالمية الثانية.

وفي هذا تنص مبادئ القانون الإنساني الدولي على أنه **"يُحظر قتل أو جرح أي عدو يستسلم أو يخرج من القتال"** وعلى أن **"المقاتلين والمدنيين الأسرى الذين يقعون تحت سلطة طرف معاد من حقهم احترام حياتهم وكرامتهم وحقوقهم وقناعاتهم، ويجب حمايتهم من أعمال العنف والأعمال الانتقامية، ويجب أن يكون لهم حق مراسلة عائلاتهم وتلقي معونة"** كما تنص على أن **"من حق كل شخص أن يحظى بضمانات قانونية أساسية"**، وعلى أن **"الأطراف المتنازعة وأفراد قواتها المسلحة لا يمتلكون خيارًا لامحدودًا في وسائل الحرب وطرقها . ومن المحظور استخدام أسلحة أو وسائل حربية تؤدي إلى خسائر غير مبررة أو معاناة مبالغ فيها"**.

واعتبر القانونيون الدوليون قوات القاعدة وكذلك قوات طالبان بحكم خضوعها لقيادة متسلسلة ونظام عسكري داخلي، طرفًا تنطبق عليه قوانين الحرب والفصل الثالث من اتفاقية جنيف، ولو لم تكن الولايات المتحدة تعترف بهما أو بحكومة طالبان

وهكذا لم يجد هؤلاء القانونيون الدوليون من تفسير للإصرار الأمريكي على هذا الموقف سوى أن الإدارة الأمريكية تبدو **"متعطشة إلى الدماء والانتقام"** كما أن هذا سيمثل أسوأ سابقة قانونية يمكن أن يتقبلها الرأي العام الغربي في القرن الـ21، وفي حرب حاولت دولتها القائدة التزيي فيها بالعدالة المطلقة[289].

وفي المقابل وقف ممثل العدالة الأمريكية جون أشكروفت يدافع عن قرار رئيسه بالسماح بتشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة الأجانب الذين يتهمون بأعمال إرهابية خصوصًا التي وقعت في 9/11 بأن بوش في حالة حرب **"وعلينا القيام بكل شيء ممكن لحماية حياة وأرواح الأمريكيين"** والطريف أن ذلك جاء ردًا على مخاوف البعض في لجنتي العدل في مجلسي الشيوخ والنواب أن تستخدم تلك الإجراءات في **"اصطياد الأمريكيين"!!** [290]

وفي هذا شهد الشمال الأفغاني محرقة قلعة جانجي؛ حيث أغارت الطائرات الأمريكية على القلعة (25-11/27) في طلعات متواصلة بلغت ما بين 30-40 مرة خلال ليلة 11/27 فقط، وتضاربت الأقوال في عدد هؤلاء الحرقى والقتلى؛ فقيل أولاً ليسوا سوى عشرة، ثم قيل 300-400، ثم قيل 600 إلى غير ذلك، وتضاربت الأقاويل أيضًا في طبيعة وجودهم داخل القلعة، وفي معنى الذي حدث وملابساته، وهل هو تمرد حقيقي أم رد فعل لعمل استفزازي؟ وما حجم الفعل والاستجابة...إلخ، الأمر الذي أبت الأقدار إلا أن تكشفه كاملاً لتسفر الحقيقة عن مأساة مهولة وصفت بالمذبحة والمجزرة والمحرقة والمخزاة التي تحركت لها مشاعر الجميع عدا الأمة التي لم تحرك ساكنًا ولو على الصعيد الكلامي الذي احترفت العمل به[291].

ونترك لشبكة إسلام أون لاين نت ومراسليها وصف ما جرى ونسجله هنا للتاريخ وللتذكرة والاعتبار، يقول هشام سليمان مراسل الشبكة:

"اقتحمت الدبابة القلعة، وأطلقت أربع دفعات، ثم ساد صمت في الحصن".. هكذا لخصت صحيفة الجارديان البريطانية الصادرة الأربعاء 28-11-2001 المشهد الأخير للمجزرة التي ارتُكبت في قلعة "جانجي"، وراح ضحيتها أكثر من 600 من الأسرى السجناء من شيشانيين وأوزبك وباكستانيين وعرب.

ففي ليلة الثلاثاء 27-11 سكت إلى الأبد تمرد الأسرى الأجانب المؤيدين لحركة طالبان في قلعة جانجي غربي "مزار الشريف" بشمال أفغانستان، عندما دخلت دبابة لقوات التحالف الشمالي إلى ساحة حصن جانجي، وقتلت الدبابة من تبقى حيًّا من المقاتلين الأجانب في صفوف طالبان بعد القصف الأمريكي الذي وصفته صحيفة الجارديان بالمتكرر.

وتشير الجارديان إلى أن الطائرات الأمريكية ظلت تقصف القلعة، بعدما تمرد الأجانب الذين كانوا يقاتلون في صفوف طالبان واستسلموا بقندز، وتم نقلهم إلى قلعة جانجي.. والذي وصفته الجارديان بـ"المدهش" أن البعض منهم ظل على قيد الحياة بعد قصف أمريكي استمر طيلة يومين، بل شنوا هجومًا مضادًّا في الثامنة من صباح الثلاثاء 27-11-2001 بالتوقيت المحلي، وأطلقوا النار على القناصة من التحالف الشمالي والقوات الخاصة الأمريكية والبريطانية، وأصابوا بعضًا من هؤلاء الجنود الذين كانوا يتحصنون بالمتاريس بين أسوار الحصن الداخلية والخارجية.

وقد قصفت قوات التحالف الأسرى من طالبان براجمات الصواريخ والهاون، وفتحت نيران المدافع الرشاشة والبنادق الآلية بصورة وصفتها الجارديان بـ "المدمرة"، ومع منتصف يوم الثلاثاء 27-11-2001 كان المتبقي من (400 أو600) أسير ثلاثةَ أسرى فقط، رفضوا كل عروض الاستسلام التي عرضت عليهم، وهم يصرخون "كلكم أمريكان.. لن نستسلم لكم".

وحسب صحيفة الجارديان، فإنه بناء على نصيحة من قوات "ساس البريطانية" والقوات الخاصة الأمريكية سكب جنود التحالف الزيت على جدران المخبأ الذي كان يتحصن به المقاتلون الثلاث الذين لم يكن معهم سوى رشاش قصير، ورشاش كلاشنكوف، وفي الثالثة والنصف من عصر نفس اليوم (الثلاثاء)، سُمع هدير دبابة داخل الحصن، وراحت تدهس في طريقها جثث قتلى القصف الأمريكي من الأسرى الأجانب (شيشان وعرب وباكستانيين...وغيرهم)، ثم وقفت على بعد 20 مترًا فقط من مخبأ المقاتلين الثلاثة، وأطلقت أربع زخات متتالية، لتطيح دانات الدبابة بمخبأ الجنود، وساد بعدها صمت الموتى.

وقد أكد "كالاجي" أحد قادة العسكريين في التحالف الشمالي –للجارديان – أن "الطالبانيين" أُبيدوا تماماً، وقال: "لقد فتشنا كل الحجرات، ولم نترك واحدة، علنا نجد واحداً أو اثنين على قيد الحياة، ولكننا لم نجد".

وقد ترك المنظر النهائي للحصن الذي كان "أخضر" انطباع المذبحة في مخيلة شهود العيان الذين شاهدوا مذبحة للآدميين، ومجزرة للأشجار التي كانت به، والآلاف من فوارغ المقذوفات، وشظايا قذائف القصف الأمريكي، وانتشار مئات الجثث بساحة الحصن. وحسب مصادر الجارديان، فإن القوات الخاصة البريطانية والأمريكية هم الذين أداروا المذبحة؛ حيث لعبت طائرات AC130 دورًا حاسمًا في إخماد تمرد السجناء بقلعة جانجي بقصفها مستودع الذخيرة بالحصن المليء بالألغام، وقذائف الهاون، وذخائر أخرى. (292)

وفي هذه الأجواء بدأت ملحمة الأسرى المسلمين حين رفض المتحدث باسم الأمين العام للأمم المتحدة اضطلاع المنظمة بأمر هؤلاء الأسرى؛ بحجة أن المنظمة لا تملك من الإمكانيات ما يمكنها من ذلك!... الأمر الذي أفسح المجال أمام واشنطن للإعلان عن إعداد خطط لمحاكمة الأسرى، سيما من القاعدة أمام المحاكم العسكرية الأمريكية في إحدى القواعد البحرية الأمريكية، في كوبا وفي جزيرة غوام بالمحيط الهادي .. فكانت ملحمة جوانتانامو التي

بدأت يومئذ دون أن تحدد لها نهاية أو يجري حديث حول نهايتها.

أعلن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي في 2001/12/27 أنه سيتم نقل معتقلي منظمة القاعدة وطالبان إلى "**جوانتانامو**" الواقعة جنوب شرق كوبا. ويرجع تأسيس قاعدة "**جوانتانامو**" إلى عام 1898م، بعد نزول مشاة البحرية الأمريكية في خليج "**جوانتانامو**" خلال الحرب الأمريكية الأسبانية، وتبلغ مساحتها 116 كيلو مترًا مربعًا.

وبالفعل بدأ الجيش الأمريكي في نقل المجموعة الأولى من أسرى تنظيم القاعدة وحركة طالبان إلى قاعدة "**جوانتانامو**" الكوبية، وأقلعت أول طائرة عسكرية أمريكية من مطار قندهار الخميس 10-1-2001. وفي هذه الأثناء ذكرت إذاعة "**بي بي سي**" أن منظمة "**هيومان رايتس واتش**" لحقوق الإنسان أبدت قلقها من المعاملة السيئة التي يتعرض لها معتقلو القاعدة وطالبان؛ حيث تم تكبيل أيديهم وأرجلهم بالمقاعد طوال الرحلة التي تستمر 24 ساعة، ومنحهم مواد مخدرة.[293]

كانت هذه هي البداية وهي منبئة لا شك عن المسار والمصير المنتظر لهؤلاء الأسارى، والتي وإن خرجت عن النطاق الزمني لهذا التقرير، إلا أنها تمثل التأكيد الأخير على الحقيقة التي كشفتها السطور السابقة، والتي هي مصداق القول المحكم الحكيم: "**إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون**"- الآية2/سورة الممتحنة، "**لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون**"- الآية 10/ التوبة.

ثانيًا- ترتيبات ما بعد طالبان: إعادة بناء أمة بأمر من الخارج

1- المسألة السياسية/الأمنية: مؤتمر بون والقوات الدولية

عقب الاستيلاء على كابول 11/13 كانت هناك إشارات إلى احتمال سعي رباني ومجموعته إلى الانفراد بالأمر، وفرض أنفسهم كأساس لصيغة الحل المنتظرة والاستئثار بالسلطة، تلك المخاوف التي نفخت فيها إسلام آباد ومجموعة ظاهر شاه كثيرًا، خاصة عندما منع هؤلاء الطاجيك حلفاءهم الهزارا الشيعة من دخول كابول، وأعلن رباني -الذي عاد إلى كابول السبت 11/17 بعد أن كان قد وعد الأمريكان والأمم المتحدة بعدم دخولها إلا بعد تشكيل حكومة انتقالية جديدة- اعتزامه عقد مؤتمر أفغاني موسع داخل كابول، فيما فسر على أنه محاولة لانتقاء المؤيدين والمتعاطفين معه لاختياره رئيسًا للبلاد. بدا أن روسيا وإيران تساندان هذا المسعى الأخير نسبيًا خاصة مع سباقهما لفتح سفارتيهما في كابول في هذا التوقيت قبيل باكستان التي كانت الثالثة ... هذا على الرغم من حرص وزير الخارجية عبد الله ساعتها على نفي نية فرض الحل الخاص[294].

وفي 11/14 كان مجلس الأمن قد أقر بالإجماع خطة سياسية قدمها الأخضر الإبراهيمى لتشكيل حكومة في أفغانستان بعد رحيل طالبان، قامت بصياغته فرنسا وبريطانيا، يحث الدول على "**ضمان سلامة وأمن المناطق التي لم تعد تحت سيطرة طالبان**"، وأن الأمم المتحدة يجب أن تلعب دورًا رئيسيًا في مساندة جهود الشعب الأفغاني لإقامة حكومة انتقالية جديدة ذات قاعدة عريضة، كما حدد الطريق نحو إنشاء "**قوة أمنية متعددة الجنسيات**" لحراسة المدن الكبرى. وفي المقابل جاء أول بيان رسمي من الجبهة المتحدة (التحالف الشمالي) أمام الجمعية العامة بأن حكومة رباني ستذعن لعملية تقودها الأمم المتحدة لإنشاء حكومة ديموقراطية في أفغانستان بعد طالبان[295].

وهكذا، تسارعت وتيرة الاتصالات في إسلام أباد منذ 15 /11 لتشكيل حكومة ائتلافية موسعة في العاصمة كابول في مرحلة ما بعد طالبان؛ حيث توجه فرانشيسك فندريل نائب مبعوث الأمم المتحدة إلى كابول ليلتقي مسئولي الفصائل الأفغانية لبحث صيغة تشكيل هذه الحكومة والإعداد لمؤتمر أفغاني-أفغاني تحت مظلة المنظمة، والتفاوض بشأن مكانه (الإمارات في البداية)؛ الأمر الذي ناقشه قبله جيمس دوبتر – المبعوث الأمريكي الخاص المكلف بشئون المعارضة الأفغانية- مع هذه الفصائل ومع إنعام الحق وزير الدولة الباكستاني للشئون الخارجية ..وانتهى باتفاق بين الجميع على ألا يشكل التحالف حكومة انتقالية في كابول قبل أن يتم الاتفاق بين جميع الفصائل على حكومة ذات قاعدة عريضة، وأن يتم ذلك تحت قيادة وإشراف الأمم المتحدة[296].

لم تلبث أن استقامت الأمور سريعًا حين أعلن الزعماء الشماليون موافقتهم التي بدت جدية على عقد مؤتمر دولي حول مستقبل أفغانستان في دولة محايدة، فيما ألمح المبعوث الأمريكى دوبيتر باحتمال أن يُعقد في مطلع الأسبوع القادم في بون، وقال إن قوات التحالف اتفقت مع الأمم المتحدة على المكان والتوقيت، وإن الألمان عرضوا استضافة الاجتماع بعد رفض التحالف عقده في الإمارات، الأمر الذي صادق عليه بتفصيل مطابق وزير الخارجية عبد الله، وكذلك هارون أمين ممثل التحالف الشمالي في الأمم المتحدة في تأكيد على مبدأى إشراف المنظمة، وتمثيل جميع الفصائل[297]

وأخيرًا أعلنت الخارجية الألمانية 11/20 اعتزامها استقبال مؤتمر دولى لبحث مستقبل أفغانستان السياسي دعيت إليه أربع مجموعات: مجموعة ظاهر شاه، ومجموعة التحالف الشمالي، ومجموعة بيشاور التي يرأسها بير جيلاني، ومجموعة قبرص التي يتزعمها صبغة الله مجددي ... فيما لم تبد أي دعوة وجهت إلى أي فصائل الباشتون الرئيسة في الداخل: حكمتيار أو خالص أو محمدي فضلاً طبعًا عن طالبان.[298]

وفي السابع والعشرين من نوفمبر بدأت فعاليات مؤتمر بون حول مستقبل أفغانستان بحضور 28 مندوبًا يمثلون الفئات الأفغانية المختلفة، والتي تحولت إلى مناقشة التفاصيل الخاصة بتشكيل حكومة ما بعد طالبان والدور المنتظر للملك فيها، ومسألة نشر قوة متعددة الجنسيات في أفغانستان؛ الأمر الذي رفضه التحالف الشمالي بشدة بينما أصرت عليه الأمم المتحدة.

كان ممثلو الفصائل الأفغانية الأربعة قد اتفقوا على تكوين مجلس أعلى من عشرين عضوا (أشبه بوزارة) يمثلون كل القوى السياسية في البلاد، ويتولى السلطة التشريعية والتنفيذية لمدة لا تزيد عن 6 أشهر، يختار بعدها حكومة انتقالية تلتزم بوضع دستور جديد وإجراء انتخابات عامة خلال عامين على الأكثر. وفيما اهمك المؤتمرون في اقتراح الأسماء التي ستقود المجلس، كان هناك خلاف واسع حول ترشيح ظاهر شاه لرئاسته، فيما تطرق البحث إلى نسب كل فصيل في كل واحدة من المؤسسات المزمعة إقامتها[299]

بقيت المشكلات الثلاث الكبرى معلقة مع مرور أيام المؤتمر رغم الحفز المتواصل من جانب الأمم المتحدة، الأمر الذي كاد يفجر المؤتمر في اليوم الرابع حين أعلن البشتوني الحاج عبد القدير حاكم ولاية "**ننجرهار**" جنوب شرقي البلاد ورئيس شورى الولايات الشرقية انسحابه من المحادثات احتجاجًا على عدم تمثيل البشتون بشكل مناسب في المحادثات الجارية، علمًا بأن الرجل جاء كعضو في مجموعة التحالف الشمالي واختلف مع وفده أساسًا؛

وحاول البعض التهويل من شأن هذا الانسحاب، والتحذير من بوادر مواجهة مسلحة في مناطق البشتون، فيما قلل المتحدث باسم الأمم المتحدة في المؤتمر من آثاره .

على كلٍ، فإن لمحة اعتراض أخرى تراءت في شكوى كريم خليلي –وهو أحد أعضاء وفد التحالف

الشمالي – من عدم تمثيل الهزارا الشيعة تمثيلاً كافياً؛ حيث قال: **"إن الأمم المتحدة تتحدث عن معاملة نزيهة للقبائل، لكنها هي نفسها تتخذ موقفًا قمعيًا؛ حيث إن كلاً من الأوزبك والهزارا ممثل بفرد واحد في الاجتماع".**

الخلاف الثاني أثير حول: من يقود أفغانستان في هذه المرحلة الفاصلة؟ وكان الترجيح السائد يراوح بين أنصار الملك الذين أجادوا القفز على الأحبال وتقديم بدائل متعددة تتفق جميعها في ضرورة منح الرجل دورًا: إما كرئيس للدولة، أو كرئيس للمجلس الأعلى المتفق على إقامته كبرلمان مؤقت، أو كرئيس لاجتماع اللويا جركا ... وبين رباني الذي لم يجد نفس الإصرار والحافزية لدى وفده.

الخلاف الثالث والواسع كان ذلك الخاص بمسألة وجود قوات أجنبية لحفظ الأمن والسلام في أفغانستان، الأمر الذي زاده تعقيدًا اضطراب تصريحات رباني وجنراله فهيم في حين كان الداعي إليه أثناء المؤتمر هو كريم خليلي (من التحالف الشمالي)، على أن تكون تحت مظلة الأمم المتحدة وعززه موقف مجموعة روما. وحتى أجل قصير جدًا استمر موقف رباني أن لا حاجة إلى قوة دولية في أفغانستان، غير أن الرجل سرعان ما عاد –كعادته– وأعلن عن احتمالات التراجع أو المرونة؛ الأمر الذي صرح به وزير خارجيته عبد الله حين نفى الرفض البات للمسألة، وأوضح أنه مجرد تفضيل للاعتماد على النفس. لقد كان الهاجس الأكبر المثار حول هذه القوة الدولية ينطلق من التساؤل: هل ستختص هذه القوة ومن ثم يكون بمكنتها أن تفرض قرارات المؤتمر على الأطراف التي تحاول التملص منها؟! والواقع أن هذا الاضطراب كان للاستهلاك المحلي؛ حيث جرى العمل منذ مطلع الأسبوع الأول من نوفمبر على التأسيس لهذه القوة في أفغانستان.

ففيما كان 100 جندي بريطاني ينتشرون في قاعدة باجرام الجوية شمال كابول بدعوى المشاركة في مطاردة ابن لادن وتصفية القاعدة وطالبان؛ حيث وصلوا مع مجموعة أمريكية على متن طائرات تحمل إحداها العلم الإيراني، كانت أوزباكستان تستقبل طليعة الكتيبة الفرنسية التي ينتظر أن تشارك في المهام الأمنية التي دعا إليها مجلس الأمن وشدد عليها الرئيس الأمريكي في لقائه مع نظيره الفرنسي شيراك 11/6[300].

بيد أن الأيام الأخيرة للمؤتمر انتهت إلى الاتفاق على البند الرئيسي، وهو تشكيل حكومة مؤقتة لمدة عامين تعقبها انتخابات حرة، وتشكيل برلمان متوازن التمثيل عرقيًا، وأرجئت لليوم الأخير (12/1) محادثات المهمة الصعبة الخاصة بطرح الأسماء لشغل المناصب في الحكومة الانتقالية التي سيقتسمها التحالف الشمالي مع أفغان المنفى[301].

وهكذا لم يكن ثمة مبدأ حاكم سوى رغبة الجمع؛ الجمع على غير كلمة سواء، اللهم إلا اعتبارات الأساس العرقي ومراعاة الغايات الغربية التي بدت الولايات المتحدة الراسم الأوحد لها، فيما يقوم الاتحاد الأوربي كلاً وفرادى والأمم المتحدة بالوقوف على تنفيذها، علاوة على مراعاة التمثيل الضمني الصامت لتوجهات الجوار الأفغاني الفاعل سيما الروسي والباكستاني. بيد أن اللافت للنظر أن الكفة الجوارية كانت لصالح الغريم الإيراني الشيعي الذي بدا أنصاره مسيطرين على مجموعة قبرص (همايون جرير)، ومنبثّين في وفدي التحالف الشمالي (كريم خليلي)، وبيشاور(حفيظ الله آصف محسني)، في حين فقدت باكستان الطرف الذي يمكن أن يحمل صفة الحليف، اللهم إلا بعض وعود من الجميع ألا يتم تجاهل إسلام آباد وأن تكون هناك مساحة للتفاهم والصداقة معها.

الشيء الذي يعنينا ويتماشى مع الإطار التحليلي لهذا التقرير هو مبحث المنطلقات والسمات الفكرية التي أقرها أو قرَّرها مؤتمر بون صراحة أو ضمنًا؛ فمما لا شك فيه أن الأسس الفكرية التي ينتظر أن تبث في الدستور المزمع العمل فيه من بعد هي التي تبقى فاعلة وسارية في كيان وآليات عمل الدولة عبر مسيرتها. ومن ثم يمكن إيراد الملاحظات الأولية التالية التي قد تمثل بدورها أساسًا لرؤية بعض جوانب المستقبل الأفغاني واحتمالات تطوره، وذلك بشكل شديد العمومية:

- يلاحظ أولاً أنه جرى إغفال متعمد لهذا الشأن على الرغم من خطورته، وعلى الرغم من كونه محكًا للاختلاف والاتفاق المستقبلي، ويتعلق بالمرجعية المردود إليها عند التنازع. قد يرى البعض أن ذلك كان مناسبًا أمام إرادة الجميع؛ إذ الظروف الحالية تستدعي الردم على كل الخلافات الجذرية والالتفات فقط نحو القضية الأوْلى بالطرح: الأمن والسلام. غير أنه كان يمكن هضم هذا المنطق لو أن المؤتمر حدد مجال فعله في اللحظة الراهنة بغية التحضير للمنطلق الفعلي للمستقبل الأفغاني. وعليه فإنه لا يتسنى تفسير هذا السكوت عن الجملة الأساس في ناتج المؤتمر- وفي ضوء ما صُرِّح به من منطلقات غربية بالأساس- إلا بالرغبة في تغليب اتجاه قد يصعب التصريح به ساعتئذ، أو أن الأفضل هو تركه يسري دون الإشارة إليه، كما تجدر الإشارة إلى أن هذا السكوت إن كان يمكن تمريره اليوم والإغضاء عنه تحت عصف الأحداث الملتهبة؛ فإن الدراية البسيطة بهذا المجتمع الأفغاني المُسَيَّس -ربما أكثر من الكثير من المجتمعات الغربية بل والمُعَسْكَر والذي تتعدد فيه الاتجاهات، سيما بين طرفي الديني والعلماني- هذا السكوت ينبئ عن مخاطر يصعب تقديرها.

- من الواضح كذلك أن هذا المؤتمر وبناء على الدور الأساسي الذي لعبته الأمم المتحدة خلاله قد رجح كفة طرف لا يمكن تبينه في فصيل محدد، إنما هو منساح ومتقاطع بين أغلب المجتمعين، والذي يمكن في هذا الإطار تبين معالم توجهه السياسي في: الميل إلى تنحية الشرعية الدينية -التي قامت على تكريسها طالبان، ومن قبلها أغلب جماعات المجاهدين خلال الثمانينيات- جانبًا، والميل إلى التوجه الذرائعي الذي يُعلي من قيمة النظر الشخصي في تقدير المصالح، والميل إلى كسب الخارج في جانبه وعدم الاصطدام به سيما الخارج الغربي (13 من وزراء قرضاي يحملون الجنسية الأمريكية)، والميل نحو الاعتماد على أوراق لعب تضمن البقاء، سيما السند القبلي العرقي. وهي الخصائص التي يفضي تحليلها والوقوف على امتداداتها المعنوية والموضوعية، إلى تبين بعض ملامح القيادة الأفغانية في المرحلة القريبة التالية.

- هذه السمات من ناحية أخرى والتي تفضي تلقائياً إلى احتمالات الاعتماد على القوة الدولية في الحفاظ على البقاء والأداء، وإلى السعي إلى تركيب دولة على النمط التحديثي الغربي ومؤسساته، وبما يضاف إليه من تعديلات مجتمعية خاصة بالتعليم والإعلام والمرأة والطفل وغيرها، مفروضة صراحة ومشترطة للبدء والاستمرار في العملية الدولية المسماة "**إعادة إعمار أفغانستان**"...هذه النضوحات الضرورية يمكن الانطلاق في أحلام تحقيقها السلمي والهادئ حال إغفال البعد الأهم المتمثل في طبيعة الثقافة الشعبية للمجتمع الأفغاني، التي تميل إلى التحفظ والحفاظ على تقاليد مختلطة غالباً بما هو ديني مقدس. هل سيتخلى المجتمع الأفغاني بسهولة عما عبر عنه البعض بـ"**عُقده الثقافية**"، فيما بادر بعض آخر وبشَّر بوقوعه لمجرد أن رباني ورجاله وافقوا على التواجد الأجنبي في كابول؟ وهل هذا الشعب الذي مد يد الحاجة إلى الأمريكان لتعاطي الغذاء والدواء مستعد للخضوع لأوامر القوات الأجنبية في الداخل طويلاً؟! وبالمرة هل سيتجاوب هذا

المجتمع مع دعوات السفور والمشاركة النسائية والاختلاط في العمل والتعليم وخلافه؟ هذا ما سوف تسفر عنه الأيام القريبة القادمة.

2.المسألة الاجتماعية الثقافية: الشعب والمرأة وإعادة الإعمار

كانت الفقرة الشعبية إحدى المكونات الأساسية لمشهد التداعي الطالباني؛ حيث حرصت الدعاية الغربية على إبراز بعض الصور التي تبدي وكأن قطاعًا عريضًا من الشعب الأفغاني قد انطلق لتوّه من الأسر الطالباني؛ ليهرول الشباب إلى دور السينما، وإلى حلق اللحى ويعبر الحلاقون عن امتنانهم للأمريكان، وتنطلق جموع لارتياد المزارات والأضرحة التي طال وصدها، وتترع مجموعة من النساء الحجاب معلنات أنهن اليوم أتيحت لهن فرصة تنسُّم عبير الحرية.. وتتوارد صور المحلات الجديدة التي تبيع أجهزة التلفاز وتعرض شرائط الفيديو والكاسيت وصور الممثلات الهنديات والأمريكيات، بل ويتراقص جمع من الأفغان على أنغام الموسيقى التي سبق أن حرمتهم منها طالبان. ومنذ سيطرة التحالف الشمالي على كابول كان هناك سباق مع الزمن على حد تعبير وكالة رويتر لتشغيل إرسال تليفزيون كابول، وعاد مقدمو البرامج إلى العمل، وبينهم المذيعة التي وصفتها الوكالة بالمحنكة ليدا عظيمي، وعرضت رويتر صورة لفتاة تدعى مريم شاكيبار(16 عاماً) تقدم أول بث مساء 11/18 وقد قدمت مذيعتان آخر الأنباء في راديو أفغانستان لأول مرة منذ خمس سنوات[302]

كان هذا تعبيرًا إعلاميًا لِما تعد له الحكومات والمؤسسات الغربية باسم إعادة بناء أفغانستان؛ ففي واشنطن 11/19 عقد اجتماع لوضع خطة للبدء في إعادة إعمار أفغانستان ترأسته الولايات المتحدة واليابان، وحضره مندوبو 12 دولة غنية أخرى وعدد من المؤسسات(البنك الدولي، بنك التنمية الإسلامي، الاتحاد الأوروبي)و في افتتاحه أعلن كولن باول أنه سيتم تشكيل "**مجموعة قيادة**" لتقدير وتقويم حاجات أفغانستان، ووضع خطة تؤكد التزام دول التحالف الدولي بالعمل للمساعدة في بناء أفغانستان لم ينس باول أن يرسم مدرجاته المنطقية المعهودة: إن عملية إعادة الإعمار لن تتم دون الشريك الأفغاني، والذي لن يتواجد إلا في صورة حكومة موسعة ذات قاعدة عريضة، والتي لا تتحقق بدورها بغير دور للنساء: "**إن هذه الجهود للبناء والإعمار يجب أن تضمن مشاركة ودورًا للمرأة في التخطيط لذلك البلد**"[303].

وهكذا، طرحت الأطراف الغربية ضمن مسألة ما بعد طالبان –بقوة وصراحة بالغتين– قضية المرأة الأفغانية سيما من جهة ضرورة مشاركتها في الحكومة الائتلافية المرتقبة؛ حيث أكد الرئيس رباني أن "**النساء يجب أن يتمتعن بحق التصويت في الانتخابات العامة المقبلة في أفغانستان**"، وقال في رسالة موجهة إلى مؤتمر حول النساء الأفغانيات عُقد 11/15 في السفارة الإيرانية(!) في طشقند:" **بعد طرد طالبان ستعاد حقوق النساء بحيث سيتمتعن بحق العمل وحق التصويت**". الطريف أن ذلك جاء تزامنًا مع عقد ما عرف بالقمة الاستثنائية للمرأة العربية في القاهرة يومي12 و 13 /11، بمشاركة 21 دولة وإقراره إنشاء "**منظمة المرأة العربية**"، والتي أقر مجلس الجامعة العربية مشروع إنشائها([304])، ويكأن مناقشة ومعالجة قضية المرأة المسلمة ومشاركتها في الأمر العام صارت فرض الوقت العيني الذي يجب أن تتوقف عليه كافة الجهود!

تلا ذلك زخم أمريكي وغربي ضخم حول المرأة الأفغانية؛ فصدر تقرير عن الخارجية الأمريكية يدعو هذه المرأة أن تحدد بنفسها دورها في الحكومة الجديدة؛ موضحًا أن المرأة ضمن المجتمع الأفغاني كانت ضحية القمع الطالباني في حرمانها من التعليم والتأمين والرعاية الصحية أو حتى إمكانية تحركها بحرية في الطرق العامة "**وهو ما لا يتفق مع الشريعة الإسلامية**". وأورد التقرير واقعة جلد امرأة أفغانية

مائة جلدة في مكان عام أمام مرأى ومسمع من "**ملايين**"(!!) الأشخاص بعد أن شوهدت في الطريق بصحبة رجل غريب عنها، ولا يمت لها بصلة قرابة" **وغير ذلك من الروايات التي لم تؤكدها مصادر أخرى**".[305]

ومن ناحية أخرى خصصت لورا بوش الخطاب الأسبوعي للبيت الأبيض – الذي كان قاصرًا على زوجها – لمهاجمة سياسات طالبان القاسية ضد المرأة..."**التي تعاقب المرأة على الضحك بصوت عال**"، ذات الأمر الذي فعلته شيري بلير قرينة رئيس الوزراء البريطاني في مؤتمر صحفي في مقر رئاسة الوزراء 11/19 حضرته مجموعة عُرِّفن كلاجئات أفغانيات؛ حيث تكرر التأكيد على أن برنامج التنمية الأفغاني سيستمر أكثر من 20سنة، وأن تعليم المرأة وإشراكها في الحياة الأفغانية "**واحد من شروط التسوية السياسية ستفرضه الأمم المتحدة**"[306]، ثم تتابعت تصريحات كولن باول وكوندوليزا رايس على تأكيد هذا الأمر والتحريض عليه؛ كقول باول:

"**إذا كان القادة الأفغان يرغبون في تشكيل حكومة ذات صفة تمثيلية، تعكس تطلعات الشعب الأفغاني بكامله عليهم إشراك نساء في هذه الهيئة السياسية**"[307]

وفي العشرين من نوفمبر احتشدت نحو 200 امرأة أفغانية في أحد أحياء كابول من دون حجاب للمطالبة بحقهن في العمل والتربية، بيد أن الصحيفة التي عنونت لذلك بـ" **تظاهرة نزع حجاب في كابول**" أضافت أن معظم الأفغانيات في كابول(!) لا زلن محجبات ، وأن عددًا محدودًا منهن هن اللاتي استأنفن العمل في الأيام الماضية خصوصاً في المنظمات الإنسانية.[308]

هكذا انتبهت السياسات الخارجية الأمريكية والغربية فجأة إلى أن هناك وراء جبال هندكوش الجرداء نساء تعانين –مثل رجالهن وأبنائهن وإخوانهن- الجوع والخوف، وأن الشيء الذي سيطعمهن من جوع ويؤمنهن من خوف هو مشاركتهن في الأمر العام وخروجهن أي خروج. بيد أن اللافت للنظر هو درجة قابلية المسلمين والمسلمات لمثل هذه التدخلات في شأن هو من صميم شئون الشريعة! إن الدرجتين العاليتين اللتين بدت عليهما المشروطيات الغربية الصفيقة والقابلية أو الخضوعية الإسلامية لها تنذران بأننا على أعتاب صفحة أكثر شراسة من صفحات العولمة الطاغية الشاملة. إن اختيار الغرب للمرأة كمدخل وشرط لإعادة البناء في الأمة علاوة على الموازاة لموضوع التعليم والخطاب الدينيين ليس إلا بداية مسيرة يزمع الغرب فيها قلب الأسس التي تنهض عليها بقايا أمة الإسلام.

ثالثًا– المنطقة بعد طالبان: أي التحالفات تبقى أو تسود؟

قبيل الحادي عشر من سبتمبر2001 كان هناك على هذه الساحة تحالفان رئيسان: تحالف الشمال الأفغاني، وتحالف شنغهاي-موسكو المشار إليه سلفًا. وعقب هذا اليوم ظلَّل ما عُرِّف بالتحالف الدولي ضد الإرهاب هذين التحالفين؛ إذ اتفق الثلاثة وقتيًا على مواجهة عدو مشترك انتهى إلى تعيينه في طالبان والقاعدة، وهاهي طالبان قد غادرت موقعها .. فما الجديد على حال التحالفين الأولين وأطرافهما؟

لا شك أن ترتيبات مؤتمر بون تمكنت –من حيث تقصد أو لا تقصد- من إذابة التحالف الشمالي الأفغاني، وإرسال قياداته القديمة التي آثرت مطاوعة الأمريكان إلى ظل لا ظليل انتهى بتراجع رباني، وتسليمه قصر الحكم في كابول لحامد قرضاي، الذي تسلم مهام منصبه كرئيس للحكومة الانتقالية 12/22 .

وعلى الناحية الأخرى فقد أظهرت الأحداث الأخيرة نتيجة في غاية الأهمية فيما يخص الجوار الأفغاني. إن دخول الولايات المتحدة على نفس خط شنغهاي– موسكو

من خلال تحالفها الأكبر والأشمل، كان بمثابة إزاحة كاسحة لهذا الجهد الإقليمي السابق وإعطاء الأولوية لأن تتعامل دول الجوار هذه مع الولايات المتحدة فرادى، وأن تغض الطرف ولو مؤقتًا عن قواعدها الخاصة في إدارة اللعبة؛ الأمر الذي يعني ضرورة الوعي بالأثر الخاص الذي يلعبه تدخل القوى العظمى في الصراعات الدائرة على حواف الأمة وفي قلبها.

وعلى الرغم من التحزب الكامل وراء المساعي الأمريكية حتى التقهقر الطالباني؛ فإن بوادر الارتياب والخلاف تجاه الولايات المتحدة وما بعد طالبان ظهرت في الأفق ،علاوة على عودة الخلافات الإقليمية بناء على حساباتها الأساسية المختلفة.

ثلاث مسائل كبرى وقفت إزاءها مجموعات دول الجوار حائرة بين المعالجة المضطربة وبين اللاحراك؛ ففيما يتعلق بـ"**أفغانستان ما بعد طالبان**" بدا التدخل من جانب كل من روسيا وباكستان وإيران قلقًا ومشدودًا بين النظر في العيون الأمريكية، وبين المراهنات على الداخل الأفغاني المتشرذم، وبين مساعي إرضاء الرأي العام الداخلي بكل من هذه الدول الثلاث؛ فعلى النقيض من الموقف الباكستاني، وقفت روسيا وإيران بشكل سافر وراء قوات تحالف الشمال الأفغاني، وحيَّت الدولتان دخول هذه القوات المبكر إلى كابول. كانت إيران هي الأكثر حركة والأكثر حرصًا في حركتها بغية حجز موطئ قدم لشيعتها من الهزارا في المستقبل المترائي لأفغانستان.

وفي هذا فقد وُجه الموقف الروسي المتردد بتجاوز غربي آل به إلى مزيد من الاضطراب الظاهر؛ فعقب تأكيد موسكو على تأييدها لحكومة رباني كأساس جيد لإيجاد موقف موحد في أفغانستان، عاد وزير الخارجية الروسي ليؤكد أن بلده تعمل بالتعاون مع الأمم المتحدة، ولا تسعى لأن تكون في كابول حكومة تقوم على طرف واحد[309].

ومن ناحية أخرى، فإن إسلام أباد ألفت نفسها في هذه الفترة مضطرة للدفاع عما اقترفت وعما لم تقترف؛ فاستغرقت في الدفاع عن مآلات موقفها، سيما فيما يتعلق بصياغة المستقبل الأفغاني ودورها، فيه والعمل تحت مظلة الأمم المتحدة، خاصة مع الإشارة إلى التداخل وربما التضارب بين الخطة الباكستانية–السعودية، وبين خطة الأمم المتحدة التي عرضها الإبراهيمي وصدر بها قرار مجلس الأمن. وتوالت مطالبات باكستان المستمرة بضرورة كبح جماح تحالف الشمال المعروف بعدم ميله إليها... علاوة على اجتهادها في نفي العديد من الاتهامات المتوالية الموجَّهة إليها من وجود قوات أو خبراء عسكريين باكستانيين إلى جوار طالبان، ونفي أنباء ترددت عن فرار الملا عمر وابن لادن عبر الحدود الباكستانية، والتأكيد على إغلاق الحدود والتحكم بها سواء لمنع تدفق اللاجئين أو تسلل الهاربين[310].

وعليه، أعلنت الخارجية الباكستانية في11/20 إغلاق آخر قنصليتين لطالبان في أراضيها (في بيشاور وكويتا)، وإن تركت سفارة طالبان في إسلام أباد مفتوحة مؤقتًا؛ وذلك بعد أن أعلن وزير خارجية باكستان عبد الستار عزيز 11/19 أن بلاده لم تعد تعترف بحكومة طالبان[311].

ومما هو جدير بالذكر أن أغلب الفرقاء الذين طمعوا في الجائزة الأمريكية بعد النصر قد شعروا بخيبة الأمل إزاء الإعراض الغربي عن مؤازرتهم في مواقفهم الخاصة بهم. غير أن علامات اليأس من هذه المؤازرة لم ترتسم كاملة، تحديداً فيما يتعلق بالشيشان وتركستان الشرقية، وكذلك ما يتعلق بالموقف الباكستاني ومستجداته في كشمير التي كانت كفة الهند تزداد رجاحة فيها. لم يمنع هذا الإعراض الأمريكي عن التأييد الرسمي لهذه الدول أن تمضي ذاتيًا في معاركها الخاصة ضد المسلمين؛ فعادت المواجهة في الشيشان للتوقد، فيما راحت الهند تعد العدة

لتصفية الوجود الجهادي في كشمير، وتصدر التشريعات من قبيل قانون **P.O.T.O** الذي انصب على مطاردة المسلمين، وتقييد تحركاتهم بدعوى الإرهاب[312].

المسألة الثانية كانت مسألة التواجد العسكري الأمريكي في المنطقة الذي حظي بالنصيب الأكبر من اهتمام المراقبين لمرحلة ما بعد طالبان؛ فلم تخفِ الصين على وجه التحديد ارتيابها، ودعت بأساليب مختلفة إلى أفضلية – وليس وجوبية– إنهائه لانقضاء مهمته المعلنة؛ الأمر الذي قابلته واشنطن بمزيج من التحايل واللامبالاة[313].

وعلى الجانب الآخر، برزت الهند وجمهوريات آسيا الوسطى في جانب الرضا والسعي للاستفادة من هذا التواجد وضغوطه على القوى المناوئة. ذلك في حين وجهت وكالة "**إيتار تاس**" الحكومية انتقادات واسعة إلى القيادة الروسية بسبب ما وصف بمماألتها للولايات المتحدة بما آل إلى تعزيز الوجود الأمريكي في آسيا الوسطى وطاجيكستان: "**إنه فشل ذريع للقيادة الروسية... إنها اختارت أن تسير في صورة سلبية في ركاب الاستراتيجية الأمريكية**"[314].

وهكذا تضافرت هاتان المسألتان الأوليان في توجيه الثالثة: نحو المزيد من التضييق والملاحقة للإسلاميين في هذه المنطقة وفيما حولها. فلم تكد تهدأ الأنفاس من المعركة الأفغانية حتى استدار نظام الجنرال مشرف في خط شديد الحدة يرمي صراحة إلى تنظيف البيت من بقايا أو علائق طالبان والقاعدة الممتدة في باكستان، في عمليات متوازية من اعتقال القادة، وتحجيم دور ومساحة المدارس الدينية الأهلية وحظر العديد من الأنشطة المتعلقة بنصرة المجاهدين في كشمير ومناطق الزخم الإسلامي القريبة.

وفي مبتدأ هذا اعتقلت السلطات الباكستانية شمال غربي البلاد رئيس حركة "**نفاذ الشريعة**" (ربما الترجمة الأصح: تطبيق الشريعة) مولانا صوفي محمد المؤيد لحركة طالبان لدى عودته من أفغانستان 11/18 بعد أن كان قد قاد آلاف المتطوعين من رجال القبائل الباكستانية إلى أفغانستان للانضمام إلى طالبان في حربها، والذين بدأوا العودة إلى وطنهم عقب التداعي على رواية فضل الله ابن الزعيم المعتقل[315].

وبالمثل استقبلت أوزباكستان وطاجيكستان وقيرغيزيا بالبِشر النبأ الذي أكده عبد الرشيد دوستم (1/19) حول مصرع جمعة نمنجاني (37 سنة)– قائد الإسلاميين الأوزبكيين المتحالفين مع طالبان– وأربعة وعشرين من رجاله في قندوز إبان حصارها. كان نمنجاني قد شارك في الحرب الأهلية في طاجيكستان إلى جانب الإسلاميين علاوة على عدد من العمليات في وادي فرغانة ضد أنظمة الحكم بالمنطقة[316].

وهكذا اتفق الجوار الأفغاني على عدم تكدير الانتشاء الأمريكي والغربي بالانتصار، وترك مهمة ترتيب البيت الأفغاني الجديد كغنيمة خاصة بالزعيم المنتصر، وكتم الهواجس التي ينذر بها التواجد الأمريكي الاستراتيجي الجديد في المنطقة، بل والسعي لتوظيف هذا النصر والتواجد لصالح المزيد من استئصال الظاهرة الأصولية، الأمر الذي يطرح التساؤل حول مدى إدراك أسامة بن لادن ومَن حوله لحقائق التفاعل الدولي هذه، حين فتح الجبهات كلها على مصاريعها، وحين خص الولايات المتحدة بالقدر الأكبر من المحاربة والاستعداء!!

وأخيرًا، فإنه بناءً على ما تمخض عنه مؤتمر بون، وما أسفرت عنه بوادر عملية إعادة البناء هذه، وعلى ضوء الثوابت والمتغيرات الأفغانية المحلية والإقليمية والدولية الأخيرة، يمكن أن نؤشر بإيجاز على بعض دلالات ممتدة لهذه الفترة على النحو التالي:

أ. **على المستوى الأفغاني** ثمة حالة من القلق السياسي والعسكري والمجتمعي يُنتظر أن تظل مسيطرة على المسيرة القريبة للوضع المنبثق عن الحرب ومؤتمر بون، تستبقي

الجميع دائمًا في حالة توجس وانتظار لما يمكن أن يقطع الوتيرة، الأمر الذي يغري الكثيرين من الخاسرين في هذه المعادلة بإحداث هذا القطع، وفي ذات الوقت يسهم في إعاقة الحكومة الراهنة عن الأداء وفق قناعاتها المجرَّدة لتجد نفسها أسيرة توازنات عديدة قد تؤول بها إلى الجمود والتصلب...الأمر الذي يفتح بدوره المجال أمام احتمالات قوية للتحريك من الخارج وتحت مظلته.

ب. **وعلى المستوى الإقليمي**، فإنه ربما كانت الحقيقة الكبيرة الباقية تتمثل في وقوع الأمر الذي عدَّه الكثيرون بمثابة المحظور الأكبر، والعقبة الإقليمية الكئود أمام التحالف ذي القيادة الأمريكية: انتشار القواعد العسكرية الأمريكية في آسيا الوسطى ملاصقة لدول الجوار الأفغاني الكبرى. لا شك أن هذا يعد لغمًا قابلاً للانفجار مستقبلاً إذا ما اختلت الخطوات الأمريكية تجاه روسيا أو الصين أو الهند، أو غيرها من القوى الإقليمية التي لا يمكن التأكيد على قناعاتها بأفضلية استمرار هذا الاقتراب الأمريكي المثير للقلق والمخاوف. كما أن العلاقات الإقليمية في هذه المنطقة قد تبقى بدرجة ما رهينة التفاعلات الثنائية مع الغريم الأمريكي، ومتأثرة بشكل أو بآخر بالمسار المرتقب للأصوليين الإسلاميين، بعد اكتمال عملية انسحابهم من الموقعة الطالبانية.

ج. وأخيرًا، فكما أنه يصعب تحرير القول حاليًا في انعكاسات هذه الأحداث والسياسات **على المنظومة العالمية**، فإنه لا يتيسر أيضاً التفصيل في تبين **الموقف الكلي للأمة الإسلامية** ككيان حضاري متميز نوعيًا، ومن ثم يمكن إيجاز الأفكار الأساسية في ذلك في حقائق ترتبط عادة بالأقدار المتجددة أو المستجدة، والتي يمكن رصد أهم ملامحها على النحو التالي:

- إن الإضافة القدرية الرئيسة التي راكمت -كامتداد منطقي- على عمليات الانفعال القريبة والتفاعل النفسي للأمة تتمثل في تأكيد -وزيادة كشف- حقائق التداعي ومواطن الوهن، سيما مع تزامن وتوالي الهمِّ الأممي في كل بقاع الأمة المسلمة، ونقل الصورة الحيَّة لذلك عالميًا، وتوكيد حالة المطاردة العالمية للمسلمين في الغرب والشرق بدعوى العلاقة مع ما عُرِّف أمريكيًا بالإرهاب.

لا خلاف على أن أثر هذه الإضافة لن يكون واحدًا، وليس من اليسير رسم دالة معبِّرة عن مجمله، بيد أن الشيء الذي يلفت الأكثرون النظر إليه هو انعكاس هذه الإضافة الكاشفة على تيارات ما يُعرف بالحركة الإسلامية وتزايد احتمالات التحول فيها إلى خط المواجهة مع الداخل من جهة، ومع الولايات المتحدة والتحالف الذي تقوده من الجهة الأخرى.

- وبالمثل أزهقت هذه الأحداث العديد من بقايا أفكار الاستقلال السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي لأقطار الأمة، وإمكانية أن يستند الفرد أو الجماعة على أنظمتها في الدفاع الدبلوماسي أو غيره عن حقوقهم كأفراد أو مواطنين في ذمة هذه الأنظمة..بما تضافرت على تأكيده الخطوات الغربية في الفترة التالية لـ 9/11، ثم ردود الفعل المحسوبة على العالم الرسمي للمسلمين، ثم مذابح شمال أفغانستان ومخزاة جوانتانامو الممتدة، والملاحقات البوليسية والاعتداءات الغربية على العرب والمسلمين أفرادًا وجماعاتٍ ومؤسسات، فيما يعني ترسيخ حالة الشرذمة داخل الأمة وفروعها، وحالة التبرؤ المضاد (تبرؤ الأفراد من الدول ومن الأمة نفسها)، وتوابع ذلك كله، بما يختلف المتفائلون والمتشائمون حول ما وراء مداه القريب.

- وختامًا، فقد تفتق عن هذه العصفة التاريخية أمارات شعور أو وعي أممي عام بخطر محدِّق، تطاول حتى تصوَّب تجاه "**البقية الباقية**" من ذاتية وكيان هذه الأمة، ألا وهي دينها وتمسكها بأصوله، هذا التمسك الذي

أضحى –بدوره– على المحكّ في العلاقة بين عالم الإسلام وعوالم الغرب والشرق، فيما عبَّر عنه البعض من قبل بالصراع بين الحضارات، وفيما يمكن الإقدام اليوم على تعريفه بـ "**الحرب العالمية على الإسلام غير أو ضد الغربيِّ**" تحت العنوان الصريح الذي صرح به الرئيس الأمريكي أمام ملئه وفي وجه كل البشر: "**إما أن تكونوا معنا وإما أن تكونوا مع الإرهاب**". ولا تزال عمليات التوليد والإضافة والإزاحة في قضايا ومكونات الأمة تترى بغير ما انقطاع في تربُّص عام من الكافة، وكما قال الرب –تبارك وتعالى–: **[قل كلٌ متربصٌ فتربّصوا، فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى]** –الآية 135/سورة طه.

الهوامش:

1. هناك مراجع ومصادر كثيرة يمكن الرجوع إليها في تعريف هذا الكيان، انظر عصام دراز، العائدون من أفغانستان: مالهم.. وما عليهم (القاهرة، الدار المصرية للنشر والتوزيع، ط1413،1هـ=1993م).

– وانظر: حامد عبد الماجد: الأفغان العرب..محاولة للتعريف: أسباب نشأة الأفغان العرب في:

http://www.islamonline.net/arabic/famous/2001/10/article2-a.shtml

– معتز محمد سلامة، انعكاسات الصراع الأفغاني على دول الجوار (1992–1997) في: إبراهيم عرفات (محرر)، القضية الأفغانية وانعكاساتها الإقليمية والدولية (القاهرة: مركز الدراسات الآسيوية بكلية الاقتصاد–جامعة القاهرة،1999).

2. حول الأصولية والأصوليين في الغرب انظر:
   - برنارد لويس وإدوارد سعيد، الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية (دار الجيل، بيروت، ط1، 1414هـ=1994م) وهو كتاب يشتمل على مقال للأول وثلاثة للأخير تجلي مدى المنابذة للإسلاميين بهذا الاسم، الأمر الذي لم يسلم منه مَن يُعرفون بالمعتدلين، حتى من وفق منهم لاعتناق الإسلام وحول هذا انظر أيضًا:
   - محمد عمارة، الأصولية بين الغرب والإسلام (القاهرة، دار الشروق،ط1418،1هـ=1998م)؛ حيث يقدم تعريفاً للمفهوم في الاصطلاح الغربي "**وبالمفهوم النصراني**"، ص ص5–7 ثم يعقد ثلاثة فصول أخرى يفند فيها كتاب "**الأصوليات المعاصرة: أسبابها ومظاهرها**" للفيلسوف الفرنسي المسلم روجيه جارودي. وإذا كانت هذه المصادر تعبر عن رؤى غربية "**فكرية**" فإن ريتشارد نيكسون الرئيس الأمريكي الأسبق تميز بإبراز الجانب السياسي **المراسي** لهذا الإدراك سيما من خلال كتابة Seize the Chance ومن خلال:
   - ريتشارد نيكسون (إعداد وتقديم المشير عبد الحليم أبو غزالة):1999 نصر بلا حرب (القاهرة؛ مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1412،3هـ=1991م) ص ص284 وما بعدها، 307–309

3. ميشيل نوفل، "**اللعبة الكبرى**" في آسيا الوسطى: الأزمة الأفغانية والاستقطاب الجديد، شئون الأوسط، ع75 (بيروت، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق،سبتمبر 1998) ص ص7–15، وانظر:

– ماجدة صالح، الصعود السياسي لطالبان؛ (في): إبراهيم عرفات (محرر)، القضية الأفغانية..، مصدر سابق، ص ص102–115.

4. شيرين حامد فهمي، من هم طالبان؟ (إسلام أون لاين 2001/9/20):

http://www.islamonline.net/arabic/politics/2001/09/article25.shtml.p1of9

5. المصدر السابق، ص ص2–5

6. نفسه، ص ص3–5 وانظر بديعة محمد عبد العال حمودة، الطالبان والحكومة الجديدة في أفغانستان، شئون الشرق الأوسط، ع1، (القاهرة، مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس،2002)، ص ص28–30.

7. تعددت المقالات ذات التوجه العلماني التي قدمت طالبان بهذه الصورة ومن أهمها: عبده مباشر، أمير المؤمنين الأفغاني، الأهرام 2001/3/25، وفيه يصف الملا عمر بـ(الفرد المطلق السلطان وصاحب الأمر والنهي، الذي لا راد لأوامره

باعتباره أميراً للمؤمنين يحكم بمقتضى فهمه المحدود للإسلام... {و}... رسول الإرادة الإلهية وحامي حمى الدين) وكرره في مقال آخر:

- عبده مباشر، طالبان ..والوفد الإسلامي، الأهرام 2001/5/5. وانظر وتابع:
- أحمد عبد المعطي حجازي، الطالبان يقلدون الأمريكان؟ الأهرام 2001/3/28
- أحمد عبد المعطي حجازي، هادم البشر يهدم الحجر! الأهرام 2001/3/21 وفيه يقول:

"خلط الدين بالسياسة خطر ماحق وشر مستطير، لأنه تشويه للدين والسياسة معاً"... "ولقد تعلمنا من القرآن الكريم أنه لا إكراه في الـــدين، فكـــل سلطة تقوم باسم الدين سلطة طاغية باغية، ونحـــن نخضع للسلطة لكن بشرط أن تكون سلطة مدنيـــة ترعى شئوننا الدنيوية وتلبي مطالبنا المادية، وتترك لنا تدبير أمورنا الدينية التي لابد أن نكون فيهـــا أحراراً". وانظر رؤية مغايرة:

- محمد إبراهيم مبروك، الإسلام والغرب الأمريكي بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار (نظرية في دوافع الصدام واحتمالات المستقبل)، القاهرة، مركز الحضارة العربية، 2002، ص ص 310-315.

8. شيرين حامد فهمي، مصدر سابق، ص ص4-6. وانظر:
   - شهادة على تجربة طالبان..حوار مع فضيلة **الشيخ غلام الله رحمتي**، البيان، ع: 170، شوال 1422هـ= يناير2002، ص ص87-93.

وكذلك: حبيب الله فوزي (سكرتير أول السفارة الأفغانية في باكستان قبل انهيار طالبان): (رسالتنا للعالم: ارفعوا أيديكم عن أفغانستان) حيث يقول: "فقط هناك بعض الدعايات الغربية تقول إن طالبان ترفض تعليم النساء، وأن المرأة الأفغانية لا تأخذ حقوقها، ولكننا في الحقيقة نطبق تعاليم الإسلام ونعترف بتعليم المرأة. ولو ذهبت إلى كابول لوجدت أعداداً **"كثيرة"** من البنات يدرسن في القسم **الصحي** وكلية **الطب**. كما أنه يُسمح لهن بالعمل في **المستشفيات** الكبيرة". الوطن العربي، العدد1209، الجمعة 2000/5/5، ص ص28-29.

وراجع وجهة النظر المقابلة في مقالات: إقبال بركة: الطالبان ليسوا أفغانستان، الأهرام 2001/9/26، وعبده مباشر: النموذج الطالباني، الأهرام 2001/4/8، طالبان والوفد الإسلامي، الأهرام 2001/5/5، أمير المؤمنين الأفغاني، 2001/3/25، طالبان والصواب...وثقافة الخرافة، الأهرام 2001/4/22. وأحمد عبد المعطي حجازي، الطالبان يقلدون الأمريكان، الأهرام 2001/3/28، هادم البشر يهدم الحجر، الأهرام 2001/3/21.

وانظر رؤية غربية لممارسات طالبان: بول فندلي، "لا سكوت بعد اليوم: مواجهة الصور المزيفة عن الإسلام في أمريكا" عرض الكتاب، جريدة الحياة، 2001/9/10، الحلقة السادسة: (طالبان لا تمثل النموذج الإسلامي للحكمة).

9. نيفين عبد المنعم مسعد وعبد العاطي محمد أحمد، السياسات الخارجية للحركات الإسلامية، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية،2000)، ص224. وانظر:
   - حامد عبد الماجد، أسباب نشأة الأفغان العرب: الأفغان العرب..محاولة للتعريف، مصدر سابق، ص6-8.
   - مصباح الله عبد الباقي، تحالف الشمال..طائر بخمسة أجنحة!! 2001/12/11 في:
     http://www.islamonline.net/arabic/famons/2001/12/article3.shtml
10. قنبلة باكستان الجديدة: ترحيل الأفغان العرب.. الدوافع..الأهداف..النتائج، الوطن العربي، ع25، 2000/8/1225.
11. يردد الفريقان هذه المقولات حتى في خضم محاولات المصالحة بينهما، راجع: الأهرام 1999/3/16، الشرق الأوسط 2001/2/13
12. ذلك الأمر الذي اتفق عليه الجميع، وانظر في ذلك:
   - حبيب الله فوزي، مصدر سابق.
   - قلب الدين حكمتيار: طالبان خانت أمريكا..وبن لادن مجرد ذريعة، الأهرام1998/11/21.
   - الأخضر الإبراهيمي: طالبان وإيران وباكستان مسئولة عن استمرار الحرب في أفغانستان، الحياة،1999/10/20.
   - عنان يتهم جيران أفغانستان بالتدخل في شئونها الداخلية، الأهرام 1998/5/4.
13. الحياة 1999/5/17.
14. الشرق الأوسط1999/3/15.
15. الحياة 1999/3/16.
16. الآية:14 من سورة الحشر.
17. الشرق الأوسط 1998/10/23، الحياة 1998/10/24.
18. الحياة 1999/5/10.

19. الأهرام 1999/5/7، الحياة 1999/5/17، جريدة الشعب 1999/6/9.
20. طالبان: العقوبات تؤثر على الشعب لا علينا، في إسلام أون لاين (1999/11/15).

http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/alhadath-15-11/alhadath7.asp

21. حبيب الله فوزي، مصدر سابق. و رحمة الله هاشمي (السفير الطالباني المتجول): ابن لادن اختراع أمريكي ومستعدون لتقديم اقتراح رابع بشأنه، الشرق الأوسط 2001/6/13.
22. أحمد دياب، طالبان تحت الحصار، الأهرام،2001/3
23. مفتي طالبان: الأفغان لن ينقلبوا ضدنا، الشرق الأوسط 2000/2/9.
24. راجع مقالاً على حلقتين للأمير عبد العزيز بن سطام بن عبد العزيز: تماثيل باميان: شبهات وردود 2/1/، 2/2 الشرق الأوسط7، 2001/4/8. وانظر:

- عبده مباشر، طالبان والوفد الإسلامي، مصدر سابق. فتوح سالمان: "**بوذا**".. عزيز قوم زلته طالبان، الأهرام2001/3/18، مفتي مصر: لابد للعالم الإسلامي أن يتواصل مع أفغانستان لإنهاء حصارها، الشرق الأوسط2001/3/2، وليد نويهض، إنقاذ تماثيل بوذا يبدأ برفع الحصار الدولي عن أفغانستان، الحياة، 2001/2/. وتابع:

- الشرق الأوسط 2001/2/5، الحياة 2001/2/7، الشرق الأوسط 2001/2/14.

25. الحديث (**أنتم أعلم بأمور دنياكم**) مع آية (**ليتفقهوا في الدين**) (التوبة:122)، يدلان على صحة تقسيم العلم إلى علم دين وعلم دنيا، وأن المرجع في ذلك إلى استيعاب علوم الدين، فما لم يكن منها أو مؤصلاً فيها فهو شأن دنيا، والله أعلم.
26. تابع: الحياة يناير-فبراير 2001،

- سامر علاوى: تكسير بوذا: إثارة العالم على الطريقة الأفغانية 2001/3/12، في

http://www.islamonline.net/iol-arabic/politics/2001/03/article6.shtml

27. راجع: تقي الدين بن تيمية، السياسة الشرعية لابن تيمية، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر،د.ت. حيث يقول: "اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: اللهم أشكو إليك جَلَد الفاجر وعجز الثقة)، ص 16.
28. حامد عبد الماجد، أسباب نشأة الأفغان العرب (**2**) مصدر سابق، ص8/5-8/8.
29. المصدر السابق (الرؤى الفكرية والخريطة التنظيمية للأفغان العرب)، ص7/3.
30. عصام دراز، مصدر سابق، ص 40-42
31. المصدر السابق، ص 42-44
32. الشعب 1999/1/12.
33. نيوزويك ، الشرق الأوسط 1998/12/25
34. حامد عبد الماجد، (الرؤى الفكرية) مصدر سابق، ص7/5
35. المصدر السابق، ص5-7/6، وانظر: نبيل شرف الدين، بن لادن..طالبان..الأفغان العرب والأممية الأصولية، (القاهرة، مكتبة مدبولي، 2002)
36. راجع: عبد الله الأشعل: المحاولات الإسلامية لمعالجة الأزمة الأفغانية (في): إبراهيم عرفات (محرر)، مصدر سابق، ص ص
37. الشرق الأوسط 1998/12/25.
38. حديث لوكالة الأنباء القطرية.
39. الحياة 1999/7/31، والحياة 1999/2/8.
40. الأهرام 1999/7/10.
41. الحياة 1998/11/21، الشرق الأوسط 1999/3/27.
42. الشرق الأوسط 1999/7/11.
43. الشرق الأوسط 1998/11/22.
44. الحياة 1999/11/11، الحياة 1999/7/29.
45. الشرق الأوسط 1999/11/2
46. الأهرام 1999/11/15.
47. الشرق الأوسط 2001/2/1.
48. أحمد دياب، مصدر سابق.
49. ميشيل نوفل، مصدر سابق، ص ص 9-11، وتوفيق المديني، صعود طالبان في أفغانستان والصراع على آسيا الوسطى، شئون الأوسط، ع: 75، سبتمبر 1998، ص ص 22-25.
50. توفيق المديني، المصدر السابق، ص ص 30-32.
51. حديث الأهرام مع الجنرال مشرف، الأهرام 2001/1/27.

52. قنبلة باكستان الجديدة، الوطن العربي، مصدر سابق، ص13، و: عبد الحليم الغزالي: بيشاور قاعدة لجهاد آخر يقترب، الأهرام 2001/10/2.

53. صالح محمد الختلان، الجمهوريات الإسلامية والخيار الديمقراطي، دراسة وصفية تحليلية مقارنة للتغيرات السياسية في آسيا الوسطى، (القاهرة: مركز الدراسات الآسيوية بكلية الاقتصاد جامعة القاهرة، سلسلة أوراق آسيوية، ع14، يونيو1997).

54. سامر علاوى: تقاطع المصالح الدولية: هل يجلب السلام لأفغانستان؟ إسلام أون لاين أكتوبر 2000 في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia-oct-2000/qpolitic27.asp (p2/6)

55. المصدر السابق، ص ص 6/2.

56. نفسه، ص ص 6/3.

57. ألكسندر كوليك: أوزباكستان والتحالف ضد الإرهاب، الحياة 2001/7/18.

58. عمر عاشور، مجموعة شنغهاي: تحالف مصلحي أم صراع حضاري-أيديولوجي؟ (إسلام أون لاين يوليو2000)ص4/1 في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia-jul-2000/qpolitic8.asp (p1/4)
- شيرين حامد فهمي، الدفاع الصاروخي الأمريكي يفلس روسيا والصين، قمة شنغهاي.. تحالف ضد الهلال والكاوبوي (إسلام أون لاين2001/6/21) ص 6/3 في:
http://www.213.131.72.229/arabic/politics/2001/06/article21.shtml(p3/6)

59. خالد شمت، اللعبة الكبرى وفي وادي فرغانة (إسلام أون لاين 2001/2/25)، ص6/1
http://www.islamonline.net/arabic/politics/2001/02/article25.shtml (p1/6)

60. عمر عاشور، مصدر سابق، ص2-4/3.

61. أحمد الراوي، طالبان والهندوس، مصدر سابق.

62. فيكتور بوسوفاليوك، عفريت أطلق من القمقم، الحياة 1998/11/5.

63. شيرين فهمي، الدفاع الصاروخي، مصدر سابق، ص6/2.

64. انظر: عمر عاشور، مصدر سابق، شيرين فهمي، المصدر السابق، خالد شمت، مصدر سابق، ثم انظر: صهيب جاسم: "**التنين الأصفر**" يستفحل.. و"**الدب الأبيض**" يتقلص (إسلام أون لاين 2001/6/25، شئون سياسية آسيا) في: وانظر: عمر فاروق: دول آسيا الوسطى تسعى إلى تشكيل حلف أمني يشبه "الناتو.. لكن لمحاربة الأصوليين، الشرق الأوسط 2001/2/20.
http://www.islamonline.net/arabic/politics/2001/06/article26.shtml

65. ظفر الإسلام خان: زيارة بوتين للهند: "شراكة استراتيجية" مجهولة المعالم (إسلام أون لاين.نت، شئون سياسية) في:
http://www.islamonline.net/arabic/qpolitic/oct-2000/qpolitic5.asp

66. نورهان الشيخ: إيران وروسيا.. محور استراتيجي ضد الغطرسة الأمريكية (إسلام أون لاين. نت 2001/6/7) في
http://www.islamonline.net/arabic/politics/2001/06/article3.shtml (p2/6)
و: محمد السعيد عبد المؤمن: إيران وروسيا: علاقة استراتيجية متميزة (إسلام أون لاين 2001/3/22)
http://www.islamonline.net/arabic/politics/2001/03/article17.shtml

67. إسلام أون لاين.نت، أولبرايت تحرض ضد الصحوة الإسلامية في آسيا الوسطي، أهم الأخبار 2000/4/17
http://www.islamonline.net/iol-arabic/politics/2001/03/article17.shtml
وانظر: أحمد دياب، مصدر سابق.

68. مقتدر خان (ترجمة: حنان سيف النصر). الأمن قبل كل شئ، (إسلام أون لاين. نت) في
http://www.islamonline.net/iol-arabic/politics/2001/03/article17.shtml

69. أحمد دياب، مصدر سابق.

70. عبد القادر عبد الهادي، سياسة قديمة في وعاء جديد، (إسلام أون لاين.نت) في
http://www.islamonline.net/arabic/qpolitic/April-2000/qpolitic13.asp (p3/5)

71. أحمد دياب، مصدر سابق.

72. إسلام أون لاين.نت: تعاون الهند وإسرائيل العسكري يغضب أمريكا في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/dawalia/alhadath2000-jul-4/alhadath-9.asp
- وانظر: سامر علاوي، يهود الهند يستعدون للهجرة إلى أرض الميعاد، الموقع نفسه في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/dawalia/alhadath2000-jul-2/alhadath4.

73. ظفر الإسلام خان: الهند تصدر الصواريخ وإسرائيل شريكة (إسلام أون لاين.نت، الأخبار، 1999/10/17).
http://www.islamonline.net/iol-

arabic/dawalia/alhadath2000-jul-4/alhadath-9.asp

74. إسرائيل تاسع مستثمر في الهند، إسلام أون لاين. نت

75. حسام سويلم: إسرائيل تدخل دول آسيا الوسطى الإسلامية من أبواب الحاجات الاقتصادية والمخاوف الأمنية والهجرة "السوفياتية"، الحياة 2001/7/7.

76. إسلام أون لاين نت: الأخبار: مسئول أفغاني، التفجيرات أكبر من بن لادن (2001/9/12) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/12/Article4.shtml

77. إسلام أون لاين.نت، الأخبار (2001/9/15)، طالبان: تقاتل حتى الموت، في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/15/Article49.shtml

78. الأهرام والحياة 2001/9/15.

79. إسلام أون لاين.نت، باكستان.. الشعب والأحزاب رفضوا التحالف الأمريكي (2001/9/16).
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/16/Article96.shtml

80. إسلام أون لاين.نت، الأخبار: بن لادن: أنا برئ.. وتابع لأمير المؤمنين (2001/9/17) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/17/Article3.shtml

81. الأهرام 2001/9/18.

82. الأهرام، الحياة 2001/9/20.

83. الحياة 2001/9/21.

84. إسلام أون لاين.نت، الأخبار: طالبان (ابن لادن: اذهب إن أردت الرحيل) (2001/9/20).
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/20/Article58.shtml

85. الأهرام 2001/9/18

86. إسلام أون لاين.نت، الأخبار: بوش: من ليس معنا فهو مع الإرهاب (2001/9/21) في
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/21/Article72.shtml
وراجع الأهرام، الحياة، الشرق الأوسط 2001/9/21.

87. الحياة 2001/9/21.

88. الحياة 2001/9/21.

89. إسلام أون لاين، الأخبار،طالبان تحذر أوزباكستان من التعاون ضدها، 2001/9/24.
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/24/Article84.shtml
والأهرام والحياة 2001/9/25.

90. إسلام أون لاين.نت، الأخبار، طالبان تناشد العالم تفادي الحرب (2001/9/24) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/24/Article94.shtml

91. نفسه، شروط الملا عمر لوقف الحرب (2001/9/24)
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/24/Article86.shtml

92. نفسه، 40 ألفاً يبايعون طالبان على الموت، (2001/9/24) في
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/24/Article85.shtml

93. نفسه، الإمارات تقطع علاقاتها مع طالبان (2001/9/22) في
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/22/Article87.shtml
نفسه، السعودية تقطع علاقاتها مع طالبان (2001/9/25) في
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/25/Article57.shtml

94. نفسه، حسبان الله عبد الباقي، باكستان تغلق سفارتها ورباني يجتمع بالأمريكان (2001/9/26) في
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/26/Article22.shtml

95. نفسه، بن لادن، منفذو الانفجارات من داخل أمريكا (2001/9/29) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/29/Article111.shtml

96. الأهرام 2001/9/26

97. إسلام أون لاين.نت، الأخبار، جيران أفغانستان يفتحون مجالهم الجوى لأمريكا (2001/9/25) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/25/Article99.shtml

98. الحياة 2001/9/27

99. إسلام أون لاين.نت، الأخبار، طالبان تبحث عن أنف إسرائيل في أفغانستان (2001/9/30) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/30/Article54.shtml

100. نفسه، أوبزرفر: أمريكا ستضرب أفغانستان خلال ساعات، (2001/10/1) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/01/Article55.shtml

101. نفسه، باكستان تغلق مجالها الجوى، (2001/10/4) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/04/Article90.shtml

102.نفسه، خبراء: بدائل طالبان في الحكم بلا شعبية (2001/9/24) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/24/Article5.shtml
نفسه، خطة طالبان الثلاثية لمواجهة أمريكا، (2001/10/6) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/06/Article11.shtml
103.نفسه، طالبان: خاطفو الطائرات قتلوا فلماذا الحرب؟!في (2001/10/6)
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/06/Article17.shtml
104.المصدر السابق.
105.حوار رباني مع (الحياة)
106.إسلام أون لاين.نت، الأخبار: الناتو يعدّ ظاهر شاه مكان طالبان (2001/9/16)
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/16/Article87.shtml
ولمعلومات عن مجلس اللويا جركة راجع:
محمد ناصرى، "لويا جركة"..محاولة للحل من داخل التجربة الأفغانية، إسلام أون لاين.نت، (شئون سياسية) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/gqpolitic-june02000/qpolitic21.asp
107.إسلام أون لاين.نت، الأخبار، ثلاثة سيناريوهات لعودة ظاهر شاه (2001/9/25) في
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/25/Article64.shtml
- نفسه، ظاهر شاه يؤيد التدخل في أفغانستان، (2001/9/28) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/28/Article22.shtml
108.نفسه، ظاهر شاه: إسقاط طالبان بأيدينا لا بالأمريكان، (2001/9/30) في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/30/Article4.shtml
109.الشرق الأوسط، الحياة 2001/9/30.
110.المصران السابقان.
111. **Northern Alliance Says it has seized Key routes in:(21/9/2001)**
http://www.megastories.com/attacklaop/aip020921.shtml
- إسلام أون لاين.نت، حكميتار يرفض الانضمام لبديل طالبان (2001/10/19):
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/20/Article14.shtml
112.إسلام أون لاين.نت، الأخبارــ دول آسيوية.. التحالف مع بوش بشروط (2001/9/15) في
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/15/Article54.shtml
113.نفسه، بدء تدفق القوات الأمريكية على باكستان.
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/16/Article58.shtml
114.الحياة 2001/9/17.
115.إسلام أون لاين.نت، الأخبار، باكستان.. الشعب والأحزاب وفضوا التحالف الأمريكي (2001/9/16)
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/16/Article96.shtml
116.المصدر السابق.
117.نفسه
118.الحياة و الشرق الأوسط 2001/9/20
119.المصدران السابقان.
120.إسلام أون لاين.نت، الأخبارــ واشنطن تدعو لتحالف دولي لمكافحة الإرهاب (2001/9/13) في
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/13/Article2.shtml
121.إسلام أون لاين، باكستان الشعب والأحزاب، مصدر سابق.
122.الأهرام 2001/9/19
123.المصدر السابق.
124.إسلام أون لاين.نت، الأخبار، مجاهد وباكستان يتصدون لأمريكا (2001/9/23).
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/23/Article38.shtml
125.الحياة والشرق الأوسط 2001/9/24.
126.المصدران السابقان.
127.حسبان الله عبد الباقي، مصدر سابق.
128.إيمان محمد، إسلام أون لاين.نت، الأخبار، أربع عقبات تواجه تعاون باكستان وأمريكا (2001/9/26)
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/16/Article78.shtml
129.إسلام أون لاين.نت، الأخبار: سقوط طالبان قلاقل لباكستان (2001/9/27)
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/16/Article108.shtml
130.نيوزويك
131. إسلام أون لاين، دول آسيوية... التحالف مع بوش بشروط، مصدر سابق
132.الحياة والشرق الأوسط 2001/9/18.

133.المصدران السابقان.

134.إسلام أون لاين.نت، الأخبار، جيران أفغانستان يفتحون مجالهم الجوى لأمريكا (2001/9/25)

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/25/Artic99.shtml

135.المصدر السابق.

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/22/Artic19.shtml

136.مطيع الله تائب، إسلاميو طاجيكستان يرفضون الحرب ويؤيدوها!! (إسلام أون لاين نت، الأخبار،2001/10/9)

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/09/Artic59.shtml

137.المصدر السابق.

138.نفسه.

139.الأهرام 2001/9/17.

140.الحياة و الشرق الأوسط 24، 2001/9/25

141.إسلام أون لاين.نت، الأخبار، أوزباكستان: لا لضرب طالبان من أراضينا (2001/10/5)

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/05/Artic59.shtml

142. **Taliban warn Uzbakistan against aiding U.S attacks:**

http://www.megastories.com/attacklaop/aip040924.shtml

143.الحياة 2001/9/25.

144.مطيع الله تائب، الحرب الأوزبكية على الرحى الأفغانية (إسلام أون لاين.نت، الأخبار، 2001/10/10)

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/10/Artic77.shtml

145.المصدر السابق.

146.إسلام أون لاين، الأخبار، أمريكا تنشر 1000 جندي بطاجيكستان وأوزباكستان (2001/10/4)

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/04/Artic91.shtml

147.الشرق الأوسط 2001/10/7، بي بي سي أونلاين،

148.إسلام أون لاين.نت، جيران أفغانستان، مصدر سابق.

149.الأهرام 2001/9/13.

150.حمدى الحسيني، خبير روسى، أسلحة أمريكا لن تحسم الحرب، (إسلام أون لاين، الأخبار، 2001/11/8)

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-11/08/Artic19.shtml

151.إسلام أون لاين.نت، الأخبار، دول آسيوية، مصدر سابق.

152.الأهرام 2001/9/20.

153.إسلام أون لاين.نت، بوش يطلب تأييد بوتين (2001/9/22).

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/22/Artic19.shtml

154.المصدر السابق.

155.الأهرام 2001/9/26.

156.الحياة و الشرق الأوسط 2001/9/27

157. الشرق الأوسط 2001/10/1

158.المصدر السابق.

159.الأهرام 2001/9/29

160.المصدر السابق.

161.نفسه.

162.إسلام أون لاين 2001/9/24

163.الحياة و الشرق الأوسط 2001/9/27.

164.المصدران السابقان.

165.إسلام أون لاين.نت، روسيا وأمريكا معًا ضد الشيشان وأفغانستان (2001/9/26).

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/26/Artic21.shtml

166.الأهرام و الحياة 2001/10/1.

167.دانييل بورشتاين وأرنيه دي كيزا، (ترجمة شوقي جلال)، التنين الأكبر: الصين في القرن الواحد والعشرين، سلسلة عالم المعرفة271 (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يوليو2001) وانظر فيه على الأخص الجزء الثاني: "معايير الحكم علي الصين"؛ إذ تلاحظ غلبة فكرة التناقضات والغموض على طرائق النظر والممارسة في الشأن الصيني، وانظر أيضاً:

سوسن حسين، رؤى غربية للقارة الآسيوية، (القاهرة، مركز الدراسات الآسيوية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية-جامعة القاهرة)، العدد11، ديسمبر 1996، إذ تقدم ستة مقالات (ص ص25-71) تفصح عن نفس الفكرة: الغموض والتناقضات.

168.إسلام أون لاين، واشنطن تدعو لتحالف دولي، مصدر سابق.

169.إبراهيم نافع، الأهرام،

170.الوفد 2001/9/26 والأهرام 2001/9/27.

171.ليلى سعيدة، إسلام أون لاين، الأخبار، الصين تساند التحالف وتخشى آثاره (2001/9/26)،

http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/26/Artic106.shtml

172.المصدر السابق.
173.نفسه.
174.الأهرام (حوار إبراهيم نافع)
175.الحياة 2001/9/18
176.الشرق الأوسط 2001/9/19
177.إسلام أون لاين. نت، الأخبار، 2001/9/23: بوش يكافئ الهند وباكستان برفع العقوبات
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-09/23/Artic20.shtml
178.الحياة والشرق الأوسط 2001/10/8.
179.الحياة 2001/10/9
180.المصدر السابق.
181.إسلام أون لاين. نت، الأخبار، 2001/10/7، بن لادن: أقسم بالله لن تحلم أمريكا بالأمن، في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/07/Artic24.shtml
182.الأهرام 2001/10/10.
183.المصدر السابق.
184.الشرق الأوسط 2001/10/10.
185.الأهرام 2001/10/18.
186.
187.
188.الحياة 2001/10/13.
189.الحياة 17، 2001/10/18.
190.الشرق الأوسط 2001/10/20.
191.الحياة 2001/10/20.
192.الشرق الأوسط 2001/10/22.
193.راجع: - أحمد محمود، بن لادن: رجل بلا أمة، (القاهرة: زهرة المدائن للنشر والتوزيع، ط1، د.ت.).
- جمال عبد الرحيم، بن لادن يشعل الحرب، (القاهرة، بدون دار نشر، ط1، أكتوبر 2001).
- نبيل شرف الدين، بن لادن، طالبان...، مرجع سابق.
194.الشرق الأوسط 28-2001/10/30.
195.الشرق الأوسط 2001/10/30.
196.الحياة 2001/10/29.
197.الحياة 2001/10/23.
198.نيوزويك، الطبعة العربية، 4 نوفمبر 2001، ع: 73.
199.المصدر السابق.
200.الحياة والشرق الأوسط 28،2001/10/27.
201.الشرق الأوسط 2001/10/29.
202.إسلام أون لاين. نت، الأخبار، 2001/10/9، البنتاجون: تفوقنا في الجو وسنبدأ في البر، في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/09/Artic58.shtml
203.الحياة 2001/11/6.
204.الحياة 2001/10/28، الحياة 2001/11/2. وانظر: عبد العزيز كامل، التحالف غير المقدس بين أصحاب الشَّمال وأصحاب الشِّمال، البيان، ع 170، شوال 1422هـ، يناير 2002، ص ص 98-108.
205.الأهرام، عبد الحليم الغزالي، حدود الصدام بين مشرف والأحزاب الدينية، 2001/10/10.
206.تابع توارد الأنباء عن هؤلاء المناصرين لطالبان سيما من مسلمي الغرب في: الحياة والشرق الأوسط منذ اندلاع الغارة الأنجلوأمريكية على طالبان 2001/10/7 وحتى وقوع مذبحة جانجي 25-2001/11/27.
207.الشرق الأوسط 2001/10/25.
208.الشرق الأوسط 2001/10/27، 2001/10/31.
209.راجع في
210.الحياة 2001/10/11.
211.تابع حركة الأخضر الإبراهيمي منذ بدء الغارة الأنجلوأمريكية على أفغانستان، وحتى انعقاد مؤتمر بون، في الحياة والشرق الأوسط 2001/10/8 -2001/12/5.
212.الحياة 2001/11/4.
213.إسلام أون لاين. نت، شئون سياسية، 2001/10/27، باكستان: نؤيد من يسيطر على الأرض في أفغانستان، في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/politics/2001-10/27/Artic44.shtml
214.الأهرام، باكستان وطالبان .. افتراق إجباري صعب، 2001/10/7.
215.بي بي سي أونلاين، 2001/10/7.
216.الشرق الأوسط 2001/10/8.
217.الشرق الأوسط 2001/10/10.
218.إسلام أون لاين. نت، الأخبار، 2001/10/9، في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/09/Artic4.shtml
219.الأهرام، عبد الحليم الغزالي، حدود الصدام...، مصدر سابق.

220.الحياة 2001/10/8.
221.المصدر السابق.
222.راجع فتوى الشيخ نظام الدين شامزاي الاثنين 2001/10/8، في: إسلام أون لاين. نت، فتوى لإسقاط القادة المتعاونين مع العدو:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/09/Artic4.shtml
223.الحياة 2001/10/15.
224.الشرق الأوسط 2001/10/15
225.إسلام أون لاين. نت، 2001/10/26، مظاهرات باكستانية تطالب بإقالة مشرف، في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/31/Artic42.shtml
226.إسلام أون لاين. نت، 2001/10/18: مشرف بين نارين.. واشنطن والشعب، في:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/News/2001-10/19/Artic88.shtml
227.الحياة 2001/10/27.
228.الشرق الأوسط 2001/10/28.
229.الأهرام 2001/10/10.
230.الأهرام 2001/10/30.
231.الحياة 2001/10/17.
232.الشرق الأوسط 5، 2001/11/6.
233.إسلام أون لاين. نت، 2001/10/10، الحرب الأوزبكية على الرحى الأفغانية، مصدر سابق.
234.بي بي سي أونلاين 2001/10/10، الحياة 2001/10/13.
235.إسلام أون لاين. نت، الحرب الأوزبكية، مصدر سابق.
236.الحياة 2001/10/13.
237.الحياة 2001/10/14.
238.المصدر السابق.
239.الشرق الأوسط 2001/10/30.
240.الحياة 28-2/31-2001/10.
241.الحياة 2001/11/1، الأهرام 2001/11/2.
242.الحياة 2001/11/1.
243.المصدر السابق.
244.إسلام أون لاين. نت، الأخبار
245. المصدر السابق.
246.الحياة 2001/10/10.
247.المصدر السابق.
248.الحياة 2001/10/31.
249.الأهرام 2001/10/27، الحياة 2001/10/31.
250.الحياة 2001/10/31.
251.الأهرام 2001/10/18.
252.المصدر السابق.
253. نفسه.
254.نفسه.
255.نفسه
256.الأهرام 2001/10/10.
257.الحياة 2001/10/10.
258.الأهرام 2001/10/14.
259.الحياة 2001/10/17.
260.الأخبار 2001/10/13.
261.الأهرام 2001/1/10/18، الحياة 2001/10/22.
262.الحياة 2001/10/22.
263.المصدر السابق.
264.نفسه.
265.الأهرام 2001/10/14: عبد الله عبد السلام، حروب صغيرة على هامش حملة مكافحة الإرهاب.
266.الأهرام 2001/10/30.
267.الأهرام 2001/10/31.
268.المصدر السابق.
269.الحياة 2001/11/2.
270.الحياة 2001/11/4.
271.المصدر السابق.
272.نفسه.
273.الشرق الأوسط والأهرام 2001/11/16.
274.الأهرام 2001/11/20.
275.المصدر السابق.
276.الأهرام 2001/11/17.
277.المصدر السابق.
278.الشرق الأوسط والأهرام 2001/11/16 (وافق أول أيام رمضان 1422 هـ).
279.المصدر السابق.
280.نفسه.
281. الحياة 2001/11/21.

282.المصدر السابق.
283.محمد السعيد إدريس، أي نظام عالمي بعد الحرب الأمريكية ضد أفغانستان؟ الأهرام 2001/11/16.
284.عبد العليم محمد، أم المعارك الأمريكية والإرهاب من المنظور الأخلاقي، الأهرام 2001/11/16.
285.المصدر السابق.
286.سعيد عبد الخالق، من ينقذ الأفغان من الأفغان؟ الأهرام 2001/11/17.
287.المصدر السابق.
288.الأهرام 2001/11/17.
289.الحياة 2001/11/21.
290.الشرق 2001/11/21 الأهرام2001/11/21.
291. الأهر ام 2001/11/29.
292.المصدر السابق.
293.نفسه.
294.الحياة 2001/11/19.
295.المصدر السابق.
296.نفسه.
297.الأهرام2001/11/20.
298.الشرق 2001/11/21.
299.الأهرام 2001/11/29.
300.الحياة 2001/11/17.
301.إسلام أون لاين. نت، 2001/11/30
http://www.islamonline.net/Arabic/News/2001-11/30/Article57.shtml
302.الأهرام 2001/11/19، الحياة 2001/11/19.
303.الشرق 2001/11/21.
304.المصدر السابق.
305.الأهرام 2001/11/19.
306.الأهرام 2001/11/20، الأهرام 2001/11/19.
307.الحياة 2001/11/20.
308.الحياة 2001/11/21.
309.الحياة 2001/11/17، الأهرام 2001/11/19.
310.الحياة2001/11/17.
311.الأهرام 2001/11/21.
312.
313.
314.
315.الحياة 2001/11/20
316.الحياة 2002/1/20.